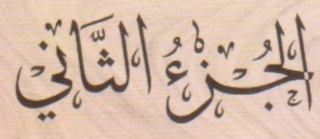
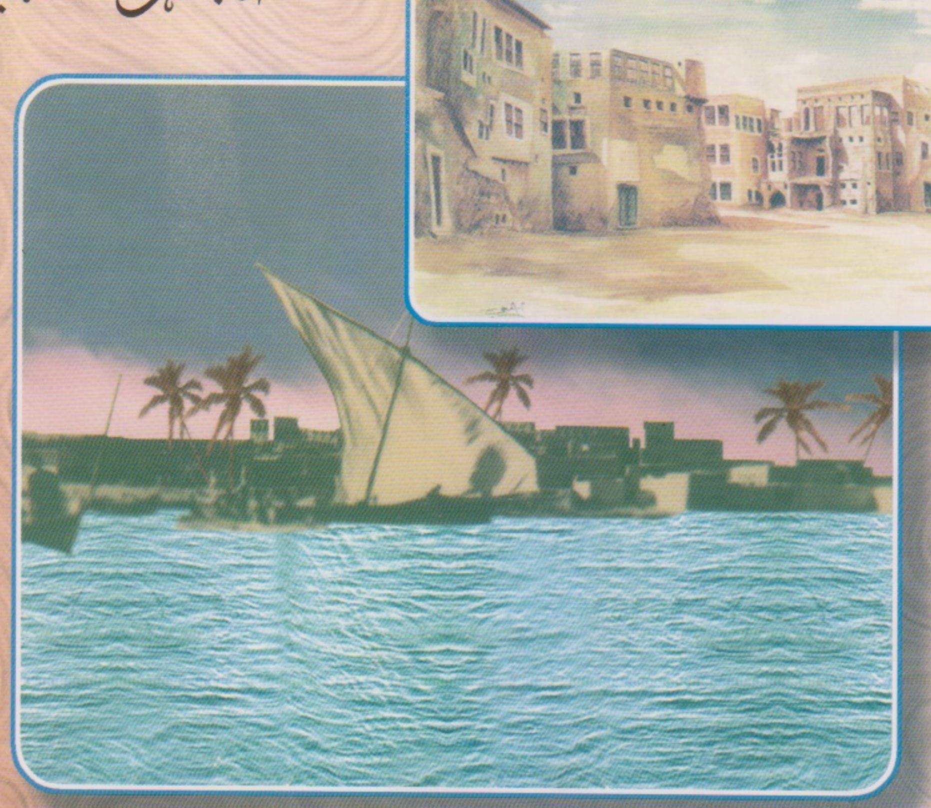
خيوط من الشمس

قصة وتاريخ







محمد سعيد الشيخ علي الخنيزي

خيوط من الشمس
قصّة وتاريخ

خيوط من الشمس

قصة وتاريخ

الجزء الثاني

محمد سعيد الخنيزي



الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م



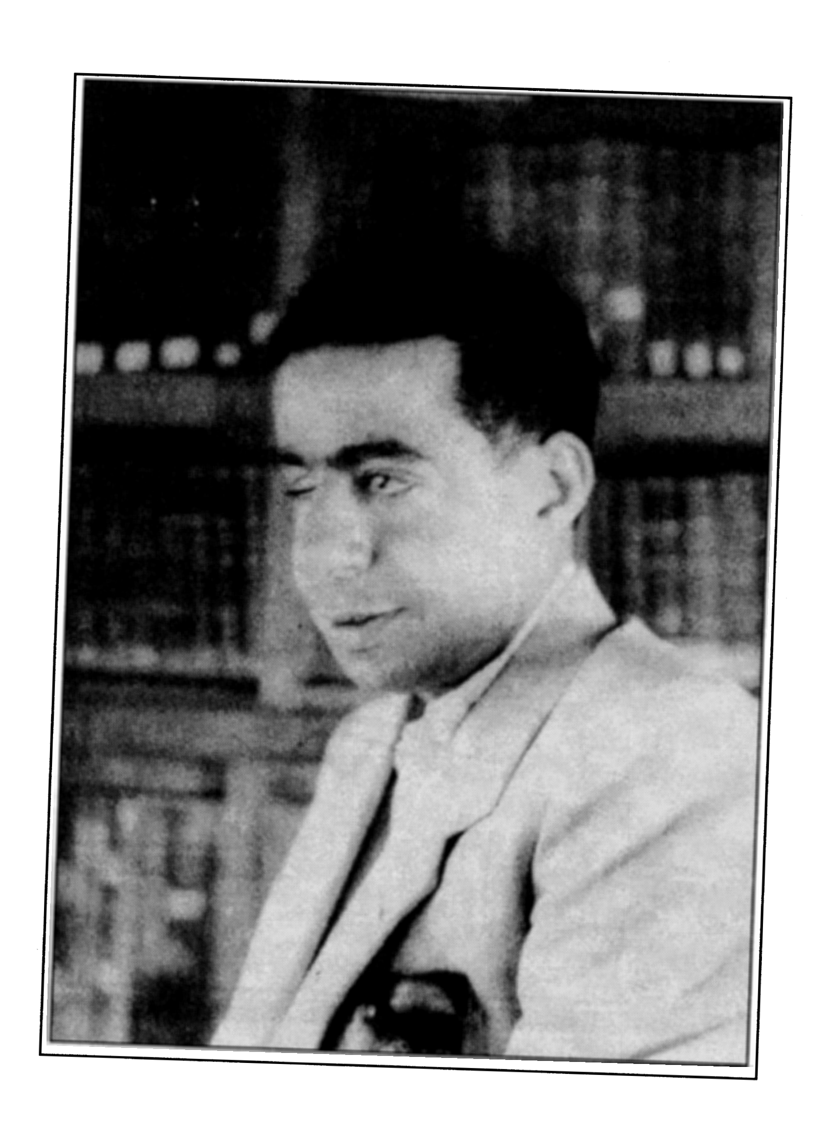


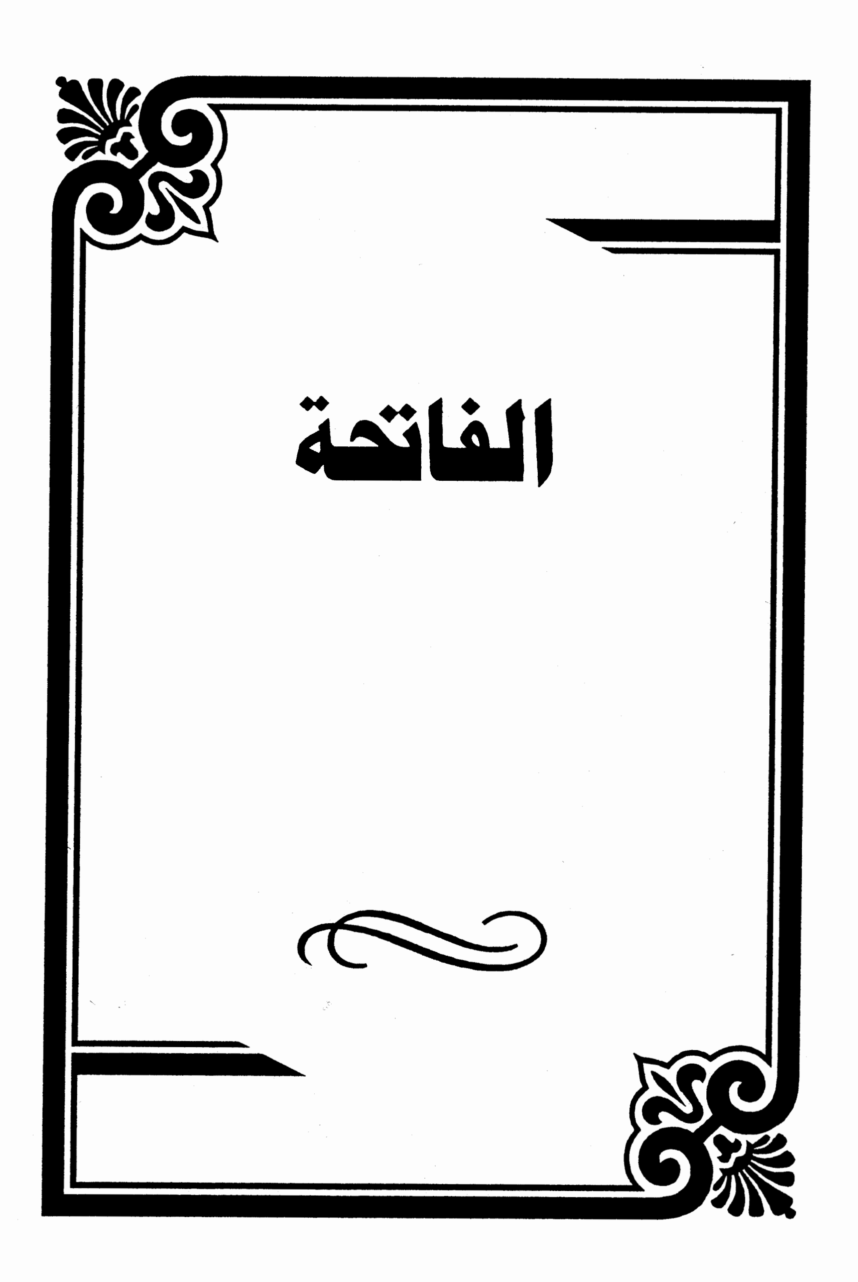
للطباعة والنشر والتوزيع

المكتب : بئر العبد سنتر الإنماء ـ ط٣ ـ المستودع : صفير ـ جانب فرن الأمراء

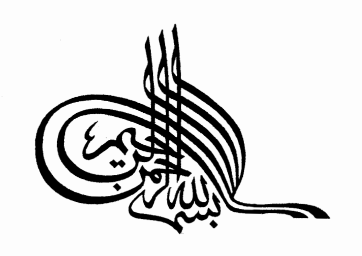
ص.ب : ١١٧٩٥٢ ـ هاتف : ٠١/٥٥٣١١٩ ـ ٠٥/٤٦٣٢٥٨ ـ بيروت لبنان

صورة المؤلف في فجر الشباب





الفاتحة



والحمد لله رب العالمين، فاطر السموات والأرض، وخالق كل شيء، نحمده ونشكره على ما وفق من تكملة المجلد الأول لخيوط من الشمس «قصة وتاريخ».

وإنني إذ أفتتح المجلد الثاني من كتاب خيوط من الشمس - سيرة ذاتية، قصة وتاريخ - أفتتحه بهذه الأحرف، حيث أن للحرف طاقات معنوية، وأداة تعبيرية، هي من أكبر النعم، ومن أفضال المنعم الخالق.

فلولا الحرف لضاعت المُثل العُلى، وانطوى التاريخ، ولم يستطع المصلحون أن يرسلوا إسلوبهم الإصلاحي لإرشاد هذه البشرية، ولجفت ينابيع الفكر على ثغور مفكريها، وماتت إطروحاتهم في لهاتها.

فالحرف: هو الضوء، وإشراقة التعبير التي ترسل الفجر في عتمة الحياة، فكان له الدور منذ فجر هذا الإنسان وهو يتطور، ويطور الإنسانية في صعودها الشامخ لمراتب الرقي، والكمال.

فلولا الحرفُ، ورواة التاريخ الذين يعنون، ويعشقون الحرف، وينفقون وقتهم في رواية الحرف، ونقشه، ورسمه في صخرة التاريخ

كما يحفر الفنانُ بإزميله الصخر ، ليرسم عليها صورةً من الصور ، فإن المفكر يحفر بقلمه ألواناً من صور الحياة على جبهة التاريخ صفحات ، تنير للأجيال فتتقاذفها الرواة لتسير ، وتدور دورة الفلك ، أو دورة الشمس حول نفسها .

ولولا الرواة لكان التاريخ موجة من دخان تتبخر ، وتضيعُ في تلافيف الزمن ، ولابد أن تكتنف الرواة صحوة من يقظة الضمير والأمانة ، وتصوغ حرفاً لا ينغمس في موجة الأهواء ، أو شهوة العواطف ، أو الانغلاق الفكري ، أو التعصب المذهبي ، أو على أنقاض التراث ، فإذا تجرد الراوي ، وعاش للحق والتاريخ كان راوياً مؤرخاً حقيقياً لا تاريخ زيف ، يموتُ أشلاءً على كف الزمن ، بعد أن يضلل العقول البسيطة ، ويتركها تضرب في صحراء لا حدود لها .

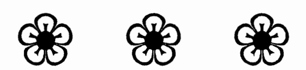
فلهذه العوامل التي تتمشى فتطحنُ التاريخ والحياة بكل ما فيها ، أحببتُ أن أضع هذه الأطروحة المكونة في مجلدين معتمداً على مصادر الرواية ، والرؤيا الواقعية ، ولم أتحيز في هذا الكتاب لسلسلة الحوادث التاريخية ، والقضايا الزمنية التي أمر بقنواتها ، وأعبر بالأسباب التي تسبب الحديث عنها ، لربطها بقنواتٍ تمر بالسيرة الذاتية .

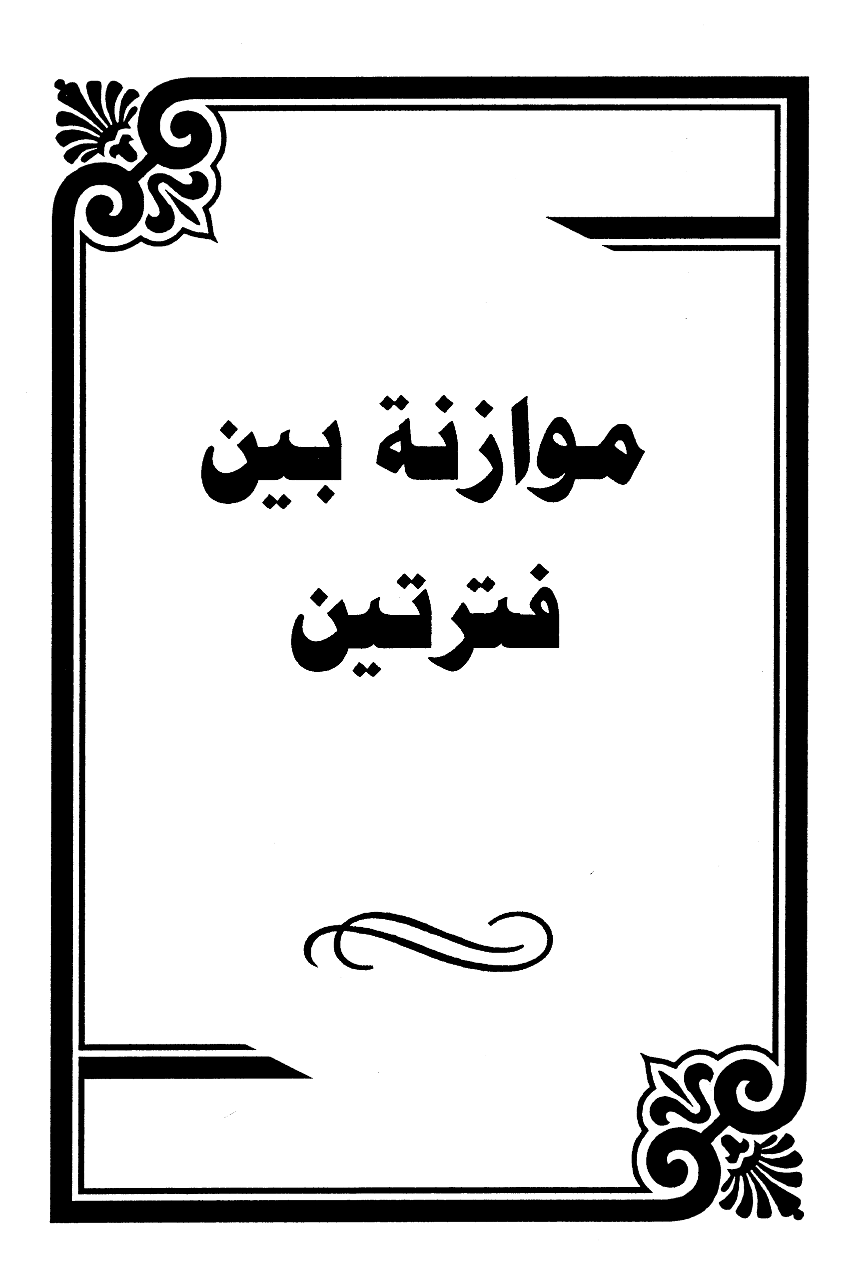
ولم يكن هذا الكتابُ قطعةً بحتةً من التاريخ لا ربط لها بالسيرة الذاتية ، إنما الجذور والمنبع الذي يتدفق منه الحرف الأخضر - السيرة الذاتية - ، وما يتصل بأفاقها ، كما أشرت له في مقدمة المجلد الأول .

ولعل قارئي تستهويه هذه القصة التي فيها من ألوان القصص، وضروب فصول، هى روايات من صميم الحياة غفت على ثغر الزمن الماضي، ومرت بالزمن الحاضر فأيقظتُها لتعيش معك أيها القاريء، وتشاركك ألواناً من الحياة راجياً من الله أن يكون لها القبول، والشوق لهذه الإطروحة، وأسأل الله التوفيق، وحسن المآب، إنه على كل شيء قدير.

٢٤/٧/١٤١٨هـ

٢٤/١١/١٩٩٧م





موازنة بين فترتين

سبق لي وأنا أتحدث عن دورحياة الفتاة القطيفية ، والعادات الشعبية الّتي تنعكس صُورُها على المجتمع ، وينطبع بها ، حتى تصير من شدة تعلقهِ أن تجري مجرى الدم في الشرايين .

لكل شعبٍ عادات ، وأساليب اجتماعية يسير عليها ، ولا يقبلُ نَقدهُ ، أو تَوجيههُ ، أو صَرفهُ عن تلك العادات ، حتى يبلغ ببعضِ العامةِ الهوسُ في بعض العادات ، فتعدها في معتقدها كأنها طقوس سماوية ، وقليل القليل من يضحي بنفسه في سبيل إرشاد هذه الدهماء ، الّتي تُعْشيها الشعارات البراقة ، والقشور الزائفة ، وتبتعد عن الحقيقة ، وجوهر اللب .

فهنا من لا ضمير له الذي يعيش على التجديف ، وعلى زنخ التدجيل ، يستغل هذه الناحية استغلالاً ، كي يثرى من هذه الطرق اللامشروعة .

وهذه التوطِئةُ لا أدري هل هي من صلب موضوعي ، أو خارجة عنه ؟ ! .

أما أنا فأعدُها من صميم الموضوعات الذي وعدت أن أكتب عنها في الصفحات السابقة ، وأضع بينها موازنة في هذه الخيوط .

إذاً لابد من التوطئة قبل وضع مقاييس الموازنة ، وإن كانت العادات الشعبية لا ضابط لها ، لأنها تنشأ من بعض ٍ، فيقلدها البعض الآخر ، فقد تُعَمِّر هذه العادات ، وقد تزول سريعاً .

والذي أريد أن أوازن بين حياة الفتاة القطيفية في الفترتين اللتين عشتهما ، أما الفترة الّتي رواها لي الآباء ، فقد تحدثت عنها بإيجاز في هذه الخيوط في الصفحات الماضية .

فهنا نتحدث على الفترة الّتي فتحتُ في أفقها عيني ، وشاهدتُ صورها ، أما الّتي لم أدرك بحسي مناظرها ، إنما حُكِيت لي روايات لا أرُيدُ أن أتحدث عنها في هذه الموازنة ، وقد خصصتُ حديثي على الفترة الّتي شاهدتُها ، ووعيتها حتى يومنا هذا .

وقد أشرنا إلى الظروف الّتي تلبست بها الفتاة القطيفية في هذا المجتمع ، وعاشتها في الدورين ، وبعض العادات الشعبية ، وكيف تنشأ ، وتزول ، وتحل مكانها عادات أخرى ، فلا حاجة لي إلى إعادتها وتفصيلها ؛ إنما البحث هنا عن : الإيجابيات ، والسلبيات أيهما أكثر إيجاباً ، أو سلباً ؟ .

وهل الحياة بما فيها من صور مُستجدة الطقوس والعادات أفضل من الحياة الّتي عاشها الأوائل سابقاً بعاداتهم ، ودرجوا على مدارجها ؟ ! . . .

ونسأل الذين طافوا في أفق الدورين ، وعاشوا على صعيديهما ، هل يحكمون بأفضلية الأيام الماضية ؟ ! أم اللاحقة ؟ ! . . . . هذا ما نريد أن نضع حوله مقاييسنا ، لنميز بين السلبيات ، والإيجابيات .

كل حياة اجتماعية وشعبية لابد أن تنعكس عليها سلبيات وإيجابيات ، إنما قد تكثر الإيجابيات على السلبيات ، والعكس بالعكس ، ليس هناك حياة كلها إيجابيات ، أو حياة كلها سلبيات .

على أن الحياة لا تكون خالية كخلو الأفق ، حينما يصفو الجو من الغيوم ، ويشرقُ فيه القمر متلألئ .

إن القيود الّتي كانت تحجب الفتى عن رؤية فتاتهِ قبل الدخول عليها ، وقلنا لا يراها إلا ليلة زفافها عروساً وردة تغط بعطرها ، وحللها الفضفاضة .

هنا السلبية قد تُولِّدُ عقداً للبعض ، كالكراهية ، والنفور من وجهة نظرة العناصر النفسية التربوية ، لأنه كحاطب ليل لا يدري :

ماذا يكون وراء احتطابه ، أيلامس حيةً ؟! ، أو عقربا ؟! ، أو قمراً ؟!.

وقد تكون هذه النظرة فاتنة تملك عليه قلبه ، وشعوره ، فيعيش مع فتاته في حياةٍ سعيدةٍ هنيئةٍ لما فيها من ترقب ، وشوق ، ولهفة للرؤية ، واللقاء .

إن هاتين النقطتين الرئيسيتين في حياة القِران التزاوجي ، ولا أخالها تختص قديماً بالحياة القطيفية أو الخليج ، بل فيما أحسب وأظن أنها تنتظم هذا الكوكب المسمى الأرض قبل أن يسري التجدد ، وتنشأ العادات الغربية وتستورد للشرق ، وتتغلغل في نفوس المسلمين ، وأرواحهم ، وبلادهم ، انكفأت تلك العادات السابقة ، وحلت محلها على اختلاف طبقات الشعوب ، اختلاط الجنسين في التعليم ، والمناداة باسم حقوق المرأة ليحطم كل ما لها

من حياة ستر يصونها عن الإبتذال ، ويهرقونها كما تهرق قارورة العطر .

ولم أشأ أن أتحدث عن هذه الناحية ، إنما جاءت هذه الجمل لتوضح البواعث الّتي دعت لإلتقاء الخطيب بخطيبته قبل الدخول عليها ، وقبل العقد الشرعي ، وهنا يحرم اللقاء ، لا يجوز للخطيب أن يرى خطيبته قبل العقد غير نظرة له منها ، هذه النظرة تباح له إذا كانت للزواج على أن تكون نظرة بريئة ، ويصون ما يراهُ على كتمان ما فيها .

أما ما فيها من سلبية - نريد أن نتحدث عنها - هي الانطلاقة الّتي تفسح الأفق للخطيب ، والخطيبة ، أو للزوج ، والزوجة قبل الدخول ، والوصف لها يعطيك صورة فارقة ، فهذه الانطلاقة على سعتها لها سلبيات تعود على الفتاة ، أو قل على الحياة الزوجية الّتي هي الرباط المقدس بالأضرار ، تنعكس على حياة الفتاة الغِريرة فتحطم حياتها .

أنا لا أقول إنها ليست زوجة له ، إنها زوجته الشرعية الّتي هو مسؤول عن معيشتها ، وما فيها من عيلولة ، وإدارة ، وإنما الزفاف هو بصفة إعلان رسمي لإشهار زواجهما .

والشاب بشر مازال في مهب الريح ، ولعل الشهوة الحمراء تثور في هذه النفس البشرية فتتغلب ، والنفس تتقلب بألوان كألوان الحرباء فتطبع فيها صور الرتابة ، والملل ، والسأم .

وقد يرتفع الرصيد المحموم إلى أوجِّ كراهةٍ فيقع الطلاق قبل الدخول بها ، وما أكثر وقوع هذه الفصول من هذه الرواية ؛ ففي

كل يوم تُطَلقُ فتيات كثيرات قبل الدخول بهن للبواعث الّتي حللنا كوامنها ، ومسجد العلامة الشيخ عبدالحميد الخنيزي المسمى بمسجد الشيخ أوال ، الواقع في فريق الخان من القلعة حاضرة القطيف شاهدٌ على ذلك ، لأنه مجال دون غيره لتلك البينونة .

وقد شاهدناه صوراً ، ومناظر واقعية تتكرر صفحة بعد صفحة ، وهو من المساجد القديمة المؤسسة قبل تسوير القلعة التي كان تسويرها بتاريخ عام ١٠٣٩ هـ بل لعله من حين تأسيسها المؤرخ عام ٢١٦ هـ ، كما ذكره العلامة الشيخ فرج العمران في كتاب الأزهار الأرجية في الآثار الفرجية بالجزء السادس صفحة (٦٢) .

إن هذه الصفحات تتكرر في حياتنا اليومية ، وتكون ضحيتها الفتاة الغَريرة ، وتكثر إذا كان حظها سيئًا ، وكان قرينُها زنخ الضمير ، يشبع منها جحيم شهوته الحمراء العنيفة ، ويدوس إنسانيته بأخمصيه ، فيلقي هذه الفتاة طعمة إلى سموم الرياح ، وهوة المستقبل المظلمة .

أما إذا كان متحصناً ، ومتذرعاً بالإيمان ، ومستقيماً على الطريقة المثلى ، فهذه الفتاة تنزل على قمة لها أوتاد ، لا تهوي بها إلى أعماق حياة مظلمة ، ومستقبل مجهول .

هذه السلبيات ، والإيجابيات الّتي أشرت لها تتولد ، وتنشأ في سماء نفوس ، وآفاق حياة لا يستطيع أن يحددها أبو الزوجة ، أو الزوج لأن أغلفة المستقبل لا تخرقها العقول ، ولا العيون ، ولا القلوب .

إن الحروف الّتي تخط في هذه الحياة دقيقة لا تُقرأ ، لأنها رمُوز وراء المجهول ، ولا يعلمُها إلا خالق السموات والأرض ، لأن بيده مصير كل شيء .

ولكن علينا أن نستعمل المصل للوقاية من الداء قبل حلوله، ونعمل على تنقية المحيط العائلي، والجو الإجتماعي بكل ما يُعَقِمهُ، ويبعد عنه الأمراض الوبائية الّتي تنشأ من المستنقعات، وتُفرخُ في المجتمع، فتنقل عدواها من العضو إلى الآخر.

كل ما علينا أن نحاول جادين في وضع هذه الأسس التربوية الخلقية المثالية، الّتي اقتبسناها من أسمى تعاليم الإسلام، الذي لم تقتصر طقوسه على ناحية من نواحي الحياة، بل إن ضوءه أشرق، وأضاء كل ما في هذا الكون، وأوجد كل ما يحتاجه الإنسان في حياته الخاصة والعامة، وفي يقظته، وسباته.

هذه اللمحة القصيرة الظل عن حياة القِران في مجتمعنا تصورا لخطوط التي رسمناها مقياساً في موازنة بين فترتين، حيث أوضحتُ السلبيات، والإيجابيات، ولم أمِل لفترة دون أخرى، بل سجلت حقيقةً محسوسةً مرئيةً تكاد تَلمسها بيديك، وتراها شريطاً سينمائياً متحركاً، يدور كدورة الحياة في كل يوم وليلة، ومن قراءتك لهذه الأحرف عليك أن تميز بين السلبيات، والإيجابيات، وتحكم بينهما برأيك.

ونعود لنتحدثَ عن بعض مراسيم العادات الشعبية الّتي تكون حجراً كؤوداً في مسار الشاب لحياته الزوجية، حيث تُثني عزائِمهُ، وترده القهقرى إلى ما وراء السنين، ويعيش لهفةً مشبوبةً، وجحيماً ساعراً إلى الجنس، فيطوي لياليه على لهفةٍ ممضة تعصره، وجَفناً مسهداً.

فإن كان من المؤمنين المستقيمين، صارع الرغبات الجامحة بسلاح الإيمان، وإن لم يكن غير مستقيم انزلق في مهاوي العصيان، ويؤرة

الشيطان ، والصخرة الكؤد التي تقف في طريق الشاب ، وتأخر قِرانه ما يفرضه المجتمع من أعباءٍ تثقلها الحياة المادية ، والإقتصادية التي قد لا يستطيع الشاب أن يتنفس في هذا الجو فيظل محروماً .

فالذي أقترحُه على بلادي وإخواني ، أن يخففوا من هذه القيود ، حتى يخفف الله عليهم يوم الفزع الأكبر :

«يوم لا ينفع مالٌ ، ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلبٍ سليم»

فإن ضخامة هذه المراسيم ، وهذا الصرف الواسع ، مضيعة ، وإرهاق بدون مصلحة ، أو جدوى تعود على مجتمعنا .

لماذا لا تختصر هذه المراسيم ، وينفق بعض ذيولها في مشاريع حيوية ، تعود على مجتمعنا بالخير العميم ، وبالنفع الجسيم ، وبإنكماشها تذلل الصعاب للشباب في طريق الزواج ؟ ! .

كما سبق لي أن أشرت في هذا الكتاب ، أن الصحابة في صدر الإسلام – كانوا يتزوجون على قبضة من التمر ، أو تعليم سورة من القرآن .

أليس هذا هو مبدؤنا ، ودستورنا الذي نسير عليه ، ونحيا ، ونموت ؟ ! . . . . أليس من الحكمة ، ومن الرشاد أن لا نهرق هذه الأطعمة ، ونُلقي بها في القمامات لتحرقها البلدية في مواقدها ، أو تُلقى بها في البحر ولدينا إخوان لعلهم في مجتمعنا ، أو هناك مسلمون يعيشون على هذا الكوكب يتضورون على كف الجوع ، وبين أشداق الموت ؟ ! .

رحمة أيها المجتمع بأخيك الإنسان المسلم ، وأملاً في إنقاذ هذا الشباب أن نطوي صفحات هذا البذخ ، والإسراف في الزواج ، ونعود إلى فجر حياة الإسلام المثالية العظيمة .

هذه من العادات الشعبية الّتي ليس لهـا ضوابـط ، أو مقـايس تحددها ، فهي تنحسر على جزر موجٍ ، وتنكفئ على خلـو الأيـدي من الإيسار ، وتمتد وتنبسط عندما يكون المدُّ على موجة حياة رخاء اقتصادية ، وتتسع بآفاق اتساعها ، فهي كالظل ينحسر في الصباح ، ويمتد في المساء .

ومن الأفضل - كما قلت - أن يبنى بهذه الفضول ، والذيول مشاريع حية تعود على المجتمع ، وعلى صارفها بحياة سعيدة : دنيـا وأخرى .

كما نشيرُ إلي بعضِ العادات القيدية الّتي لا تزال تعشـعش في مجتمعنا : وهي عادة جاهلية تقيد العروسين ليلة الزفاف بقيدٍ يسمى الحرس الذي يقترنُ ببعض الزيجات ، بحيثُ يُفْرضُ على الزوجة ليلـة زفافها للحيلولة بينها وبين زوجها حتى الفجر ، فتقيم عليها حرسـاً يتكون من ثلاث نساء حديديات الإرادة يحرسـنها ، وعنـد الفجـر يتخلينَّ عنها ويتركانها وزوجها ، وقد أشرت في هذا الكتـاب إلـى هذه الظاهرة الإجتماعية .

وتوضيحاً لهذه العادة السخيفة ، الّتي جاءت من عقول عجائز مُغلقةٍ صماء كالصخر ، أو كالكهف الذي لم يتفتح لضوء الشمس ، ولم يداعبه نسائم الفجر ، حيث تفرض على ابنتها ، أوابنـت ابنتهـا حرساً في ليلة زفافها .

وتصيغ هذه العبارة بصورة أمانة ، ووصية في رقبتهـا ، إذا لم تنفـذ فسيقع لهذه العـروس حـوادث مسـتقبلية ، وأمـراض ، إلـى مـا يماثل الخرافات ، والتُرهات ، وتبطن ألفاظها بالمخـاوف ، وتحـذر بـإنذارات

غائمة الأجواء، مُربَدة الآفاق، وكأنها إنذاراتٌ سماويةٌ، فيتلقاها المجتمع النسائي بكل إجلالٍ، فينفذُها حرفاً بعد حرفٍ، ويقمنا على هذه المراسيم، والوصايا واحدة بعد أخُرى.

فلو قدرإن أدركها الموت أوصت لأُخرى بحيث تحافظ على هذه التعويذة، وتُنَفِذها في فجر ليلة عمر ابنتها، ومفتاحِ مستقبل سعادتها.

فإذا قدر لأمها أو من أناطت بها الوصية، وحملتها الأمانة إنْ امتد بها الأجل، وبلغت لليلة عمرابنتها، وزفت إلى عشها الجديد، فبعد أن تنتهي المراسيم تختار لها أمرأتين أو أكثر من الأمينات القويات، يحرسنها، ويحلن بينها، وبين اللقاء بزوجها حتى فجر صباح هذه الليلة، وبعد الفجر يتخلين عنها ويَتركنها، وزوجها.

هذه العادة من بقايا الجذور التاريخية الجاهلية الّتي نسخها الإسلام وقضى على جذورها الجاهلية، ولا أعرف كيف عمّرت هذه العادات، وبقيت في مجتمعنا، ولم يحاربها المفكرون من علماء، وأدباء؟!.

وإن كانت تستسيغها العجائز قبل أن يتعلمنَّ، ويتنورنَّ بأنوار المعرفة، فالعجبُ!... كيف تستسيغُها، وترضاها الفتاة الشابة الجديدة الّتي هي على وفرٍ من التعليم، حتى وصل بها العلم إلى المرحلة الجامعية، وتخرجن طبيبات، ومعلماتٍ، ومربياتٍ، ووصلنا إلى مرحلة عالية من الرتب التعليمية كالماجستير، والدكتوراه؟!.

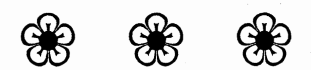
فأريد هنا أن أهمس، أو أَصْرُخَ في أُذنِ الشابة المثقفة الجامعية: كيف ترضى لنفسها وهي تدخل عش الزوجية أن تفتتح صفحات حياتها الجديدة، بعادةٍ سخيفةٍ سنتها عقلية حجرية، ما أنزل الله بها من سلطان؟!.

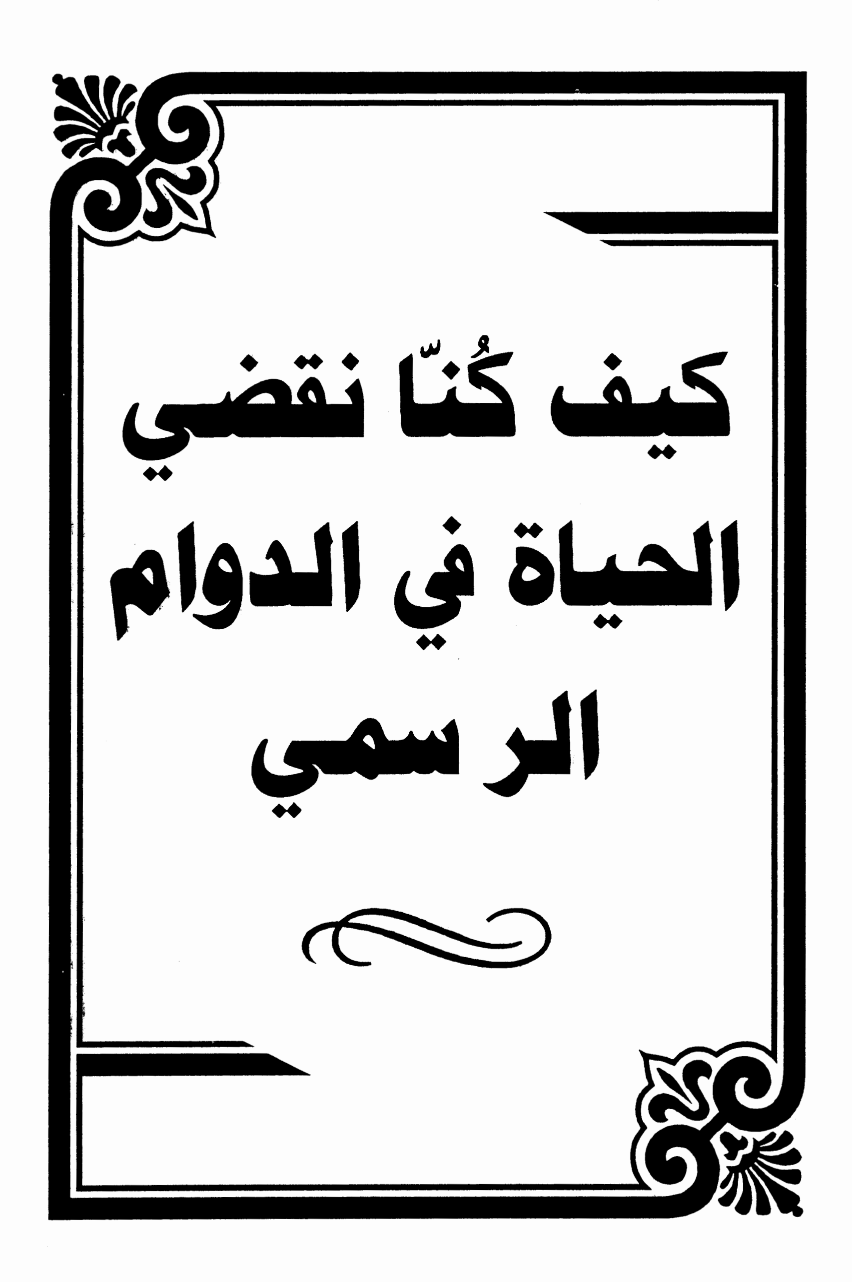
وإن علماءنا الأعلام يفتون بحرمتها ، وآخر مرجع هو الإمام الخوئي ، قد أفتى بحرمتها ، وطلب من العلماء محاربة هذه العادة السخيفة ، والقضاء عليها ، ولا أعرف إن كانت هذه العادة تعيش ، وتمتد في مجتمعنا فحسب ، أو تتمددُ في عالم آخر ؟ !! لأن العادات المغلفة بالظلام الّتي لها بريقٌ دائماً ما تفرخُ ، وتطيرُ في جوِ المجتمع الجاهلي ، وتحلقُ في جو ليلها الأشباح القاتمة .

أيتها الفتاةُ : نظرة شفافة ، تبصرين بها هذه الحياة الجاهلية ، وافتحي عقلك النير ، حتى تُجردي يراعك لمحاربة هذه العادة ، لئلا تظل صخرة كأداء ، وطيفاً مرعباً ، وسداً مُنَغِصاً في افتتاح حياتك مع الزوج الحبيب قد ينتج منها ، ويتولد عقدة نفرة ، وفراق .

وإذا كانت تحلو في عهد جَدَتِكِ ، وتمضي كأحلام ذهبية يُعَسلنَّها ، ويرششن عليها ألفاظاً سحرية من لغة العجائز الماكرات ، والأساطير الوهمية ، فإنّ الطلا والزيف مهما موّه ، لا يخفى عليك ، لأنك عقلٌ متفتحٌ ، وشمسٌ مضيئةٌ تُزيلُ الطلاء ، وتكشف الزيفَ ، فلا تحلو هذه العادة في حياتك الجديدة .

أيتها الفتاة الجديدة حطِّمي قيودها ، وادفنيها وراء الأنقاض الماضية ، واقبريها في تلافيف الزمن أشلاءً ، تضيعُ مع الأيام في التاريخ السحيق .





كيف كُنّا نقضي الحياة في الدوام الرسمي

وهكذا دواليك ، اليوم يتبعه اليوم ، وكانت راحتنا يوم الجمعة فقط ، وكان الدوام الرسمي عند الدولة ينقسم إلى دوامين يبدأ الدوام صباحاً بالتوقيت الغروبي الساعة الثانية عشر حتى الساعة الخامسة ظهراً ، ويعود الدوام الساعة التاسعة مساءً حتى الثانية عشر غروبياً ، وقد وحد الدوامان إلى دوام واحد يمتد بالتوقيت الغروبي صباحاً الساعة الثانية عشر إلى الساعة الثامنة مساءً .

ولعل هذا التوقيت والتحويل إلى دوام واحد بعد العام السادس والسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجري على ما أتذكر - لا على الواقع الحقيقي - في عهد المغفور له الملك سعود ، والعطلة يوم الجمعة فقط ، وبعدها أصدرت الدولة أمراً بإعطاء موظفيها يوم الخميس والجمعة عطلةً تعطي فيها الموظفين راحةً ، تمد ظلاً عليهم ، وعائلتهم ، فقد بدأت عام خمسةٍ وتسعين بعد الثلاثمائة والألف للهجرة - على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام - الموافق عام خمسة وسبعين بعد التسعمائة والألف ميلادي ، وذلك في عهد المغفور له الملك خالد .

وتحول الدوام الواحد من التوقيت الغروبي إلى التوقيت الزوالي يبدأ صباحاً الساعة السابعة والثلاثين دقيقة إلى الساعة الثانية والثلاثين دقيقة بعد الظهر .

أما العطلة عند شركة أرامكو فكانت لاعطلة لها ، وبعدها أعطت الشركة موظفيها إجازة يوم الجمعة ، وامتدت هذه الإجازة فترة من الزمن وسرعان ما أضافت الشركة نصف يوم الخميس إجازة مع الجمعة ، وبعد فترة وجيزة صيرت الخميس كاملاً مع الجمعة إجازة لموظفيها ، وسوف نسجل ما جائني من العلاقات العامة الخاصة بشركة أرامكو جواباً لخطابي الذي طلبتُ فيه كيفية مبدأ الإجازات لمواظفيها ومتى بدأت ؟ فجائني الرد الرسمي نسجله حرفياً كما جاء من أرامكو في هذه الخيوط :

الأيام	التاريخ	ملاحظات
٦ أيام	١٩٥١/٧/٢٧م	ستة أيام في الأسبوع (ثمانية ساعات يوميا)
٥ أيام ونصف يوم	١٩٥٥/٥/١م	خمسة أيام مع أربع ساعات ونصف من يوم الخميس
٥ أيام ونصف يوم	١٩٥٨/١١/١٥م	أسبوعان واحد منهما أربعين ساعة والثاني ٤٤ساعة بمعدل ٤٢ ساعة أسبوعيا
		أسبوع (٤٠ ساعة) هو عبارة عن خمسة أيام (٨ ساعات عمل) بعده يومين عطلة

الأيام	التاريخ	ملاحظات
		أسبوع (٤٤ ساعة) عبارة عن ستة أيام عمل بالأسبوع منها أربع ساعات عمل يوم الخميس
		فترة الغداء – هي معروفة بأنها ساعة ونصف الساعة
	١٩٦١/١/١م	ثلاثة أسابيع من خمسة أيام عمل وواحد من ستة كاملة
		أسبوع (٤٠ ساعة) هو خمسة أيام عمل ويومين عطلة
		أسبوع (٤٨ ساعة) هو عبارة عن ستة أيام عمل من ثمانية ساعات بعدها يوم واحد عطلة
		فترة الغداء – ساعة ونصف الساعة
٥ أيام	١٩٦٤/١١/٢٠م إلى الآن	انتهجت الشركة خمسة أيام عمل في الأسبوع ويومي الخميس والجمعة عطلة

و مادمنا نتحدث عن المنهجية الرسمية ، فيحلو لنا أن نتحدث عن بعض النقاط سندخل لها بلا استئذان فنقول ، ونصف أجواء المحاكم في بعض الأوقات : قد يتحول مكتب القاضي إلى صالون أدبي للترويح ، لما ينتاب الأعصاب من إرهاق من شوط المرافعات ، فيتخللها ألوان من التاريخ ، والأدب ، ومن مطارحة الشعر العربي ، كالشعر الجاهلي ، وشعر العصر الأموي ، والعباسي ، وهي تقع على قلة وندرة .

وهناك فصل من فصول الحياة الّتي عشتها ، فاتني أن أتحدث عنها في الصفحات الماضية ، وهي الطريقة الّتي كنا نستحم بها في الحمامات الشعبية ، حيث لم يكن في ذلك الوقت إسالة مياه للبيوت ، كالإسالة الّتي نراها اليوم ، والمجاري الّتي شقت قنواتها على الطرق الحديثة .

وأول إسالة دخلت للبيوت قبل أن تدخل الدولة الإسالة المنظمة السليمة على طريقة العصر الحديث ، الإسالة الشعبية عام ثلاثة وسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام .

وطريقتها أن تجتمع ثلة من أصحاب عدة بيوت فيأخذون إجازة من البلدية ، ويحفرون بئراً إرتوازيًّا جوفيًّا ، ويمدون مواسيره إلى كل بيت من المشتركين الذين أسهموا في تكاليف البئر ، والمواسير ، واجرة السباكين ، والعمال .

والإسالة الأهلية ادخلت إلى بيتي في القلعة ، في التاريخ المشار إليه ، وهو تاريخ الإسالة الشعبية الّتي عُمِّمَتْ في مدينة القلعة عندما كانت قائمة بطرقها الضيقة ، وبيوتها القديمة المكتظة بالسكان ، وسوابيطها المظلمة ، ولكنها تستصبح بهذا الظلام ، لما يضيء في أُفقِها من إشعاع فكري ، وصفاء روحي .

وهذه الإسالة الشعبية لا تستطيع أن تستحم منها في الشتاء لشدة برودة مائها ، وبعدها عن البيوت ، ولأن الفنيين الذين يمدون الأنابيب لا يجهزونها تجهيزاً فنياً ، لأنهم بدائيون .

وليس هناك تيار كهرباء في ذلك الوقت، حتى يُمكنكَ من وضع سخانات للماء، فيضطر أصحاب المنازل، ولاسيما في الشتاء للاستحمام في الحمامات الشعبية الّتي أشرت لها، لأن ماءها يتدفق دافئاً وصالحاً للاستحمام، لكونها تنبع من جوف الأرض إلى الحنفية بدون مسار في أنبوب يصبُّ على المستحم بدون واسطة، فيأتي دافئاً بعكس الإسالة، فإنها توزع في أنابيب ضيقة صغيرة إلى مئات البيوت، فلا يصل الماء بعد مساره الطويل إلى الحمام إلا وهو قارٌ.

وقد حولت أرباب البيوت - بعد إدخال الإسالة - الآبار القديمة - الّتي كانت تُستعمل في البيوت، ويخرج منها الماء بالدلاء وتسمى - باللهجة الشعبية -: «الزيلة»، وهذه الزيلةُ يُشَدّ فيها حبلٌ، وتُرسلُ إلى داخل البئر، ثم تسحب بالحبل فتأتيك مملوءةً بالماء، وكانت تسمى هذه الآبار: (الركاية)، ومفردها ركيه - إلى مصارف لتلك الإسالة الجديدة، مع العلم أن هذه الآبار قديمة في التاريخ للحاجة الّتي هي وليدة الاختراع، وتحويلها لمصارف لما تحمله من قابلية لا تمتلئ عندما يصرف فيها، لما يتصل بها من ينابيع تأخذ، وتُعطي في جوف الأرض، وكانت قبلاً يدلى فيها بالدلاء، لأخذ الماء منها لغسل أواني الطهي، وغير ذلك.

أما بعض البيوت الفقيرة فلا تقتصر على غسل أواني الطهي، بل تشرب من مائها، وأكثر هذه الطبقة لا تملك مثل هذه الآبار، بل تذهب إلى بيوت جيرانها لاستعمال تلك الآبار، ونقل الماء منها

لبيوتها ؛ وكان بيتَنا - على سبيل المثال لا الحصر- يرتاده الجيران لغسل أوعيتهم ، ونقل الماء من بئره ، وهذه الحياة كانت قبل الإسالة .

وبعدها قامت الدولة بالإسالة العامة من تحلية لمياه البحر ، وقد أُدخلت جميع البيوت ، وذلك في شهر جمادى الآخر عام ستة بعد الأربعمائة والألف هجري - على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام - الموافق عام ستة وثمانين بعد التسعمائة والألف ، وبتعميم هذه الإسالة تساوت جميعُ الطبقات .

أما قبل الإسالة كانت طريقة السقي - أي الشرب للنفوس - يأتي بها الأغنياء ، والطبقة المتوسطة من العيون الّتي حفرت بالقطيف قبل الإسلام - على عهد الفينيقيين - وتسمى : «عيون السيح» ، أي تسيح بذاتها بدون مضخة أو واسطة كسائح في الأرض ، فكانت التسميةُ دقيقةً اسماً على مسمى .

وهذه العيون لها عدة مجاري تسقي البساتين ، والنخيل ، مقسمة على ساعات الليل ، والنهار ، باصطلاح شعبي ، على منهجية تفصيل دقيق في طريقة سقي البساتين ، حيث أن كل عين تُقسّمُ إلى أربعة عشر وَضحاً ، ويتكون الوضحُ من إثنى عشر ساعة ، فهي ساهرةٌ لا يداعب أجفانها النوم ، فهي كالحارس للبساتين ، والنخيل ، أو كالروحِ الّتي تتحرك في جسمها .

وبعض هذه العيون ماؤها عذبٌ ، وهي كثيرةٌ ، كعين «الكشورية» ، و«أم عمار» ، وهما تقعان في قرية الخويلدية

بالقطيف ، وكعين «الصدين» بقرية الجارودية بالقطيف ، وكعين «الشِّنية بقرية الجش بالقطيف .

فيشرب منها طبقة الأغنياء الذين يملكون أُتُناً ، وخدماً ، فيذهبُ خَدمهم لها على أتنهم ، ويملؤون الأوعية ، ويأتون بها إلى بيت من يخدمون فيه .

وبعض المتكسبين الذين يمتهنون السقاية يذهبون لها ، ويأتون بالماء منها فيبيعونه على بعض أهالي البيوت ؛ كما يوجد شريحة من السقائين يمتهنون بيع الماء من عين الدبابية ، ومن الركايا الّتي بالقلعة ، كركية «مغيبوه» ، و«الخان» ، وهي تزدحم بهذه الطبقة ، ويملؤون أوعيتهم عن طريق سحب الدلاء بالحبال ، ويحملونها على أكتافهم ، وقد شاهدت هذه الطبقة وهذه المناظر .

إلا أنَّهُ للأسف ، وأنا أكتب هذه السطور ، وأقولها والألم يعصرني - أن هذه الثروة الطبيعية الموروثة الّتي تحملُ طابعاً تاريخياً ، وأثراً عمرانياً حضارياً لم يصل إليها العلم الحديث ، بما وصل له من تكنولوجيا علمية حديثة ، وتطور فكري في كل نواحي الحياة ، لم يصل لهذا المستوى العمراني بحيث يستطيع أن يستخرج ما يماثل تلك العيون التاريخية السيحية ، وكانت منتشرة في القطيف بصورة مكثفة ، يربوعددها على قرابة خمسمائة عين ، وتوجد هذه العيون حتى تحت طبقة الرمال ، والرمل يغطي أكثر مجاريها ، ولا يظهر منها إلا القليل ، وهي تنساب تحته وبينه ، وقد يطوي الرمل بعض العيون وتغيب لفترة ، فينحسر عنها الرمل عندما تمتد له كف الرياح العتية فتنكشف عنها ، فتعود إلى طبيعتها .

وقد يبتلعها الرمل فلا ترى لها آثراً ، وتسمى هذه العيون «العيون البرية» ، ولكن التصرف المجهول للإنسان المقصود ، واللامقصود ، قضى عليها قضاءً مبرماً .

وفي مدينة الإحساء ما يماثل هذه الثروة الثرة ، والعوامل الزمنية ، والطبيعية الّتي كان لها الدور الضخم في إضاعة هذه العيون البرية ، والمدنية .

فنعود ونتحدث عن العيون التي اندثرت وضاعت في القطيف ، ولم يبقَ لها إلاَّ الإسم ، كعين اللّبانِية فإنها تشبه في قوتها تيار بحرٍ متدفق تحيط بها البساتين بقرية القُديح ، وكالرواسية فهي في جمال مائها تشبه الألماس ، وتقعُ غربَ مقبرة الحباكة في الجهة الشمالية في سيحة البحاري - قرية من قُرى القطيف - وتحوطها البساتين . وما يماثل هاتين من عيون مدنية وهي كثيرات «كالسلاحف» بأم الحمام ، و«المربعة» ، و«القصير» ، و«القصاري» ، و«عين البشري» ، و«عين الجنيز» ، وعين أم عمار .

ولست أستطيع أن أحصي هذه العيون المدنية ، فضلاً عن العيون البرية ونمثل للعيون البرية بعين «الصدرية» - هكذا تُعرف بهذا الاسم - وهي تقع في غرب بر القطيف على مشارفها تنساب بين الرمال ، وليست هي الوحيدة من العيون البرية فهناك لها مثيلاتُ كعين «الحشيفية» و«الحريزبه» ، وما يشابهها من العيون المنتشرة في منطقة القطيف ، وكلها تنساب من نبعها في قنوات بين المدن والقرى .

وقد يجهل البعض منا موقع هـذه العيـون البريـة ، لما تـتراكم عليها طبقات الرمال ، ولكنك تستحم في بعض قنواتها الّتي تعـرف بالسيبان في لهجة الفلاحين ، وتياراتها تتدفق بقـوة علـى اختـلاف منابعها قوةً ، وضعفاً .

فقد بلـغ بعضهـا مـن قـوة تيارهـا المـائي تزويـد المـدن بتيـار الكهرباء في حالة تواجد نواحي مـن نواحـي الأسـاليب العلميـة ؛ وأخص بهذه القوة المتميزة «عين داروش» الّتي تقع بمدينـة صفـوى - إحدى مدن القطيف الكُبرى .

وقد سبق الإمام علي سلام الله عليه بنظرته الثاقبـة إلـى هـذا السر الخفي الكامن وراء هذا التّيار المائي قبـل أن تصـل البشـرية إلى هذا السر ، فقال :

«لو شئت لاتخذت لكم من هذا الماء ناراً»

لَكِنَّ هذه الكلمات لم يفهمها ، ولم يدرك ما في طياتها من معاني بعيدة بنو البشر - في ذلك العصر - حتى وصل العلم الحديث إلى ما وصل إليه اليوم ، فكان كالضوء الكاشف لمعنى هذه الكلمات ، فوضحت الرؤية ، وعرف السر .

وما دمنا مررنا بهذه العيون الأثرية الّتي مـر عليهـا قـرون مـن آلاف السنين من هذه الحيـاة ، فـإن هـذه العيـون مـن مفـاخر هـذه الربوع ، وما فيها من حياة للبشر ، والزراعة .

ويا للأسف ! . . . . ما أُسِسَ من جُهدِ قـرونٍ ينطـوي في لحظـات لقسوة يد الزمن وتلاحق صروفه عليه ؛ فمن هذه الغير والصـروف :

العوامل الّتي تراكمت، وتجمعت، وأهمها عامل البترول، وسنفصلُ هذه العوامل الّتي تسببت في موت هذه العيون، وبموتها ماتت الزراعة.

وما دمنا نتحدث عن هذه العيون الأثرية الّتي هي مفخرةٌ من مفاخر هذه الربوع، فلابد أن نعطي صورة عن حمام القطيف، الذي هو في طليعة آثارها ويسمى: «حمام أبو لوزة».

وكان هذا الحمام في طابعه، وفنه المعماري من أبلغ حرف معماري في ذروة الفن، حيث أقيم عليه بناء يشبه في بنائه الشامخ التراث الإسلامي، وتعلوه قبة قد صُبت صباً، وعملت فيها يد ماهرة، وأقيم أمامه صالون للإستراحة، ونزع الملابس للمستحم.

وبعد الإستحمام عندما يخرج من السباحة يأخذ المستحم محله على تلك «الدكيك» في الصالون المذكور الذي أنشأته يدُ صنّاع، ورُتِّبَ هذا المسبح مع مرافقه ترتيباً فنياً بحيث لا يدخل هواء للمستحم، ولا يلتقي الذين يستحمون في هذا الحمام، ولا الذين يرتدون ملابسهم، أو ينزعوها في هذا الصالون بهزج الريح.

وهذا التصميم المعماري لحفظ الطاقات الحرارية في الشتاء للمستحم لئلا تنعكس عليه نزلات بردية؛ فجاء هذا التصميم محافظة على المستحمين من قرصات موجات القر لطبيعة جوِّنا في الماضي حيث تمرُّ به موجات باردة، حتى يكاد الشخص إذا أخرج جسمه من الغطس، تسللت له لسعات باردة من جو شتوي، برغم ما يحمله تيار ماء هذا الحمام من حرارة يتصاعد منها الدخان

الكثيف ، حتى تتضبب في سمائه ، فيحجب الرؤية من بعض المستحمين لبعض .

وإن هذا البناء المعماري ، والتخطيط التصميمي الذي هو في ذروة الفن قد بني على نفقة أحد زعماء القطيف ، وشخصياتها ، ومفكريها مهدي بن أحمد محمد نصر الله بأيدي عمال قطيفية مهرة ، وقد مضى عليه زمنٌ طويلاً ، وأنت تراه في جدة وشموخ ، وبرغم مرور أذيال الزمن عليه أصيب بتصدعٍ في فترةٍ من فترات هذا الزمان فقام بترميمه وإصلاحه والدي الإمام الشيخ علي - أبو الحسن - الخنيزي ، وكان هذا الترميم على حساب والدي والمباشر له الزعيم أحمد بن حسن علي الخنيزي بأمر من والدي - عمه - كما رواه العلامه الشيخ عبد الحميد وابن العم عبد الحسين بن حسن علي الخنيزي ، ونعود للمؤسس الأول لبنائه مهدي نصر الله حيث وجده عيناً مكشوفة تعيش تحت السماء لمائها ميزةٌ ، وطاقاتٌ كبريتية ، ودفء في الشتاء ، وبرودة في الصيف أقام عليه هذا البناء ، كما أقام بناءً على حمام مماثلاً بجانبه ، تستحم فيه النساء يستمد مائه من نبع الحمام المشار إليه ، ومهدي نصر الله لم أعثر على تاريخ ميلاده ، وقد توفاه الله ليلة الثالث من ربيع الآخر عام واحد وثمانين بعد المائتين والألف هجرية .

كما قام مهدي نصر الله بترميم قطعة من سور القلعة التي تقع غرب بيته ، وقد أزيلت القلعة مع سورها وأشرنا إلى تاريخ الإزالة في صفحات هذا الكتاب ، ورواية تاريخ الموت ، وإقامة البناء على الحمامين ، وترميم القطعة من السورمصدري فيها عن الأديب

منصور حسن نصر الله المولود في اليوم الثالث عشر من شهر رجب الأصب عام أربعة وأربعين بعد الثلاثمائة والألف هجري، وله ذوقٌ في إقتناء الكتب ولا سيما الكتب الأثرية، وهواية في جمع الساعات القديمة، ويعشق كل أثر قديم، كما له هواية في قراءة الكتب التاريخية وقد مارس طريقة الخطابة كتلميذ لإستاذه الشيخ محمد صالح البريكي، وروايته لمهدي أحمد نصر الله يسندها لعمه عبدالله نصر الله الذي مر اسمه، وتحدثنا عنه وعن أخيه حسن بمناسبات مرت بصفحات هذا الكتاب، ولولا الرواياتُ للتاريخ لتبخر التاريخ، وتحول إلى موجات من الدخان، وضاع في تلافيف الزمن السحيق، فعلى الرواة إثبات التاريخ ونفيه إذا كانوا أمناء، فعلى الرواة أن لا تنام وتخلد للصمت.

وكان بهذا الحمام مقهى يديره السيد شبر الحرانات في عمل «مُقَهوي» - الذي توفي عام أربعة بعد الأربعمائة والألف هجري - يعيش من هذا المقهى، فيبيع أقداح الشاي على الذين يرغبون بعد استحمامهم، ويجلسون في استراحة ذلك الصالون المكون من مقاعد حجرية، ومفروشة بالمديد المصنوع من أسل تنبته الأرض، ويصنع أيد قطيفية، وتعرف باللهجة الشعبية «المدّة»، كما تسمى تلك المقاعد «الدكيك» الّتي تشاد من الآجر، والحصى.

والسيد شبر الحرانات لم يُقصر عمله على عمل المقهوي، فهو يقوم بدور القصار في اللغة العربية، أي عمل تغسيل الملابس، وباللهجة القطيفية «الدوبي»، كما يعمل بأسلوب التدليك المرادف للمساج، لمن أراد من المستحمين.

وكان هذا الحمام مُلتقى لعلماء القطيف، وشخصياتها، ومفكريها وأُدبائها، وزعمائها السياسيين، والاجتماعيين.

وإذا ألقيتَ نظرةً وأنت تستحم فيه، تأخذك الروعة في جُدره، في استقامة العطفات، وانسكابها في التفاف، واستمرارها حتى تصل إلى القبة الّتي ترى مغايرة في أسلوبها الداخلي البنائي مخالفاً لأسلوبها المعماري الخارجي.

كما له ثلاث زوايا تشبه الغرف الصغيرة المنفصلة المتصلة به، إلا أن الثالثة تخالف الإثنتين في إسلوب شكلها حيث يقع أمامها في الجدار الغربي معمار فني يشبه المحراب، ولها درجتان بإزاء هذا الفن المعماري الذي يشبه المحراب من عليٍ للنزول لها فهي تشترك مع المستحمين، وتراها ويَرونَ من يجلس عليها، وهذه يتنازل عنها جميع الجمهور إلى العلماء عندما يحضرون للاستحمام.

كما يقع بجانبه في الجهة الشمالية، حمام يماثله لإستحمام النساء مقصورٌ عليهنَّ؛ ومن تكملة خدماته: له إسطبل الذي يعرف باللهجة القطيفية «مربط للخيول، والأتن»، يقع في الجهة الشمالية الشرقية، ومرافق أخرى، وهي تتكون من أربع حمامات تشبه الغرف لغسل الملابس، ولطلاء الرجال، أي إزالة الشعر في العانتين.

وهذه المرافق أنشأت من أجل الصحة، والمحافظة على المستحمين من تكدير تيار الماء من رغوة الصابون لتغسيل الملابس، حتى كتُبت رقعة بداخله بالخط الكبير «يُمنع تغسيل الملابس هنا بالصابون»، معلقةٌ بإحدى جدره.

ويقع غرب هـذا الحمـام مسـجدٌ معـدٌ للفرائـض الخمـس ، فهـو مسـتكمل الصـورة في إطارهـا الرائـع ، كمـا توجـد دكـك خـارج الصـالون والحمـام ، تقـع في طريقــه الخـارجي للعجـزة ، الذيـن لا يسـتطيعون امتطـاء خيولهـم ، وأتنهـم ، فهـي كالمسـاعد للامتطـاء ، وللنزول ، كمـا تحيطـه بسـاتين مـن عرائـس النخيـل ، والشجر من جهاته الأربع ، ولـه قنـوات تمتـد لسـقي هـذه النخيـل .

كمـا توجـد عـين طبيعيـة مـن عيـون السيح تقع شـرق هـذا الحمـام علـى بضعـة أمتـار تسـمى : «عـين الحباكـة» ، وتقـع المقـبرة شـمالها ، وتُعـرف «بمقـبرة الحباكـة» مثـوى علمـاء القطيـف وأدبائها ، ولا أعرف هـل سـميت هـذه المقـبرة نسـبة للعـين أو العـين سميت بها نسبة لهـا ، كمـا يسـمى هـذا الفريـق «فريـق الحباكـة» ، وكان مكوناً من أكـواخ مصنوعـة مـن خـوص النخـل .

وهـذه العـينُ غـير مسـقوفة ، تعيـش تحـت السـماء ، وضيـاء الشـمس ، وبجانبهـا قسـم محـاط ، ومسـقوف يقـع شَـرقهاِ ، وملاصـق لها ، ويزود بتيار المـاء منهـا ، مقصـور علـى استحمام النسـاء .

ولـو شـاهدت هـذه المنـاظر الطبيعيـة ، ومـا فيهـا مـن روعـة ، وجمـال ، وخريـر جداولهـا ، وألحـان طيورهـا لشـاهدت جنـات تجسدت بين يديـك ، وفي عينيـك صـورة في أجمـل منظـرٍ متحـركٍ .

وكان لـي بـه ذكـرى غـير ذكريـات الإسـتحمام مـع أبـي أو مـع الأصدقـاء ، ففـي كـل أمسـية مـن فصـل الصيـف ، نذهـب لـه عصـراً ، عندمـا يشـتد لهيـب وطـأة الصيـف مشـياً علـى الأقـدام ،

وتارة على ظهور الأتن، وصباحاً في الصيف أو الشتاء بمفردي على ظهر الأتان، كلها ذكريات حبيبة، وما أحلى الذكرى!

إذا تذكرت أيام لنا سلفت أقول بالله يا أيامنا عودي

ولا يفوتني أن أسجل ذكرى حبيبة غالية، فإنني كنت لا أعرف السباحة ولا العوم في هذه التّيارات المائية، وعرفتها تحت قبة هذا الحمام وفي تياراته.

وكان هذا الحمام - كما تحدثت - ملتقى العلماء، والشخصيات، ومن الذين يثابرون على الإستحمام فيه، ليغتنم فرصة وجود العلماء، هو الأستاذ عبدالله علي اخوان.

وكان لأبي في كل أسبوع يومان يستحم فيهما في هذا الحمام: صباح يوم الخميس، والإثنين، فيثابرعلى هذين الوقتين الأستاذ عبدالله إخوان ليحظى، ويتشرف بهذه اللُقيا.

وفي إحدى الإستحمامات وأنا مع أبي، تقدم الأستاذ عبدالله بن علي اخوان، فاستأذن من أبي طالباً أن يسمح له في تعليمي السباحة، فأذن له.

وكنت - حين ذاك - بعد السابعة من العمر، أهاب من تيارات الماء، الّتي أتصور بها أشباحاً من الجن، تبتلع الأشخاص عندما يعومون، ويصيرون على ثبج الماء، لأنني صغير السن، لا أدرك ما وراء مُحِيطه.

وكانت العجائز تلقي في روعنا: أنَّ العيون في كل عام لها ثورة عنيفة تأخذ شخصاً تغرقه بأمواجها إلى قعرها، ولا تسكن هذه

الأمواج إلا بعد إغراق الشخص ، فكأنها تطالب بثأرٍ كل عام ، وهذه الأشباح تلاحقني ، وأصدق بها كلما جئت لهذه العيون للإستحمام ، وتعبر عن هذه الظاهرة الدهماء بأن العين طالب ، أي تطلبُ في كل عام شخصاً .

وهذه الظاهرة عاشت مع الفراعنة في مصر حيث في كل عام تُجلى فتاة في ربيع شبابها ، وفي أجمل حللها عروساً يحتفل بزفافها لإلقائها في النيل ، وقد أوقف ظاهرة قتل عروس النيل الفرعون أخناتون ، وقد سجل هذا الدور الرائع وجسده أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته التي يخاطب بها النيل :

من أي عهدٍ في القرى تتدفقُ

وبعد صدور أمر أبي له قبض على يدي ، وذهب بي إلى جهة الشمال من هذا الحمام ، والخوف يملؤني من رأسي إلى قدمي ، فجعل يعلمني أساليب العوم ، وتكررت اللقاءات ، وتكرر تعليمي السباحة من هذا الرجل ، حتى أكملت الشوط ، وكنت سباحاً .

ولهذا الرجل ميزةٌ تعطيه القدرة على تعليم السباحة بحيث يقفُ في ثبج التّيار المائي مدة طويلة لا يتحرك ، ولا يميل لجهة دون أخرى ، فهذه مهارةٌ تُساعده على تعليم العوم .

وهذه ثمارا للقاءات الشعبية في هذا الحمام ، بدون تمييز ولا طبقية ، فيجمعها هذا الحمام الأثرى الذي نضب ماؤه اليوم ، ونخشى على هيكله البنائي المعماري الفني أن يتبع مَاءَهُ ، فماذا أقول ، والألم يسري في كياني على ذهاب هذه الثروة القومية الوطنية والأمر كله لله الواحد القهار ؟ ! . . . وأشكر المرحوم الأستاذ

عبدالله اخوان على تعليمه ، فإنه يُعد من الرجال الذين يتضوعون كرماً .

وهذا الحمام له ثلاث دكك في وسط مائه تحيط به كشكل هندسي دائري ، كل واحدة تأتي بعد الأخرى ، الأولى استراحة المستحمين ، والثانية تبعد عن الأولى بأمتارٍ وتصلح للإرتماس والعوم ، والثالثة تبتعد أمتاراً عميقة ، لا يصل لها إلا من كان له نفس طويل يساعده على الغطس ، والعودة إلى خارج التّيار .

وهذه لمحة مقتضبة تصور هذا الحمام ، وما فيه من ذكريات عذبة تتصل بصميم كتابي ، وحينما أتحدث عن هذه الآثار التاريخية والألم يعصر فؤادي فيحيله إلى ألم في كؤوس مليئة بالدمع والأسى ، لأن هذه العيون نضب ماؤها ، وغار وتعطلت ، وبعضها رُدمت ، أي قُضي عليها ، ودُفنت أشلاؤها خلف التراب ، كبعض العيون الّتي في قرية الجش الّتي تعرف سابقا بعيون البلد .

وعلى ما أظن أنّها أول تراث للقطيف غُيِّب من هذه القرية ، وتلته عيون أخريات في قرى القطيف ، وبعضها جثة معطلة لا ينتفع بها ، يالها من ثروة ثمينةٍ ذهبت مع الأمس ! ... فبماذا نحدث الأبناء ، أو نعتذر لهم عن هذه الثروة الضخمة الّتي حافظ عليها الآباء ، والأجداد جيلا بعد جيل ، والّتي تسلمناها منهم كأمانة في أعناقنا ؟ !! .

وأتمنى وأقترحُ ، وليت وهل يفيد ليتُ ؟ أن هذه العيون الطبيعية أن لا تدفن ونهيل عليها التراب كما ندفن الأموات لأنني أتصور عندما تنضب منابع الزيت سيعود الماء من منابعها يتدفق

وليست هذه حقيقة علمية إنما هى مبنيةٌ على ظنٍ وتخيلٍ لأن منابع الزيت هى أحد العوامل فإذا زال السبب بطل المسبب ، وكانت هذه العيون تغذي حياتنا الزراعية ، والزراعة هي أثمن شيء في الحياة ؟ ! .

«فويلٌ لأمة تأكل ما لا تزرع ، وتلبس مالا تصنع»

وهذا الحديث ينسب إلى نبي الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم سمعته من بعض المطلعين ، وهو ينطبق على تعاليمه الّتي تَحِثُّ الأمة بأخذ ما ينفعها ، وما يسعدها في الدنيا والآخرة ، وقد سجلت نفثة ألم في قصيدة تحت عنوان على كف عفريت تُنعي هذه الزراعة ، وهذه الثروة الضخمة ، نشرت في ديوان كانوا على الدرب ، أذكر منها بيتاً :

ألعنةٌ نحن في الأجيال دائمةٌ لأننا قد وأدنا النخل بالرطبِ

إلا أنني أرى في الأفق بعض البوادر ، حيث أن بعض المواطنين أخذوا يتجهون للزراعة ، فأنشأوا البيوت المحمية ، وتحايلوا على الأرض ، وسعوا في إيجاد الماء على الطرق الجديدة ، بضخ الماء في الأنابيب ، إذ لا زراعة بلا ماء ، وكما عبر كتاب الله الناطق بالحق ، والكافل للبشرية دنياها ، وآخرتها :

«وجعلنا من الماء كل شيء حيّ»

إن هذه الآية الكريمة تعطي ما للماء من عنصر حيوي في الحياة البشرية ، إذْ لا حياة بلا ماء .



صورة تمثل حمام أبو لوزة

ومادام الحديث حول العيون، والزراعة، وتاريخها، فلنُعَرِّج على عين داروش بمدينة صفوى الّتي أشرنا لها إشارة خاطفة في الصفحات السابقة، لنرى: هل هي تموج بتياراتها المائية، فنستحم فيها، أم هي صارت لما صارت لها أخواتها من العيون؟.

فقد حدثني من له إلمامة تاريخية من بعض الشيوخ - المعمرين في السن - عن تسمية مدينة صفوى، وعينها داروش، فقد روى بعضهم أن مدينة صفوى تسمى داروش، وعين داروش تسمى صفوى لصفائها ورقة مائها؛ ولا أعرف الأسباب الّتي عكست هذين الاسمين، فَنُقِل اسم العين إلى المدينة، وبالعكس، ولم يكن لدينا مصادر تاريخية تكشف هذه النُقلة، أو التعليل، وهذا القلب.

كما تحتوي مدينة صفوى على مدينة أثرية تسمى: «جاوان»، وقد عُثِرَ بها على آثار تدل على قدمها التاريخي، ولعلها سبقت مدينة صفوى في الوجود، والدليل على ذلك ما ظهر من آثارها، بحيث تعطيها طابع البعد والقدم في ظل التاريخ الماضي السحيق.





جراحات

إن في حياتي آمالاً ، وآلاماً ، وجروح أزمات اقتصادية عاشت تَنزُّ من قلبي أياماً ، وليالي ، ولما اندملت جراحاتُها المادية ، ثغرت جراحاتٌ جسدية لما طبعت عليه هذه الحياة الّتي لا تتم في صورةٍ مؤطرةٍ ممتعة ، ليس عليها غبار من ليالي الزمن ، وليس فيها ضبابٌ من دُخانٍ يدكنُ الجو ، فهبت الجراحات الجسدية .

وقد رويتُ منها فصولاً تعاقبت عليَّ في هذه الحياة ، متدرعاً بالصبر ، ومفوضاً أمري إلى الله ، شاكراً له ، والفضل لله حيث يمنح ويمنُ على عبده بدرع من الصبر نابع من روافد الإيمان ، وهذا لا يتم إلا بعون من فاطر السموات والأرض .

ومن جراحاتها الجراحات المقصيّة ، والمشرطيّة ، وجراحات الزمن ، وأمضُّها جراحات الأهل والأخوان .

ومن أمضّ هذه الظاهرة الجراحية ، ما مر بحياة والدتي من العام الثالث بعد الأربعمائة والألف ، حيث أصيبت بجلطة بالمخ على أثرها شل نصفها الأيسر ، وظلت تعاني هذا المرض ؛ فكان كل إطلالة يوم ، أو لحظة تمر عليَّ تعكس آلامَها في قلبي ، وهي لا تُبدي جزعاً أو تأفُفَاً ، بل تحمد الله وتشكره .

فكـــانت تغذينـــي بهـــذا الـــزاد ، فـــأصبحت أمتـــار مـــن مائدتهـــا ، فـــأرجع وأنـــا قـــانعٌ ، لكنـــه تفـــاقم المـــرض ، وأخـــذ يـتراكم علـى جسـمها حتى أصبحـت هيكـلاً عظميـاً ، أو قـل موميـاء محنطـة ، وبـالتحديد منـذ جمـادى الأول مـن العـام العاشر بعد الأربعمائـة والألـف للهجـرة ، تولـد لهـا مـرضٌ أخـر من الجلطات الّتي ألمت بهـا ، فكـان منهـا الصـرع .

وهـذا الصـرع إذا جاءهـا يجعلهـا كريشـة في مهـب الريـح ، ولا تشـعر بشـيء حولهـا ، واسـتمر بهـا هـذا المـرض مـع الشـلل حتـى أفقدهـا شـعورها ، إلا بصيصـاً مـن رؤيـة عقليـة تحـس بهـا إحساسـاً ضئيـلاً ؛ فكـان لهـذا التدهـور المرضـي انعكـاس ممـض في نفسـي ، فتجسـدت آلامـه قصيـدة باكيـة تصـف حياتها :

أنت ينبوع حنـانٍ وظـلالٍ مـن جنـان — أنت شمسٌ في دجى ليلي وآمـالي الحسان

كم تدفقت معيناً في فؤادي من حنـان — أنت فيضٌ من إلهٍ أنت أصـلٌ في كيـاني

أنـــت يـــاأمي ربيـــعٌ يمـــلأ الدنيـــا معـــاني

وأمضي في هذه القصيـدة ، فـأصف الفصـول والأدوار ، الّتـي مرت بها من ألم مُبَرح ، ومن مرض فتاك ، ومن شـاء فلـيرجع لهـا في ديوان مدينة الدراري ليقف على الحلقـة المتسلسـلة بأكملهـا ، ولا زالت - حتى كتابة هذه السطور- تعاني من هذه الأمـراض ، وإذا سألتها بخضوع وإجلال : ماذا يؤلمك ؟ . . . . كان جوابها : لا شيء يا بني يؤلمني .

فهي تمثل جانبا من الصبر، والتفويض لله، وقليلٌ في هذه الدنيا مثالُ هؤلاء الصابرين، وهم على ندرةٍ يمرون في هذه الحياة، فأسأل الله لها الشفاء العاجل فإنه يحي العظام وهي رميم، ولا أملك لها أمراً إلا البر بها، والعناية، والقيام بخدمتها، وعرضها على الطبيب، إذ لا أمر لي، لأن الأمر لله الواحد القهار، فهو المتصرف في خلقه، وما أصدق هذا البيت:

لو كان لي أو لغيري قدْر أنملةٍ   من التراب لكان الأمر مشتركا

ووصفنا لهذه الجراحات، هي صفحة من صفحات كتاب هذا العمر، ولم أستطع أن آتي على كل الجراحات لضياعِ البعض منها ولُفّت في تلافيف الزمن الماضي، وبعضها لا يسمح به المجتمع أو الظروف!..... وإنما أذكر ما يتناسب، ويعيش مع هذا الإنسان الذي نتعايش معه في هذه الأيام.

ومن الجراحات الّتي هي من صميم حياتي، ما ألم بزوجي لأن الزوجة هي نصف الرجل، وهي في حياة زوجها شاغلُ فراغٍ يملأ البيتَ ووقته، فلو فَرَغَ البيتُ من هذا الملاك لم يعد البيتُ سماءً حنوناً تتدفق فيه الراحة، والطمأنينة.

فلابد من إعطاء خطوط عما تركته من فراغ في هذا البيت، عندما أصيبت زوجي خاتون بنت الشيخ محمد صالح المبارك، وأصف فترة فراغ الزوج في البيت حين تتركه بعد ما كانت تعيش معه تحت سماء واحدة، وفي محيط واحد، أو قل هما ممتزجان امتزاج الدم بالجسم.

فقد أصيبت بأزمة قلبية ، وهي انسداد بعض الشرايين الّتي تُغذي القلب ، وهذا المرض هو مرض العصر الذي نتج عن أساليب الترف ، والترهل لأننا غرقنا في موجة نعيم هذا العصر ، فاستعملنا أجهزة التكييف في بيوتنا ، ومكاتِبنا ، وسياراتِنا ، واستخدمنا كلَّ جهاز كهربائي يُذلل لنا الصعابَ ، وينشر علينا ظل الراحة ، لأن الكهرباء قلبت الحياة رأساً على عقب ، وعكست حياتنا انعكاساً لا حدود لها ، فإن هذا التطور فيه إيجابيات ، وسلبيات .

ولعل سلبيات الماضي أكثر من إيجابياته ، ولكننا إذا أخذنا بعين الواقع ، وجدنا العصر الجديد بما فيه من تطورات حديثة أدخَلت على الإنسانية حياة جديدة كأنها لا صلة لها بالماضي ، فيها سلبيات ، وإيجابيات ، ولعلها أقل سلبيات من الحياة الماضية ، ولكنها برغم هذه المفارقات نشرت كُتلاً من ظلال الترهل ، والكسل في أجسام الشباب ، والشيوخ .

فكان الفرد يستعمل المشي على قدميه ، ويقطع المسافات القصيرة ، أو البعيدة فتكون له رياضة قدمية تمده بالنشاط .

وكان الفلاح ، أو العامل يشق الأرض بالمسحات ، وطبقة الأغنياء تستعمل واسطة المواصلات الخيل ، والحمير ، والبغال ، وهي الّتي تستخدم في المواصلات في نقل جميع الأطعمة ، والأثقال ، وكل ما يحتاج له الفرد ، سواء كان من الداخل ، أو الخارج ، وأكثرُها استخداماً الحمير ، والإبل ، أما الخيل ، فتقتصرُ لركوب الأشخاص الأغنياء ، ولميدان الحروب ، فكانت تعرض راكبيها لأشعة الشمس ، والقر ، والحر ، ولفحات الرياح .

برغم هذه الأتعاب المجهدة، ففيها رياضة جسدية، حيث أن الشخص إذا أستوى على ظهرها، وسارت به، تحركت جميعُ أعضائهِ، أو قل جسمه من رأسه إلى قدمه، فهي رياضة تعطي الجسم حياة متجددة، ونشاطاً ملموساً.

أما بعد دخول المدنية الجديدة الّتي دخلت مجتمعنا بواسطة الفكر الكهربائي، الذي قلب الحياة رأساً على عقب، فهنا أصبح الفرد من البشرية، يستعمل السيارة بدل الحمير، والخيول، والمصابيح الكهربائية بدل الفانوس، فليس هناك رياضة تقتحم الجسم بدون استئذان، إلا ما يقوم به الشخص من رياضة مقصودة، فانعكس تطور هذا الترف على البشرية، فأحدث بها هذه الأمراض العصرية المستجدة، إذ لكل شيء ضريبة، وهذه ضريبة العصر الجديد.

فمن أجل هذا الترف، والمدنية كانت إحدى الدافعات لهذه الضريبة العصرية زوجي - وهم كثيرون - فقد أصيبت بحالة مرضية على إثرها أدخلت مستشفى أرامكو، وبعد إجراء الفحوص عليها، اكتشف الأطباء المختصون: أنها تشكو من تسكر في بعض الشرايين التاجية، ولابد من عملية جراحية لتحويل مجرى الشرايين التي أصابها السدد، لأن الطب الحديث وصل إلى الإكتشاف بأن هناك شرايين احتياطية في كل فرد من البشر، لا ضرر عليهِ فيها عندما تُؤخذ من فخذه، وتربط محل الشرايين المتسكرة.

وهذا من فضل خالقنا إذ هدانا لهذه الظاهرة الخَلقية، ولولاه لما عرفنا ذلك، وما اهتدينا لهذا الطريقة، تفضل علينا وجعل في

جسم الإنسان شرايين احتياطية، ولم يكن العلم قبل ذلك توصل لهذه العمليات، أو يعرف أن هناك شرايين احتياطية.

وكانت إصابتها بالأزمة القلبية في شهر محرم عام ١٤٠٨ هجرية، ولم نقتنع بتشخيص مستشفى أرامكو للداء، وللطمأنينة قمنا بعرضها على أعلى مستشفى في المملكة في تطورهِ التكنولوجي والعلمي، للتأكد من انسداد الشرايين عن طريق عملية تسمى بلغة الطب: «القسطرة»، وهي تشبه جهاز التصوير، وتريك الواقع المنظور.

فذهبنا بها إلى مستشفى الملك فيصل التخصصي بمدينة الرياض، وبعد فحصها عن طريق القسطرة - الّتي تُرسل عن طريق الرجل لفحص الشرايين، واكتشافها - قرر الطبيب المختص: أنها تحتاج إلى عملية لتحويل مجرى الشرايين المتسكرة، وربطها بالشرايين الإحتياطية.

وبعد وضوح الحقيقة، والتأكد من المرض مرت علينا لحظاتُ ذهولٍ وحيرة تتجاذبنا خَواطِرُ تطوف على آفاق أفكارنا تتردد بين إجراء العملية في مستشفى الملك فيصل التخصصي بمدينة الرياض، فهو ذو إمكانيات رفيعة، أو إجراء العملية في ما وراء البحار، وكل شيء مرهون بإرادة الله، ولكن على الإنسان السعي والاجتهاد.

وبعد دراسةٍ دقيقة مع الأبناء رسى الرأيُ على شاطئ الولايات المتحدة، وفي أحد مستشفيات مدينة هيوستن، حيث أنها متقدمةٌ علمياً ولها شهرةٌ في العمليات الجراحية.

ومن حسن حظها ، أن يكون ابناها أديبٌ ووديع في الولايات المتحدة - الدكتور وديع كان في ولاية لويزيانا ، والابن أديب كان أيضا بولاية بنسلفانيا - فدار الأمر بين علي ونبيه ، في السفر مع والدتهما ، غير أن الابن عليًّا يعترض سفره عمله الجديد بصفته مدرساً يشرف على منهجٍ تعليميٍ جديدٍ متطور ، حيث صدر له أمر من مديرية التعليم بالشرقية بنقل عمله ، وإشرافه على ثانوية مدينة الدمام ، حيث حول التعليم فيها من نظام التدريس على المنهجية القديمة إلى تدريس نظام الساعات المتطورة كالجامعات ، وهو بصفته المسؤول عن هذا النظام - في فجره الأول - فكان الابن علي في حيرة وتردد .

وعند هذا التردد لاحت لي بارقة من أمل ألهمتني السعي والذهاب إلى مديرية التعليم بالشرقية ، وكان - حين ذاك - المدير لها الدكتور سعيد أبو عالية ، وشرحت له الظروف المرضية والوضع الأسري ، فهبت منه إلتفاتة حميدة ، فقال : إنني على أتم استعداد لمساعدتك ، ولكن حسب النظام المتبع .

وفسر النظام المتبع بقوله : على إبنك أن يرفق تقريراً طبياً يترجم الحالة المرضية عن أمه مع طلب إجازة تخوله مصاحبة والدته ، فتحققَ لنا ما أردناهُ - بفضل الله - فسافر مع والدته ، وهناك اتصل بأخويه ، فجاءا ، ليكونا ركيزتين له ولأمهما .

وهذا من سعادة الزوج ، وفضل الله عليها ، إذ يجتمع لديها ثلاثة أولاد ، وأنهارا الجشي زوج الدكتور وديع كلهم في خدمتها والعناية بها ، ولا سيما بينهم طبيبٌ بشريٌ عارفٌ بخفايا الأمراض ،

ومن حسن توفيقها كان كل شيء مهيئاً ومحجوزاً ، ففي اليوم الثاني من وصولها أُجريت لها العملية الجراحية ، وقد كُلِلت بالنجاح .

وبعد إخراجها من غرفة العمليات ، وفي أثناء تغذيتها بالدم حصلت انتكاسة ، ومضاعفات للعملية مما أضطر الأطباء من إدخالها غرفة العمليات مرةً ثانية لإجراء عملية أخرى ، وفَتْحِ العملية لإيقاف النزيف وما أصيبت به من مُضاعفات .

واستمرت المرحلة الزمنية للعملية الثانية قرابة ستة ساعات ، وكان الأبناء ينتظرون خروجها من غرفة العمليات على أحرٍّ من جمر الغضى .

وبعد انتهاء العملية الجراحية خرج الأطباء من العملية ، واجتمع بهم الجراح المختص في محل الانتظار ، لُيدلي بمرئياته - الّتي بفضل الله لم يقع منها واحدة - وقال - والألم يبدو على أساريره - : إن والدتكم لابد أن تصاب بواحدة من ثلاث ، إما تأخذونها جُثة هامدة ، أو تُشل ، أو تكون العملية غير ناجحة .

فكان لهذا الكلام وقعه الرهيب المقلق في نفوس الأبناء ، ولاسيما الدكتور وديع بصفته طبيباً بشريًّا ، فتحولت حياتُهم إلى قطعة من الألم الباكي ، يسكبون على حواشي الجرح الدموع لتخفيف هول الصدمة - ولكن كل ذلك بفضل ربنا المنان لم يقع منه شيءٌ كما أشرت إلى ذلك .

أما أنا فكنت أتابع أخبارها عن طريق الهاتف الذي هو همزة الوصل وينقلُ أنباء فصول علاجها في المخابرات الّتي تدور بيني ، وبين الأبناء لأخذ ما يجد ، ويتطور لحظة بلحظة .

ولا تسل عندما تلقيت أنباء هذه المضاعفات المؤلمة بعد لأي وإلحاح من الأسئلة الكثيرة، استشففت منها هذه النكسة من الأبناء، فكان لوقعها خطبٌ مؤلمُ في قلبي، وألمُ مقلقٌ، وجفونٌ مسهدةٌ لا تذوق طعم الرقاد، ولا تعرف الراحة، ولا أستطيع أن أصف الحالة القلقة المُسهَدة عندما تلقينا أخبار هذه المضاعفات الّتي حصلت بعد العملية.

وبقينا نعيش على جناح جحيم نصطلي بجمره، حتى جاء ما يُطْفِئُ هذا اللهب بنداء يشبه الماء العذب البارد من الهاتف الذي خابرنا به الابن علي، وترجم الفرحة في حروف شوق: إن الخطر قد زال، ووصف حاله وحالة أخويه الّتي مرت بهم، وأثرت على حياتهم، كان دورها في شموخ الشوط أخذت من الدكتور وديع أبلغ الشوط بما يحمله من علم الطب، فلم يتمالك حتى أجهش بالبُكاء، وصار لا تغمض له عين.

ولي دور أخر أنا وسبطتي هند كامل سلمان، فكان للفراغ الذي تركته الزوجة، والأم أشباحا تسيطر على أنفسنا نحس كأن بأعماقنا جليداً نَعِيشُه.

وفي هزيع الليل بعد أن نسكب الدموع، نلجأ إلى أمضى سلاح، وهو الدعاء إلى الله حيث قال عز من قائل:

«ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم»

فكان لهذا الدعاء، والتضرعِ لخالقنا الأثرُ، فتفضل، وأنعم، وهو المنعم، فعافاها، وقد عاف أكثر مما ابتلى، وبعد تماثلها للشفاء عادت قافلة مع الابن علي إلى وطنها الحبيب بتاريخ ١٤٠٨/٥/٢٧ هجرية.

ولا تسل عن الفرحة ، والغبطة الّتي ملأت بيتي ، والبشرى الّتي ارتسمت على وجوهنا ، حتى وجه والدتي المشلولة الّتي تنوء بأعبائِها ، وهي معاقةٌ على كرسِيها فنسيت أمي آلامها ، وفرحت فرحاً هنيئاً .

وقد كتبت قصيدة في الزوج الحبيب هي في ديوان مدينة الدراري ، وهذا الفصل يعود إلى عام ثمانية بعد الأربعمائة والألف للهجرة ، لأن الوالدة في ذلك الوقت تملك قواها العقلية ، وشعُورها ، ولم تفقدهما إلا بعد النكسة الّتي أصابتها تلو النكسة وهو العام العاشر بعد الأربعمائة والألف هجري ، فقدت الوالدة القوى العقلية ، والشعور ، فهي لا تميز بين النهار والليل ، ولا تفرق بين الأشخاص ، ولا نغمات الأصوات ، ولا تحس بما يحدث حولها ، أو في سماء غرفتها ، فضلاً عن ما يدور في هذا الكون الفسيح الواسع الأرجاء .

فكانت تُجلسها الممرضة الموكلة بها على كرسي لنتحدث معها ، وهي لا تجيب بشيء إلا قليلاً ، ونطلب منها قراءة بعض السور من كتاب الله فتقرأُها .

وهذه الممرضة مخصصة لها ، ولشؤونها تعيش معها في محيط غرفتها أربعة وعشرين ساعة ، وتنام معها عندما تُنَوم في المستشفى ، ولقد كان لهذه النكسات المتتالية دورٌ مؤثرٌ في نفسي ، لأن الأم هي كَنزُ الحياة ، والجنة تحت أقدام الأمهات .

فكنت أتألم ، ويا ليت يفيد الألم!..... فأتضجر ويا ليت يفيد الضجر !..... أو يا ليته يحل عقدة ، أو يدفعُ مُلِمةً ! .... فألجأ إلى فاطر

السموات والأرض، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله، فأنا لا أستطيع أن أعمل شيئًا لها، إلا ما يوفقني الله به من الرعاية، والبر بها، والقيام على معالجتها كلما اشتد بها الداء، واحتاجت لتنويمٍ في المستشفى، وهذا ما أملكه، لا أملك سواه، إذ ليس لك من الأمر شيءٌ.

وكلما حز الألم في نفسي، وتصورتُها على سريرِها كمومياء محنطة، ابتهلت إلى ربي، وطلبت منه شفاءَها، لأنه يحي العظام وهي رميم، وأن يبقِيَها لنا لأنها ينبوعُ الخير، والبركةُ علينا، وتارةً ألجأُ إلى الشعر لأخفف بعض الآلام، كما هي العادة فأكتب الشعر في أحرُفٍ مشبوبة بالآلام، والحزن.

فقد كتبت فيها قصيدتين تجسد هذه المعاناة، وهذا النزيف الذي ينزف من جراحات الليالي والأيام المتباعدة التاريخ، وهما في ديوان مدينة الدراري.

وقبل أن أخرج عن هذه الحياة المؤلمة المتعلقة بحياة الوالدة الّتي هي في اعتقادي: أنَّ ما أصابها هو خير لها إن صبرت، وامتحانٌ لنا إن قُمنا بما يجب علينا لكون هذه الأحداث ابتلاء لعبادهِ، ليجازيهم إن خيرا فخير، وإن شراً فشر، وقد اشترك معي في برها وخدمتها أخوتي: الأخ الشيخ عبدالله، والأخ رسول، والأختان: زينب، وبهية، زادهم الله توفيقاً في بر أمهم.

إن هذه الصفحات هي خيط من خيوط شمس حياتي الّتي كل يومٍ يمضي منها يضيعُ في تلافيف الزمن الماضي لتشرق شمس يوم آخر، فإذا لم نسجل فيه خلجةً بذكر الله، أو فكرة تعطي لوناً من هذه الحياة المتناقضة، بالحلو، والمر، فهي حياة ضائعة.

وهناك فصول ملونة الصفحات تموج بما فيها من أسرار تأبى أن تقفز لتظهر ما فيها من خفايا، وتزيحُ الستارَ عنها، لأن أشباح المجتمع، وظروفه السياسية تحول بينها، وبين الظهور، إذن فلنأخذ من تلك الذكريات ما ظهر إلينا من دفترها بدون تحديد للتاريخ الزمني.

سبق أن تحدثنا عن الجراحات الزمنية الّتي ألمت بأثمن كنزٍ في الحياة، وهي أمي، وزوجي، وفاتني أن أصف الفراغ الذي تركته أمي، وإن كانت تعيش على قيد الحياة، إلا أنها لا تشعر بما يدور حولها.

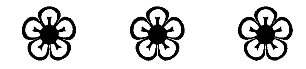
فأين تحركُها في هذا البيت، ورعايتها، وتحسسها لنا، والجلسات والسهرات الّتي تقضيها معنا، وتروي لنا ما تحفظه من بعض التاريخ من قصص الماضي!... وقبل نومها ترعانا، وتتساءل عنا، وتتفقد البيت حتى تمر على أبوابه باباً بابا لتتعرف عليه هل كان مقفلاً ؟... وبعد تأكدها من ذلك تأوي إلى سريرها.

وشتان بين الأمس، واليوم ففيه العبر لمن اعتبر!... فاليوم قد تعطلت حركتُها، وذهب شعورها، فأصبح وجودها بركة علينا ورحمة من الله - لا حرمنا الله من هذه البركة، وشفاها الله.

وقد أضاف سفر الزوجة إلى الولايات المتحدة فراغاً في ذلك الظرف، حيث فقد البيت عنصرين حيويين كل ما في البيت يعيش عليهما، ويدور بهما كالقطب للرحى لسكون حركة الوالدة، وسفر الزوج، برغم تلك الظروف العصيبة لم تسء حالة الوالدة، ولم تصل لما وصلت إليه اليوم الذي أكتب فيه هذه الأحرف بتاريخ ١٤١٤/٢/٢٦ هجرية، فكان لهذا الفراغ العميق جليد، يتراكم في سماء بيتي وجدره، وتطل منه أشباح القلق، وأطياف السُهاد،

حتى عادت الزوج وهي في دور النقاهة ، فخففت من تلك الوحشة ، وذلك الفراغ ، وازدادت حياة الوالدة ، وساءت فأصبحت لا تجيبُ على كلمات النداء ، ولا تحس بمن يُناديها ، أو يهتف بها ، فنعود بالحسرات وبالإنكسار وفي اشتهاءٍ لكلمةٍ تنبس بها تلك الشفة الطاهرة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا به ، واتمنى لها الشفاء من الله لأنه سميع الدعاء قريبٌ مجيب .

وهذه اللمحة التي تحدثتُ عنها وأشرت لها في اليوم الأول من شهر رجب الأصب عام الثامن عشر بعد الألف والأربعمائة هجرية - على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام - ، الموافق الحادي من نوفمبر عام السابعة والتسعين بعد التسعمائة والألف ميلادي .





دعوة

نعود بعد هذه اللمحة المقتضبة إلى آفاق الحياة: الحياة الفكرية، وأعمالي الأدبية فقد واصلتُ الحلقات العملية كالتدريس، ودراسة الكتب، وقراءة أفكار العلماء، والأدباء في أسفارهم، وهذه الدراسة مقصورةٌ على وجود من يقرأ لي هذه الأسفار، وهو نادر في هذه الظروف بالذات، فألجأ إلى كتابة الشعر لأخفف ما أعانيه من حرمان، لأن الشعر فيه السلوة والراحة فأنزل ضيفاً على بساط محاريب الفن.

ويرغم هذه العوامل أقوم بتدريس كوكبة من الشباب، فحياتي العلمية، والفكرية - في حدودها الضيقة إن صح هذا التعبير - مفتوحةٌ على مِصراعيها لجميع الطلبة الذين يريدون أن يقرأوا الكتب العلمية الّتي تسمى في لغة الحوزة العلمية بالسطوح: كدراسة اللغة العربية بدورتها النحوية الكاملة، أو التصريف في علم اشتقاق الكلمات، وتصريفها، أو علم المنطق - العلم العقلاني - أو الفقه: كالشرائع، أو التاريخ، أو الأدب بما فيه من صور، وألوان، ومعاني.

ويعبارة أقصر كل ما قرأتُه، واستطعت أن أدرسه فلا أبخل بنفسي على من أراد مني ذلك، وهذا من فضل ربي، والشكر له.

وقد بدأت بتطبيق هذه الوظيفة، أو هذه الخدمة العلمية الإنسانية، منذ فجر حياتي العلمية، حيث قمت بتدريس كوكبة من الشباب وهم: محمد، وحسن ابنا أستاذي الشيخ فرج العمران، ثم لفيف من أهل الذكاء درسوا على يدي، وكرست لهم وقتي، وفي طليعتهم أخي فضيلة الشيخ عبدالله، الذي حاز على فضيلة، وأسهم في الحركة العلمية والأدبية، وأثرى الحياة الفكرية حتى اجتمعت له ثروة من الكتب.

والمرحوم الشاعر عبدالواحد بن أخي الشيخ حسن الخنيزي، قرأ على يدي مغني اللبيب، وهو من الرواد الأوائل الذي سطع كوكباً في سماء الشعر الحديث، وترك بعد رحيله ديوان شعر أسماه «رسمتُ قلبي»، وكان ذواقاً للشعر والأدب، ولديه حاسة دقيقة في الأوزان الشعرية، ولد في اليوم الأول من جمادى الأول عام الخامس والأربعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، وتُوفي في اليوم الثامن عشر من شعبان عام واحد بعد الأربعمائة والألف هجرية، الموافق واحد وعشرين من شهر حزيران عام واحد وثمانين بعد التسعمائة والألف ميلادية.

وكذلك من الطلاب: مهنا بن الحاج حسن الشماسي، الذي قرأ على يدي الأجرومية، والقطر، والألفية، وقد كان ذكياً يستوعب الدروس، وعبد الغني أحمد السنان

فقد درس على يدي الأجرومية، والقطر، وجزء من الألفية، فكان ذكياً مستوعبا للدرس، واتجه إلى فن الشعر، والأدب حتى كتب بعض القصائد في أخته «صبيحة» حين ولادتها، ورثى العلامة السيد ماجد العوامي، ولكنه فضل ميدان العمل، وترك الحياة الأدبية، والعلمية فلمع في عمله حتى صار من شخصيات موظفي أرامكو الكبار، فاستعمل هذا المركز طاقةً يساعد بها القريب، والبعيد.

ومن الطلاب من الذين درسوا على يدي الشيخ عباس المحروس فقد درس عندي قسماً من ألفية بن مالك وهو الآن أحد الخطباء الواعظين الناجحين في القطيف.

وكذلك من طلابي ابن عمي محمد سعيد بن العلامة الشيخ محمد علي الخنيزي، فدرس على يدي في القطر، وألفية بن مالك، وكان من الأذكياء الذين رغبوا في الدرس، وهو اليوم شخصية من الشخصيات الوطنية من الذين أسهموا في خدمة هذا الوطن ويضحي بأوقاته، وراحته في سبيل ذلك.

وعلى هامش ذكرى دراسة الطالب ابن العم عندي ننشر صفحة من الذكرى التاريخية، ونحن على مائدة ألفية ابن مالك نمتار من أفكاره، وقبل أن نقصّها لابد من تبيين كيفية أوقاتي، وتقسيمها.

كانت أوقاتي موزعة، أو قل مقسمة، للدرس، والتدريس والمذاكرة، والمطالعة، فهي مشحونة بكل طاقات الفكر والعلم.

وكان وقت درس ابن عمي محمد سعيد بن العلامة الشيخ محمد علي الخنيزي الساعة التاسعة بعد الظهر بالتوقيت الغروبي، وشاءت الظروف في تلك الأمسية، وأنا غارقٌ في تقرير البحث المتعلق بالمبتدأ والخبر من مائدة ألفية ابن مالك - شرح ابنه بدر الدين - في إحدى غُرف بيتنا في مكتبتي، أو مكيتبتي - وكانت هذه الغرفة مطلة على ردهة تتصل بالباب الرئيس لمدخل البيت، وتعرف باللهجة الشعبية القطيفية (الحوي أو الدهليز) -، وإذا بالباب يُطْرَقُ بعنف، ويعقبها صوتٌ مزعجٌ فيه نبراتُ حزن ولكنها تنبعث بطريقة غير لائقة من المرحوم علي محفوظ الجشي.

ولعلها جاءت منه هذه المقالة الإزعاجية لما انتابه من حزن عميق من المصاب الذي سوف يعلن نبأه بحسرةٍ!.... فكان يطرق الباب بعنف، ويعقبها بنداء فيه كلمات هذا نَصُها:

شيخنا، شيخ علي، لقد مات ابن أخيك الشيخ علي بن حسن علي - أبو عبد الكريم - الخنيزي في البحرين وهو الآن في سفينة بحرية بفرضاء القطيف - باللهجة القطيفية، أي بالميناء البحري للقطيف - وقد قلت الجثمان الطاهر سفينة خاصة من مدينة البحرين إلى القطيف.

وهنا انتهى نعي الناعي علي محفوظ الجشي، وهو جاء ليبلغ عم المتوفى، ومرجع القطيف الأول، فكان لذلك النعي الوقع المُبَرح، والأصداء المؤلمة، فصمتنا عن الدرس

لحظات كأنما سُمّرنا في مكانِنا ، لا حركة للأستاذ أو الطالب إلا بضعة أنفاس تتردد في الصدر تكاد تقفز معها الدموع من العيون .

وبعد فترة من النعي خرجنا مع الوالد الإمام الشيخ علي - أبي الحسن - الخنيزي متجهين إلى مكان الجثمان بالميناء البحري ، حيث يشيع الجثمان الطاهر على أعناق الرجال .

فشيع ذلك الجثمان في موكب حزين ، وصلى عليه صلاة الأموات والدي الإمام الشيخ علي أبو الحسن الخنيزي - عم المتوفي - ، وكانت وفاة الزعيم أبي عبد الكريم الخنيزي في اليوم الثالث من صفر عام أثنين وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية .

وقبل أن نغلق ملف نعي الزعيم العلامة الشيخ أبي عبد الكريم الخنيزي ، أورد كلمة لوالدي تمثل سموه الروحي ، والمعنوي حيث سمعتها من فمه وهو يقول : من سعادة ابن الأخ أن يختاره الله بجواره وأنا موجود ، كما إنه من سعادتي لو اختارني الله وهو موجود .

هذه كلمة قصيرة ، ولكنها تدل على الترفع عن هذه الحياة المادية ، والسمو إلى الحياة المثالية الذين هم قليلون في هذه الحياة لا يحفلون بها ، ولا تغريهم صورها المزخرفة .

هذه جملة إعتراضية كما يقولون ، فلنعد إلى حلقة الطلاب الذين درسوا على يدي فنكملها ، وهم كثيرون لا تتسع لهم هذه السطور ، فنضيفُ بعض الأسماء للأسماء

السابقة - ونحن نذكرهم هنا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر- وهم:

جمال عبداللطيف الذي درس على يدي مُغني اللبيب، وحسن بن أحمدالطويل الذي درس مغني اللبيب، وجاسم خضر الذي درس الألفية، ومغني اللبيب، وكتاب الشرائع في الفقه، وقاسم العيثان الذي درس على يدي كتاب الحاشية للتفتازاني - شرح ملا عبدالله في علم المنطق.

و ياسر سعيد أحمد الغانم الذي درس النحو، والتصريف، ومحمد علي بن محمد سعيد بن الشيخ محمد علي الخنيزي، وابني الدكتورحسام بن سعيد سلمان العبدا لهادى الحبيب درس على يدي قطر الندى، وفؤاد عبدالواحد علي نصر الله الذي أصبح من الصحفيين المرموقين، وسعود عبد الكريم علي عبد الرحيم الفرج الذي هو أحد أدباء القطيف، ومؤرخيها، والأستاذ محمد رضا نصرالله الذي أصبح من الأدباء، ومن الصحفيين اللامعين، لم يتقوقع في محيطه بل كسر القمقم ليكون نجماً لامعاً، وعلي وأخاه ابنا محمد تقي آل سيف حيث درسا على يدي كتاب التبصرة، وعلي سلمان العبدالهادي الحبيب الذي درس على يدي القواعد العربية، وحسن الطويل، وما يماثلهم وهم كثيرون ممن قرأوا كتب الفقه، والنحو، والمنطق على يدي، وإحصاء أسماء هذه الثلة الطلابية تحتاج إلى صفحات عريضة، ولا يزال بابي مفتوح يتقبل الطلاب لمن أراد الدرس، وهذا من فضل الله.

ولنلملم خيوط الأمس الماضي البعيد الذي سجلنا فيه أسماء بعض الطلاب الذين درسوا على يدي، فنعود إلى شمس ما وراء الأعوام القريبة لننشر من أضواءِ فجر أيامها بعض الصفحات، فقد نشط الفِكرُ فعادت أيامه الربيعية المخصوصبة تُذِيعُ أعطرها، وتسكب ألحانها في مطلعِ فجر عام واحد بعد الأربعمائة والألف هجري.

ففي هذا العام، وما تلاه تجدد عندي الشعر إلى أيامه التاريخية الذهبية الزاهرة، فكتبت القصائد عن ألوان من الصور اصطبغت بالواقعِ كالقصيدة الّتي تصف القلعة حاضرة القطيف، والقنبلة الذرية.

وفي العام السابع بعد الأربعمائة والألف هجرية، هدأ النشاط الفكري، والشعري فما عاد محموماً كأيامه السالفة، غير أنه يرسل القوافي على فتور، وندرة، فتهبط أنغام الشعر بين الفينة، والفينة، فأداعب الأوتار لأخفف ما ينتابني من جراحات الليالي، والأيام.

وتكملة لعمليات جراحة المشرط والمقص الّتي قصصت بعضها، أو أكثرها في الصفحات الماضية، نعود فنذكر ما جد من هذه الجراحات، فجراحات الليالي والأيام لازالت تفوقُ أسهمها في جسم البشر.

وفي هذه الفترة أصبت بآلام في جانبي الأيسر، وبعد الفحوص الطبية، والأشعة الملونة، قرر الطبيب وجود حصوات في الكلية اليسرى وإحداها تحركت حتى سكرت

قسماً من قناة الأبوال ، فقرر الطبيب المختص بالمسالك إجراء عملية لتفتيت هذه الحصوات خشية أن تتأثر الكلى .

وعلى ضوء ذلك نومت بمستشفى أرامكو بمدينة الظهران في يوم التاسع عشر من شهر محرم العام الثالث عشر بعد الأربعمائة والألف هجرية ، لإجراء العملية المشار إليها ، ولكنها تختلف في أسلوبها عن العمليات الجراحية الأولى الّتي أجريتُها في الأعوام الماضية لاقتران تلك العملية بمبضع الجراح بين فتحٍ ، وجبر ، فهنا العلم قد تطور بفضل خالق العقل إلى ما يذهل العقل .

وقد توصل الطب الحديث إلى أجهزة غريبة حيث لو حُدِّثنا بها قبل أن نراها ونُشَاهدها لما كدنا نصدق ، فهذه الأجهزة الحديثة لها موجات تُسلطُ فتولد ضربات لتفتيت الحصوات الّتي في الكلى ، أو المسالك البولية ، فتحيل هذه الحصوات إلى ذرات من التراب تنزل مع البول .

فأجريتُ هذه العملية على هذه الطريقة المستجدة في الطب بذلك التاريخ فكللت بفضل الله ، وحمده بالنجاح .





أساتذتي ودورهم في حياتي

لعل من الخير، ومن الواجب الإنساني، أن نعطي لمحة موجزة عن حياة أساتذتي الذين قرأتُ على أيديهم، وكان لهم الدور في حياتي الفكرية، والعلمية.

وإن كنت قد أشرت إلى بعضهم في الصفحات السابقة من خيوط هذا الكتاب، ولكنها قد تكون تلك اللمحة عن بعضهم مجرد أسماء فأكون من الذين يجحدون الفضل، ولا يوفون حقوق المعلم الذي يكون التلميذ جزء منه، أو قبسة من عقله، ولا سيما في دور التعليم قبل أن يشتد ساعده، وينمو برعمه الفكري، ويتفتح ذهنه العلمي على آفاق بعيدة المدى، وواسعة الأرجاء، فتعطيه الاستقلالية في شخصيته بطابعها المميز في أدوار حياته الفكرية، والعلمية.

فتتمة للوفاء حتى لا أكون من الذين يغمطون الحقوق، ولم ينظر إليها بغير منظارٍ إنساني يزن الحياة بعقلانية، ووفاء، وإنصاف، وبُعد نظر، لأن التراث التعليمي مجدٌ من أمجاد القطيف يشد بعضه بعضا.

ولنفتتح هذه الحلقة التعليمية بأول مُعلمٍ لحرف الأبجدية عندما دخلت الكتّاب - الحياة الرتيبة، وقد أشرت في الصفحات السابقة إلى

طبيعة هذا الكتّاب، وتطوره، وأساليب تعليمه - فكان المعلمان لي الأستاذان الفاضلان: الشيخ محمد صالح البريكي، الذي ولد عام أربعة عشر بعد الثلاثمائة والألف هجرية، وتوفي عام أربعة وسبعين بعد الثلاثمائة والألف للهجرة، وفضيلة العلامة الشيخ ميرزا حسين البريكي، الذي ولد عام أربعة وعشرين بعد الثلاثمائة والألف للهجرة، وتوفي في اليوم الثامن من شوال عام خمسة وتسعين بعد الثلاثمائة والألف للهجرة، وقد كان دورهما في حياتي التعليمية البدائية، فقد تعلمت على يديهما كتاب الله، وبعضاً من الشعر العربي.

وكان الأستاذ الشيخ ميرزا أنشط في الكتّاب من أخيه، فكان يُلقي علينا بعض القصائد العربية، كبعض المعلقات، والحكم، وقطع من شعر ابن أبي ربيعة كقصيدته الّتي مطلعها: ليت هنداً، وربما شرح بعض الكلمات اللغوية.

وكان الشيخ ميرزا حسين من الذين حازوا على فضيلة علمية، ويحمل ذوقاً سليماً لا يتكلف فيه التعقيد، ولا تفسير الفواصل، بل يُسلمُ للدليل.

أما ما كتبه الأستاذ عبدالله - أبو بكر - الشمري - حينما ترجم الأستاذ الفاضل الشيخ ميرزا حسين البُريكي في «كتاب الفهرس المفيد لأعلام الخليج» في صفحة (١٨٥) الطبعة الأولى - وذكر أنه درس في النجف الأشرف، ولم يُوفق، فهذا غير صحيح، ولعله لعدم علمه بالواقع، أو من بعض الرواة الذين اعتمد عليهم.

والحقيقةُ للتاريخ، وللأجيال إنه لم يتلقَّ درساً خارجاً عن سماء القطيف، بل دراسته كُلها في محيط القطيف العلمي، وقد

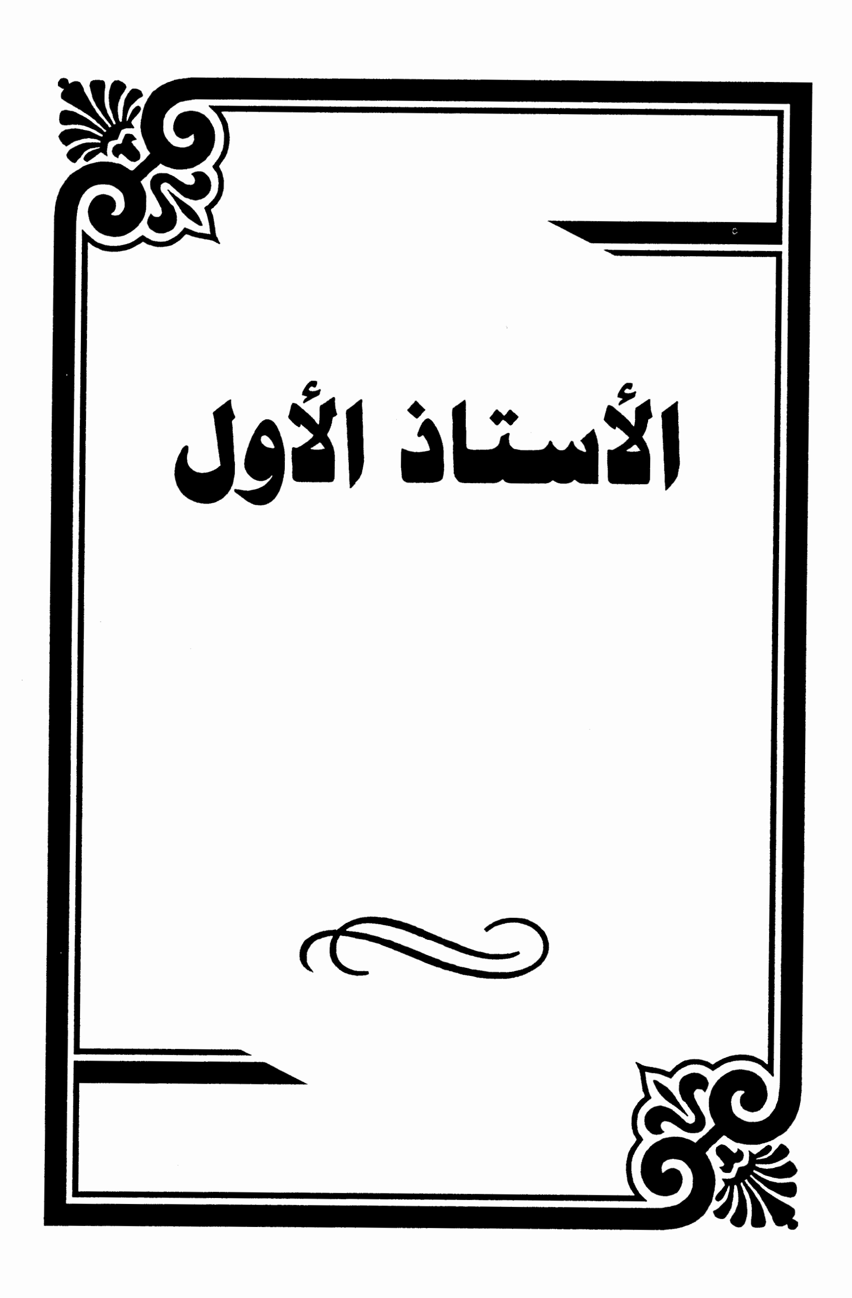
أفلح في دراسته فكان من الفضـلاء البـارزين ، فهـو أحـد تلاميـذ مدرسة الإمام الشيخ علي - أبي الحسن - الخنيزي .

وهو الخطيب الأول الذي طور الخطابة المنبرية بأساليب جديدة في بلادنا القطيف ، وكان يجسد الحياة الخطابية في صورها التاريخيـة بجميع ألوانها من ترحٍ ، أو فرحٍ ، فهو قديـر ففـي لحظـات يضحـك الجمهور فيعود بإسلوبه الرائع النفـاذ إلـى القلـوب فيبكيهـم بعـد ثوان من الضحك .

وقد شاهدنا هذه المناظر منـه عـن كثـب ، ورؤيـة ، كمـا وقـع المؤرخ صاحب كتاب الفهرس المفيد في خطأ تاريخ ميـلاده ، حيـث أرخهُ في عام السادس والعشرين ، والصحيح ما أرخنـاه روايـة عـن ابن أخيه الأديب عبدالحميد الشيخ محمد صالح البريكي .

أما أخوه الفاضل الشيخ محمد صالح ، فقد علمني مضافـاً لمـا عَلمَنِيه في الكتَّاب ، كتاب النظام ، وهو يبحث عن اشتقاق الكلمة ، وتصريفها ، وكان لهذين الأستاذين أثرهما في دور حياتي البدائية الأبجدية ، وفي اشتقاق اللغة في التصريف .





الأستاذ الأول

قد أشرت عندما تحدثت عن بعض الفصول من حياتي ، أن أبي الإمام الشيخ علي - أبا الحسن - الخنيزي ، كان هو الأستاذ الأول لي في جميع أدوار حياتي الأدبية ، والعلمية ، والتربوية ، والخُلقية .

فهو الذي وجهني التوجيه السليم ، ورعاني الرعاية الإسلامية ، وكلما صعب عليَّ مطلب علمي ، أو فكري ، أو أدبي ، أو معنى لبيت ، أو حياة تاريخية ، فزعت له فيشرحها ، ويبسطها لي منذ فجر حياتي العلمية الأولى حتى أختاره الله .

وكان أي مطلبٍ علمي أعجزُ عن فهمهِ في الدرس من أساتذتي لغموض الشرحِ ، أو لعواملٍ ضبابية ، تضبب الشرح أرجع إليه في هذه المسائل لحلها ، وشرحها .

وكان دوره في حياتي الفكرية الدور الذي تجمعه عبارة مختصرة «جامعة المعارف الكبرى» ، التّي تضم من فصلها الابتدائي الأول إلى الدراسات العُليا شهادة الدكتوراه .

ولابد أن نعطي عن حياته لمحة قصيرة : فأبي ولد به في شهر رجب العام الواحد والتسعين بعد المائتين والألف ، وتوفي ليلة الأربعاء الساعة السادسة ، أو السابعة بالتوقيت الغروبي من ليلة

الواحد والعشرين من ذي القعدة عام ثلاثة وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، وكان عمره الشريف يناهز الثاني والسبعين ، وبضعة أشهر ، ترك خلفه ثروة من العلم ، والفكر في كتب كلها مخطوطة ، هي نبع من روافد الرسول وأهل البيت ، جداول تنساب سلسالاً من الحكمة ، والفقه ، والتاريخ الحقيقي ، ودفاعاً عن مذهب أهل البيت الذي هو مسراه من ينبوع الرسالة .

وقد طبعَ بعد وفاته قسماً كبيراً من مؤلفاته نجلهُ الأستاذ الشيخ عبدالله بعد أن حققها ، وأشار إلى بعض أسانيدها .

والإمام الشيخ علي - أبو الحسن - الخنيزي لم يختصر تعليمه على أبنائه دون الآخرين ، فهو المعلم الأول في هذه الربوع ، والمؤسس للحياة العلمية ، والفكرية في مناهجها التطورية لأصول الفقه ، والفقه ، وفي نشر الثقافة في مفهومها العام ، ولم تتقيد تعاليمه بزمان ، أو مكان ، فهو حركة دائبة لا تعرف التفتير .

كما إنه العالم الوحيد الذي أقام في هذه الربوع بحثا خارجياً ، تجتمع حول منبره ثلة من ذوي الفضل ، والعلم ، وتخرج من سماء مدرسته فُضَلاءُ كُثر ، فهو المجتهد الأول الحائز على السبق في جميع العلوم في هذه الربوع .

ومن تلاميذه الذين حضروا تحت منبره في بحثه الخارج ثلة من الفُضَلاء ، كالعلامة الشيخ علي الجشي ، والعلامة الشيخ محمد صالح المبارك ، والعلامة الشيخ محمد علي الخنيزي ، والعلامة الشيخ منصور آل سيف - المولود في السنة الثالثة والتسعين بعد المائتين والألف هجرية ، المتوفى ليلة الاثنين ١٣٦٢/١٢/٢٢ هجرية

كما ذكره العلامة الشيخ فرج العمران في كتابه الأزهار الأرجية في الآثار الفرجية بالجزء الخامس (صفحة) ٦٦ - والشيخ طاهر البدر، والسيد أمان الشرفاء، والعلامة الشيخ محمد علي الجشي، وما يماثلهم ممن التحقوا بمدرسته الفقهية، وانتظموا حلقات في مسجده، ومجالسه الدراسية، حتى تخرج الكثيرون منهم، وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

وبحثه الخارجي هو أول بحث يقام في سماء القطيف، ولعله آخر بحث، إذ لم يقام بحث يماثله قبله، أو بعده حتى كتابة هذه السطور، وقد أشار لهذه الظاهرة أحد تلاميذه الأستاذ الفاضل ميرزا حسين البريكي في كلمته التأبينية، الّتي طُبِعت في ذكرى الإمام الخنيزي.

ولعل من الخير أن نعطي صورةً تُعرف بحث الخارج، وطبيعته، وهيئته:

فالبحث الخارج محاضراتٌ يُلقيها المجتهد الذي يستطيع أن يميز الأحكام الشرعية من الكتاب، والسنة، بعد أن يقطع مرحلة من العمر في الدرس، والتدريس، ويقضي شوطاً في العلوم، كالنحو، والمنطق، والصرف، وعلم البلاغة، والبديع، والبيان، وعلم الرجال - أي تمييز الروايات، وتثبيت الصحيح وتفنيد الزائف، وتوثيق الرجال وتعديلها بالتعديل، أو إسقاطها بالجرح - وأصول الفقه، والفقه، والفلسفة، وقسم من علم الهيئة، حتى تتكون لديه ملكة، أو قوة عقلية يستنبط بها ويستخرج من أحكام فقه آل الرسول حسب الأدلة الأربعة، ليميز الحلال من الحرام لما يُوصله إليه الدليل.

فإذا كان الطالب قطع، أو اجتاز هـذه العلوم، وكـان لديـه استيعابٌ، وشموليةٌ تمييز ما قرأه، حضر لدى منبر المجتهـد ليكـون من رواد مدرسته، حتى تتكون لديه ملكة الاجتهاد، لأنه يتعلم من خبرة وأسلوب المجتهد كيفية الوصول إلـى الدليـل في بحثـه الـذي يلقيه عليهم في أساليب طُرقٍ في أدلةٍ تُبينُ الحلال من الحرام مستمدة من الكتابِ، والسنة، ويصحـح بعـض الروايـات عـن طريـق علـم الرجال، ويفند بعض مستندات الروايات.

والمجتهد هو ذو الحاسة الفنيـة، أو الملكـة - كمـا يعـبر عنـه الفقهاء - الذي يستخرج الحكم بذاته بدون أن يرجع إلى شـخص آخر، وتختلف درجات المجتهدين في الفضيلة، والعلم فكلٌ حسـب طاقته، وفضيلته، وما يعطيه ربُه من قسط يأخذه من العلم.

فتجتمع تحت منبره ثلة من الفضلاء، ومن المراهقين الذين هـم على عتبة الاجتهاد، وحتى مـن المجتهديـن الذيـن دونـه في درجـة العلم، فتجتمع هذه الشـريحة تحـت منـبره، ليشـربوا مـن جـداول علمه، ويناقشونه عندما يطرحُ المسـائل العلميـة، ويسـتدلُ عليهـا بالأدلة من الكتاب، والسنة.

ونشرح للقارئ واقعية البحـث الخـارجي، فنقـولُ مثـالُ ذلـك يختار المجتهدُ - ربُ البحث - موضوعاً من المواضيع، كموضوع في علم الأصول، أو الفقه، أو علم الرجال، فيعدُّ محاضرته ويديرُهـا على إحدى هذه المواضيع التخصُصية فيُلقيها من على ذروة المنـبر، وذلك حسب مركزه العلمي، والفقهي، وطلابهُ كلهم محدقين بمنبره، فيشرب من هذا الجدول كلٌ حسب طاقته العلمية.

فالإمام أبو الحسن الخنيزي من أولئك الذين أدار هذا البحث مدة من الزمن لم يسبقه أحد في بلادنا ، وحتى كتابة هذه الحروف لم يقم بهذا البحث أحد بعده - كما أشرنا إليه - ولم يتوقف هذا البحث إلا بعد أن أصيبَ بضعفٍ في عينه أعجزته عن تحضير المحاضرات ، وإلقائها .

كما اختص بنواحٍ إنفرد بها عن علماء عصره ، وهي الناحية التاريخية ، والأدبية ، والشعرية ، وكان له ذوقٌ مرهفٌ ، وحاسة فنية يزن بها الفكر الأدبي ، ويتذوق الشعر من حيث إنه شعرلا يفرق بين قديمه ، وحديثه ، ولا بين عصوره مهما تباعدت الأزمنة ، وتباينت ألوان تفكيرها ، ونبع مجراها .

كما أنه حركة علمية لا تعرف التفتير ، ولا تعرف للوقت ضياعاً ، فهو معلم تصدق عليه هذه الكلمة بكل معانيها ، فهو إن لم يُسأل بصفته معلم يستفاد منه سأل ، ووجه أسئلته لمن كان حاضرا في ناديه بمقدار أرضية العقل المسؤول ، غير إنه يختلف في المطالب العلمية ، والفكرية حسب ما تدور في ذلك الأفق كمجتهدٍ ، إلى طالب علمٍ ، أو غير مُتعلم .

فمدرسته لا تفرق في إرشادها ، وتعليمها ، إنما هي تفتح أبوابَها ، وصدرها إلى جميع من يحضر في ذلك النادي .

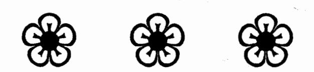
وهذه الحقيقة لا أقولها مبالغة ، ولعلي قصرت عن وصفها ، أو لم ألمّ بجميع جوانبها ، ولكنها حقيقة شهدها من عاش مع الإمام أبي الحسن الخنيزي ولو أياماً طويلة ، أو فترة قصيرة ، ولا يزال يوجد على قيد الحياة من عاش هذه الظاهرة ، وشرب من ذلك الجدول الرقراق الذي ينبع من هدي آل محمد صلى الله عليه وآله .

هذا هو أستاذي الأول، والأخير كما عبرت عنه سابقاً.

كما قرأت على يد الأستاذ محمد سعيد المسلم كتاب الأجرومية، وقطر الندى بأمر له من والدي.

والأستاذ المسلم كما يقول في كتابه ساحل الذهب الأسود الذي أبدلَ أسمه (القطيف واحة على ضفاف الخليج)، ولد عام واحد وأربعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية.

وهو من الرواد الأوائل في حركة النهضة الحديثة لمنطقة القطيف، وقد ألف ديوان شعر أسماه «عندما تشرق الشمس»، ومجموعة من الكتب النثرية منها ما يتحدث عن تاريخ القطيف الاجتماعي، والجغرافي، والأدبي، والسياسي - وقد أشرنا إليه في الصفحات الماضية - وقد وافته المنية في يوم الواحد والعشرين من شهر ذي القعدة عام الرابع عشر بعد الأربعمائة والألف هجرية، في مستشفى الملك فيصل التخصصي بمدينة الرياض، الموافق يوم الثاني من شهر مايو عام أربعة وتسعين بعد التسعمائة والألف ميلادي.





العلاّمة الشيخ
فرج العمران

كما درست على يد العلامة الأستاذ الشيخ فرج العمران ما تبقى من كتاب ألفية ابن مالك، ومغني اللبيب لابن هشام، والحاشية - متن التهذيب للتفتازاني - شرح مُلاّ عبدالله في علم المنطق، والشمسية في المنطق، وكتاب المطول في البلاغة، والبيان، والبديع، وقسم من الجزء الأول من كتاب اللمعة الدمشقية في الفقه.

ولابد من لمحة عن أستاذنا، فقد ولد في شهر شوال عام واحد وعشرين بعد الثلاثمائة والألف للهجرة، وتوفي في ربيع الأول عام ثمانية وتسعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية.

فهو واحدٌ من علماء القطيف، ومن الذين كرسوا حياتهم للدرس، والتدريس، وتأليف الكتب، وقد ترك مؤلفات ثرة ذات مادة واسعة، تضم معالم هذه الربوع عن حياة علمائها، ومُفكريها، وبعض آثارها، فحفظ بعض التاريخ، ولولا أعماله لضاعت هذه الحلقات كما ضاع غيرُها.





العلامة الشيخ
عبد الحميد
الخنيزي الخطي

من ظروف الصدفة الّتي لا تخطر بالأفكار، ولا تمر على الأذهان، أن يعودَ أخي الأستاذ الشيخ عبدالحميد في رجب عام ستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - وكان والدي الإمام أبو الحسن موجوداً - وكنت أقرأ في ألفية ابن مالك، وكان زائراً حيث ترك عائلته في مدينة النجف الأشرف حاضرة الفكر الشيعي، ولكنها شاءت الأقدار أن يتأخر سفره، ويطوي قلاع السفر، ويستريح في المرفأ مدة تستغرق قرابة خمسة شهور؛ فأمرني والدي أن أقرأ على يديه في ألفية ابن مالك، المدة الّتي قضاها معنا.

ولد العلامة الخنيزي في الخامس من شهر رمضان المبارك عام واحد وثلاثين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، في حاضرة القطيف - القلعة - وقد أشرت إلى دور حياته العلمية، والفكرية، وانعكاساتها، وتأثيرها في أفكار الشباب، والشيوخ، حيث أطلعت سماؤه نجوماً، كما أشرت للكتب الّتي درستُها على يده في الصفحات الماضية بعد عودتهِ من النجف الأشرف على أثر موت والدنا.





العلّامة الشيخ محمد صالح المبارك

وهو أحد علماء القطيف الذين حازوا على فضيلة، وقد تتلمذ، وتخرج من مدرسة الإمام أبي الحسن الخنيزي الفكرية، والعلمية.

وكما درس السطوح على يد الزعيم الشيخ علي - أبي عبد الكريم - الخنيزي، كما سمعت من فمه.

وقد ولد العلامة الشيخ محمد صالح في العام الثامن عشر بعد الثلاثمائة والألف الهجري - كما وجدته مدوناً في كتاب الفهرس المفيد في أعلام الخليج - وتوفي في الثامن من شوال عام أربعة وتسعين بعد الثلاثمائة والألف الهجري، وترك ثروة من الكتب، وطلاباً من الفضلاء.

أكملتُ على يديه بقية كتاب المعالم في أصول الفقه الذي بدأت دراسته على يد والدي.

وما قرأته في كتاب الفهرس المفيد في أعلام الخليج - في صفحة (١٦٣) الطبعة الأولى مطابع الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع بمدينة الخبر المملكة السعودية - وكتاب صفوى تاريخ ورجال لصالح محمد آل إبراهيم صفحة (١٤٦) الطبعة الأولى -: أنَّ العلامة الشيخ محمد صالح تلقى دراسته العلمية، والفقهية في

مدينة النجف الأشرف ، فهذا خطأ تاريخي لا أعرف للمؤلفين وثيقة تاريخية تثبت ما سجلاه لهذه المقالة .

وإذا كان حجتهما الشهادات الّتي حصل عليها فهي لا تدل على محل دراسة الشخص ، وعلى يد من تلقاها ، وليس بضائر طالب العلم في أي محل درس ، إنما هي مفخرة لأمثال العلامة الشيخ محمد صالح ، حيث وصل لمرتبة من الفضل على أيدي علماء بلاده .

ونسجل هذه للحقيقة والتاريخ ، فقد سمعت من فمه بدون واسطة أن دراسته العلمية كلها في مدينة القطيف ، قسم منها دراسة السطوح ، أي الكتب الأولية على يد الزعيم الشيخ علي - أبي عبد الكريم - الخنيزي ، وبعض شروحها الغامضة تلقاها من الإمام الشيخ علي أبي الحسن - الخنيزي ، كما حضر بحثه الخارجي المشار إليه .

هؤلاء أساتذتي الذين تلقيت على أيديهم دراستي .

ولكنني كما أشرت أن الدور الكبير منذ فتحت جفني على هذا الكوكب المليء بالخير ، والشر هو لوالدي الإمام أبي الحسن ، حتى اختاره الله إلى الرفيق الأعلى ، فقد دأب على توجيهي ، وتعليمي ، وتثقيفي ، وعندما اختاره الله أحسست بفراغ ، وألم ممضين .

لم أتصور أن تلاحقني أطيافه - أي أطياف الفراق ، فإن الفراق مر المذاق - حتى كتابة هذه الأحرف ، ونحن في يوم الخامس من شهر ربيع الأول العام الرابع عشر بعد الأربعمائة والألف هجري .

وإنني كلما تصورت فراغه العميق ، أو إرشاداته الأبوية ، والتعاليم الخلقية ، عصر الألم قلبي ، فسكبتُ الدموع ، وأكثرها ما

يكون ذلك عندما أخلو بيني ، وبين نفسي فأقرأ بعض الأشعار الّتي كتبتها فيه ، فقد كتبت فيه شعراً : منه أربع قصائد بعد فترة وجيزة من موته ، وقصيدة بعد أربعين عام ، وقصيدة بعد خمسين عام ، وكلها مدونة في ديوان أسميته (كانوا على الدرب) .

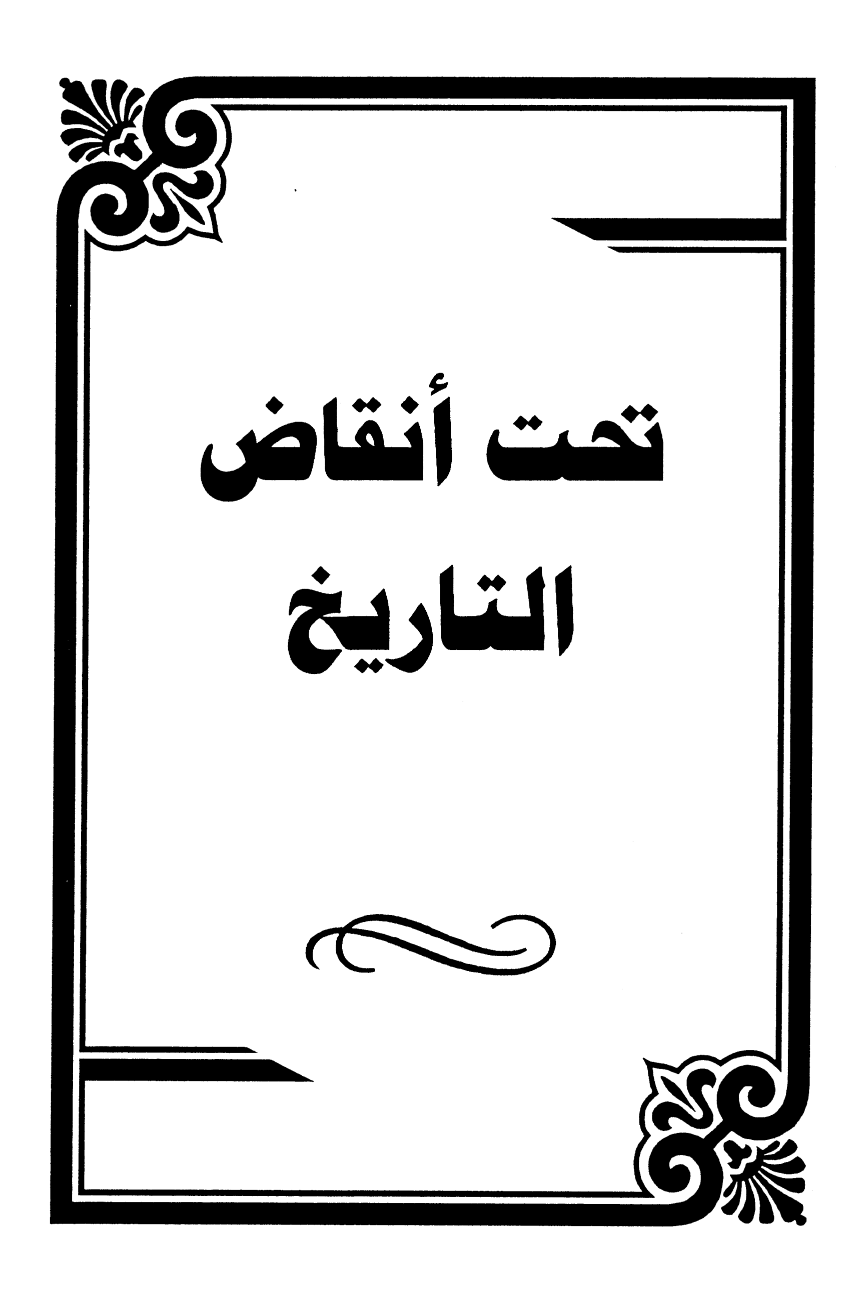
وهذا الحزن ، والبكاء ليس مبعثه السخط ، والتبرم من أوامر الخالق القادر ، لأن من كان أعظم منه شرفاً ، وهو سيد الخلق محمد بن عبدالله ، هو وآل بيته قد ماتوا - وهم السلوة - وإنما الدافع هو الحب ، والوفاء ، وعاطفة البنوة ؛ لأن الإبن مهما عمل لوالديه في حياتهما ، أو بعد وفاتهما لا يؤدي حقهما مهما بلغ من بر بهما ، أو عمل لهما .

فأنا أتمثل قول نبي الرحمة صلى الله عليه وآله ، لا نقول ما يسخط الرحمن ، ولا ما يبعدنا عن روض الجنان ، ولكن نأخذ بسنة سيد الخلق رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقد روي عنه :

«إن العين لتدمع ، وأن القلب ليخشع ، ولا نقول ما يسخط الرب ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»

هذه القبسة ، أو المصباح الذي يضيء لنا عتمة ليل الحياة ، ويرسل أنواره للمحزونين ، فهو نبراس حقيقيٌ أن نسير عليه ، ولا نخرج عن ظلال ضوئه قيد أنملة .





تحت أنقاض التاريخ

سبق لي أن أوضحت في الصفحات الماضية، أنني لم أرتبط بالترتيب الزمني والتاريخي، إنما أمتار من دفتر الذكرى القريب، وسحيق التاريخ البعيد، وكم فيه من ذكريات غريبة!.... وكم نسيت من تلك الذكريات الكثيرة الكثير، الّتي ضاعت مع تلافيف الزمن، وتحت أنقاض التاريخ!.

وكم من تلك الذكريات، لا تستطيع أن تقفز من تحت هذه الأنقاض!.. لأنها تعيش ملغمة بألغام المجتمع والسياسة؛ وكم يأبى المجتمع حقائق لا يريد مشاهدتها، ولا يعيش معها! ... وكم يكتم المجتمع البشري حقائق تاريخية، ويُضيِّعُ فضائل شخصياتٍ لها دور في التاريخ!...

ولعل هذه الشخصيات هي صانعة التاريخ، والتاريخ قطعة من حياة العظيم، يصنعه، ويجيء قطعة من حياته، يطبع عليها لمحات من شخصيته، ويترك طابع أنامله العشر على صفحات ذلك التاريخ.

ولكن المجتمعات البشرية لا تنظر للفضيلة من حيث أنها فضيلة، حتى تنوه بها، من أجل أنها فضيلة، فالمجتمع يصفق مع رياح من لعب بعواطفه، وسار فيه بشخصية مزدوجة لها عدة ألوان، ووجوه.

أما الشخصية الّتي تجردت من الإزدواجية، وسارت تحت ضوء الشمس، تواجه الحقائق بصراحة، فتقاوم المعوج، وتشكر المستقيم، فهذه شخصيةٌ مُضاعة.

نحن لا ندَّعي أن المجتمع تكتمل فيه الشخصية بكل ما فيها من الكمال، لأن الكمال لله وحده، ولمن عصمه الله من أنبيائه، ورسله، وفي طليعتهم نبينا، وآل بيته عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

فلهذا النقص المتأصل في البشرية، احتاج البشر إلى رسل تقوم هذا النقص، وتهذب النفوس من هذه الازدواجيات الّتي تجري وراء القشور، والشعارات البراقة، وتترك الجوهر، فهذه شخصيات قشورية تتبع ظلال الزيف، وتتقنع ببراقع الظلام، حتى يكون لها دورٌ في هذا المجتمع التعيس.

هذه جملة اعتراضية، ولكنها صفحة من صميم الحياة الإجتماعية التي تجثم على ذروة الحياة، في هذا المحيط الاجتماعي الذي نعيشه في عصر الذرة، والكمبيوتر، والكهرباء.

هذه المخترعات الجديدة الّتي غيرت المجتمع، وأصبحت منجزات علمية حضارية، ولكنها لم يكن لها دور التأثير في خُلق المجتمع، بل انحدر في أخلاقياته إلى حياة الحيوان غير الناطق.

وإشارتي إلى تأثيرها تأثيراً في تطور البشرية في الصناعة العقلية، وتبدل الحياة في إسلوبها المعيشي، والبيتي، والاجتماعي، لا في الحياة الخُلقية، ولا الدينية، والأسف - كل الأسف - أنها لم تُعطِ دفعةً في العقيدة والأخلاق، برغم أن العلم يدعو للإيمان، ولا يدعو للكفر، والطغيان.

ما كان القصد أن أتحدث عن هذا الشريط ، الـذي هـو مـدار حياتنا الحاضرة ، وكان القصد أن أتحدث عـن بعـض الذكريـات ، الّتي سمحت لها الحياة بالحيـاة ، هـذا مـا كنـتُ أردت أن أتحـدث عنه .

إذن فلنرجع القهقرى ، وننشر صفحات الذكرى ، لنعيش في جو أشباحها وأطيافها ونأخذ منها ما سمح لنا ذلك الدفتر .

ولعل من الخير أن أعود أدراجي بـدون قفـزة ، لأن القفـزة قـد توقعنا في مهالك ، فأعود إلى عصر ما بعد الطفولة ، عندما أذهـب مع والدي الإمام أبي الحسن الخنيزي إلـى جزيـرة تـاروت ، وكـان الذهاب إليها عن طريق البحرعلى مرحلتين ، ولكن تختلف وسـائل النقل لأن البحر بين جزر ، ومد .

ففي حالة الجزر تكون وسيلة النقل : هي الحمير ، وفي حالة المد تكون وسيلة النقل على مرحلتين : الأولى تنقلك سـفينة مـن مينـاء القطيف قرابة مقر جُمركها إلى ميناء داريـن ، ومـن داريـن يكـون النقل عن طريق الحمير ، وفي بعض الأحيان حمير تجر عربة ، ولكنها عربة ليست من العربات الفخمة ، إنما هي مكونة من ألواح خشبية ، وتسمي - باللهجة القطيفية العامية - : «قاري» .

وجزيرة تاروت كانت جزيرة زراعية يعيش أهلها على الزراعة ، وصيد الأسماك ، وصيد اللؤلؤ .

وقبل أن أطـوف بهـذه الرحـلات في تلـك الجزيـرة ، وملاعبنـا في حقولها الخضراء ، وقبل وصف تلك الرحلات ، لابد من إعطاء صورةٍ عن صيد اللؤلؤ ، والأسماك ، والحياة الزراعية في تلك الجزيرة .

فاللؤلؤ هو تاج الخليج على صدور الغانيات، وقد اختص بصيده، أو استخراجه من البحر الخليجيون، فهي صناعة شريفة خليجية من أغلى الصناعات.

فلنصف هذه الأعمال الّتي تعيش عليها هذه الجزر، وليست هذه الأعمال المشار إليها تختص بها جزيرة تاروت، بل يمارسها جميع من يقطن هذه الربوع، وإنما جزيرة تاروت يغلب على قاطنيها طابع هذه الأعمال، بل يكاد قاطنوا هذه الجزر، أن ينفردوا بهذه الأعمال في عام الخمسينات بعد الثلاثمائة والألف الهجري، أو ما قبلها.

وأنا أتحدث عن وصف هذه الأعمال لهذه الربوع، لكونها قطعة من تاريخ بلادي، شاهدتُ مناظرها؛ حيث إن صناعة البترول لم تبدأ إلا بعد الخمسينات.

وقد أوقف نشاطها الحرب العالمية الثانية، فعاشت هذه الصناعات، تعمل بنشاط على صعيد البلاد، منذ فجرها في العصور البدائية، فهذه الصناعات مستمرة إلى ما بعد السبعينيات، أو الثمانينيات بعد الثلاثمائة والألف هجري، وهي صناعات محلية: كالنجارة، وإن كانت صناعة بدائية.

ومنها صنع «المديد»: الّتي تتكون من أسل تنبته الأرض؛ والحصير: الذي يُصنعُ من سعف النخيل، والسلال: الّتي تعمل من القصب مما تنبته الأرض، وهي أوعية تعد للفاكهة، والرطب، وقسم منها من الحجم الكبير توضع فيه الملابس.

والمراوح اليدوية: الّتي تصنع من خوص النخيل؛ لأنها تستخدم للترويح بها حيث لا يوجد كهرباء، كما تصنع من خوص

النخل أوانٍ لوضع الرطب، والفواكه تسمى : - باللهجة الشعبية - «سراريد» مفردها «سرود».

كما يحاك من خوص النخل سُفر، ومفردها سفرة، تقدم ليوضع عليها صحون المائدة، وفي الريف يستعملها أهلها في الموائد الدسمة الكبيرة، وهي من حجم صغير، ووسط، وكبير.

كما يصنع من الخوص : «القفّه»، و«الزنبيل» الذي يسمى - باللهجة القطيفية - : «الزبيل» ؛ و«المخْرف» : ويستعمل لإبتياع الإدام، والخضار، وبعض الحاجيات من السوق ؛ لأن إسلوب المعيشة كان ينقسم إلى قسمين : قسم ينفرد به طبقة الأغنياء، وقسم يشترك فيه طبقة الأغنياء والفقراء.

أما الإسلوب المعيشي الذي ينفرد به طبقة الأغنياء - في ذلك الظرف - : هو إبتياعهم الرز، والسكر، وما يحتاجه البيت من الكميات التي تزود البيت على أقل تقدير طيلة شهر.

أما الإسلوب المعيشي الذي يشترك فيه الطبقتان الغني، والفقير : هو ابتياع ما يطرأ عليه التلف، ولا يبقى غير ساعات كالإدام المعروف : باللحم، والسمك، والربيان، والفواكه، وكل مالا يبقى أكثر من ساعات معدودة وكل ما يشمله التلف لعدم وجود المبردات التي تحفظه في ذلك العصر.

وإسلوب معيشي آخرتنفرد به طبقة الفقراء هو إبتياع البطاقة اليومية : كل ما يحتاجه ذلك الفقير من غذائه اليومي - إن إستطاع تأمينه - وإلا أخذ ما يقدر عليه حتى أخذت الدهماء تردد :

(إننا نأخذ يومياً من العصلة إلى البصلة).

ومن ضمن حروف البطاقة: «الكيروسين» - أي الجاز - الذي يشعلون به إنارة أكواخهم، فيأخذون قارورة ويضعون فيها الجاز، أما الذبالة - أي الفتيلة - فيأخذونها من خيط من الخيش، أو من ثوب ممزق ويضعونها في تلك القارورة، ويحيسون تمراً ويلصقونه على فم تلك القارورة، حتى تثبت تلك الذبالة ويشعلونها بالثقاب، وتسمى هذه بالشمعة لعلها مقتبسة من الشموع.

وهذه التسمية عربية، وتسمى في قرى القطيف وريفه: «السراجة»؛ وهي تحريف كلمة «السراج» - وهي عربية صحيحة - وأعطيت هذين الإسمين تفريقاً لها عن المصباح المسمى: «الفانوس»، أو المسمى: «التريك»، وهو مصباحٌ أكثر ضياءً وانتشاراً من الفانوس، وقد شرحنا طبيعتهما في هذا الكتاب.

ولربما مالت نارها على أطراف ذلك الكوخ فأشتعلت النار فيه، وبعض الذين يفكرون في العواقب لا ينامون حتى يخمدون ضوءها - إن كان لها ضوء - فضوءها باهت، لا يكاد أن يطلعك على ما في زوايا هذا الكوخ، حتى ضرب به المثل: «كأنها ضوءُ حرمية»، وتعبئتها بالكيروسين، وهو من البطاقة اليومية تأخذ كل يوم، فالمتسوق يجمعها في هذا «المخرف» وله عروة من الحبل في جهتيه، يمسكه حامله.

ومن الصناعات ترويض الأتن، والخيول فهناك طبقة تعيش على هذا العمل، وتكسب منه ما يُعيِّش أهلها، ويسمى هذا العمل - باللهجة القطيفية -: «عسف الحمير».

فإذا أُعطي المروض أحد الأتن ليعسِفها - أي يروضها - وأعادها لصاحبها فوجدها عندما يستوي على ظهرها،

ويجري بها أشواطاً أنها تسير سيراً غير محمود، سُميت مشيتها: «شلَع» باللهجة الشعبية القطيفية، ومعناه أن سيرها غير متزنٍ.

وأصبح هذا المثل يضرب به للأشخاص من الذكور، أو الإناث إذا ساروا سيراً غير متزن، كتحريك أكتافهم، أو أجسامهم، أو ترك قسماً يتحرك طبيعي، وقسم يتحرك غير متزن، وسميت هذه المشية: «مشية شلع».

وإذا سارت الحمير سيراً متزن سُمِّي - باللهجة الشعبية القطيفية - هذا المشي: «مشي بسط».

وكان للنخيل، والزراعة دور في حياة هذه الربوع، حيث تعيش عليها شريحة من الفلاحين، وطبقة الأرستقراطيين.

فالفلاح يستأجر الحقل، أو يتضمنه من مالكه بعقد يكتب في ورقة على صورتين: في يد المالك واحدة، والأخرى بيد الفلاح، ويذكر في ذلك العقد الشروط الّتي أتفق عليها المالك، والفلاح المستأجر، وهذا العقد يخول الفلاح حرث الأرض، وبذرها، وتأبير النخل القائم على الأرض التي تضمنها، وغرس أفراخ النخيل - وهي الفسيل الّتي تولد من تلك النخيل - وجذ ثمار نخيله، وكل ما تنبته أرضه من ثمار.

كما يحق له قلع الشجر المتولد من الشجر الكبار كالليمون، والأترج والبرتقال، ويسمى - باللهجة الفلاحيه القطيفية - : «عكايس»، مفردها «عكيسه»؛ لأنه يعكسها الفلاح وهى بجانب أمها، وبعد ذلك يفصلها عن أمها، ويغرسها في شرب النخل.

أما الفسيل فيحفر لها أحواضاً فتغرس فيها ، ويشق جداول لجري الماء ، فيستغل الفلاح الأرض وما تنبته ، وما عليها من نخيل فيحصد كل ما في الحقل ، ويبيعه .

كما تشاركه زوجه في هذا النشاط في الحقل فتقطف الجني ، فهما شريكان في الحياة الزوجية ، والعملية ، فتبيع الزوج ثمار ما تجنيه ، كما يبيع الزوج الذكر التمر ، والسلوق .

وتعريف السلوق : هو أن تقطع عدوقاً من النخل كلها «بِسْر» قبل أن ينضج ، ويصيررطباً فُيسلق في قِدرٍ واسعة ، وتسعر نارٌ حاميةٌ من تحت القدور - وقودها من سجين النخل - حتى ينسلق ، وبعدها يجفف في «البيدر» أي «الفدى» باللهجة الشعبية القطيفية .

وبعد تجفيفه في البيادر يأتي خبيرٌ مع عمال ومعهم ميزان فيزنون السلوق المجفف المطروح في البيادر ، وبعد وزنه يُعبأ في أكياس من الخيش ، ثم يحمل عن طريق واسطة النقل بالحمير إلى السفن الراسية في مرفئ شواطئ القطيف ، وكانت تعرف - باللهجة الشعبية القطيفية - : «الفُرضى» ، فيُحمل في تلك السفن فتمخر به عباب البحر إلى مرافئ شواطئ الهند .

فالتجارة ، والحياة الاقتصادية تربط شواطئ الخليج بشواطئ الهند ، فالسلوق من ضفاف القطيف إلى شواطئ الهند ، وشواطئ الهند تصدر إلى القطيف الرز ، والتوابل ، وما يماثل أنواع هذه الأطعمة متبادلٌ بين الشاطئين ، وهو ارتباط تجاري منذ قدم العصورمن فجر حياتهم الحضارية .



صورة تمثل التمور في الظرف الذي يسمى قلة

واللؤلؤ يصدره الخليج إلى الهند، والهند بدورها تصدره إلى أوروبا، والتعاطي، والتبادل التجاري بين شواطئ الخليج، وشواطئ الهند منذ القدم، ولا نعرف متى بدأ تاريخ هذا الارتباط الذي ربط بين الشاطئين؟.

كما ربطت الشاطئين قديماً حضارةٌ نمت وازدهرت باقتصاد الخليج، والهند.

ومن الصناعات المحلية، صناعة ما يوضع على الحمير كالعدة الّتي تتألف من: «وليه»، و«بديده»، و«قتب»، ومقعد يوضع على «القتب»، وسيراً يسمى: «بطاناً»؛ لأنه يشد على ظهر الأتان، ويلتف على بطنها فيحزم، وللبطان حلقتان: في كل طَّرف منه حلقة تلتقيان في بطن الأتان لحزمهما، وربطهما بالعدة الّتي هي على ظهره، لذلك سمي: بالبطان.

وكانت لهذه الصناعة سوق رائجة لاحتياج الناس لها، لأن طرق المواصلات على ظهور الأتن - الحمير -.

كما تصنع القلادة الّتي توضع في رقبة الأتان، وتتفنن اليد العاملة في تلك القلائد حتى يضع بعضهم فيها جرس يسمى - باللهجة الشعبية: «برشوم».

ومن الصناعات المحلية الحياكة، كحياكة بعض العبي الّتي تلبسها الرجال، وإن كانت هذه الصناعة بدائية لا يستعملها إلا الطبقة الفقيرة يلتفون بها في فصل الشتاء القارس فتعطيهم دفئاً.

ومن الصناعات المحلية الجرار، والأقداح، والحبوب، والجحال الّتي تأخذ من الطين وتوضع في قوالب على أساليب مختلفة، ويدخلها صاحبها إلى كور النار، وهذه تسمى - باللهجة الشعبية -: «الدوغة»؛ والدوغة عندما تُشعل تعطي سحاباً كثيفاً من الدخان يملأ الجو فتنشره الّتيارات الهوائية على سماء المنازل.

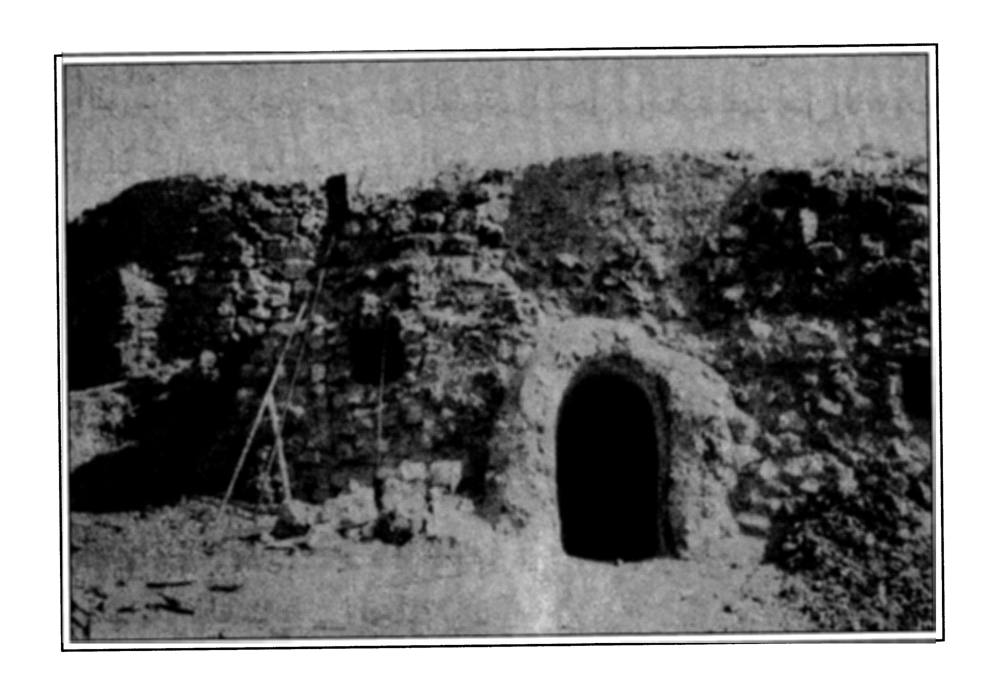
ومن الصناعات المحلية الحدادة، فقد كانت تصنع السكاكين، والفؤوس - مفردها فأس -، والمطرقة، والمنجل، وما يماثلها من الأدوات المنزلية كالمقالي، والمحامس - التي يمسك باليد، ويقلب به الطاهي ما كان في المقلى الذي هو على النار -، وغيرها من الأدوات المنزلية، كالهاون ويده: وهو إناء يستعمل لدق القهوة، فيده تحول حبها إلى طحين ناعم.

وكذلك الأدوات الزراعية كالمحش: وهو ما يشذب به الفلاح البستان، ويزيل به الطحالب - فتسميته عربية -، والعمود: وهو قطعة منحوتة من حديد يبلغ طولها قرابة متر تساعد الفلاح، أو عامل البناء على الحفر، والهدم، - والعمود يجمع على أعمدة - وكلها من الصناعات المحلية.

ومن الصناعات المحلية ما يستعمل لصعودا لنخلة إلى ذروتها، وهذا يصنع من ليف النخل بحيث يشده الفلاح وراء ظهره، ويشبكه بالنخلة، ويحزم ظهره به ملفوفاً بالنخلة، ويضع فيه حلقة على أطرافه، ويصعد به درجة درجة، وكلما صعد به تسمع له نغمات صوت، كأنه يخبر الجالسين سآتيكم برطب جني من هذه النخلة.

فإذا استوى إلى ذروة النخلة استند على هذا الحزام، وأخذ يجني الرطب من عدق النخيل العتاق، وهو مرتاح لما يسنده ذلك الحزام الذي يسمى - في لهجة الفلاحين -: «الكر»، وكأنه مقتبسٌ من الكر الذي هو ضد الفر، فكأنما هو بطلٌ يكر على النخلة، كما يكر البطل في ميدان الحرب، فهو يصعدُ به إلى أعلى مراتب النخلة، حتى يصل إلى ذروتها مهما طال عنقها في السماء.

وجانِ الرطب من النخلة يسمى - باللهجة الشعبية -: «خرّاف الرطب» أي قاطفه من النخلة.



كما تجد صورة تمثل هذا المعمل المسمى بالدوغة

ومن الصناعات المحلية الصفافير الذين يجلون القدور عما علق بهم من الطهي، ويسمى - باللهجة القطيفية - : «صفّار»، يجمع على صفافير تسميةٌ عربية.

وهذه الصناعات الّتي تحدثنا عنها قد انقرضت كما انقرض الأمس، ولم نسجل جميع الصناعات المحلية.

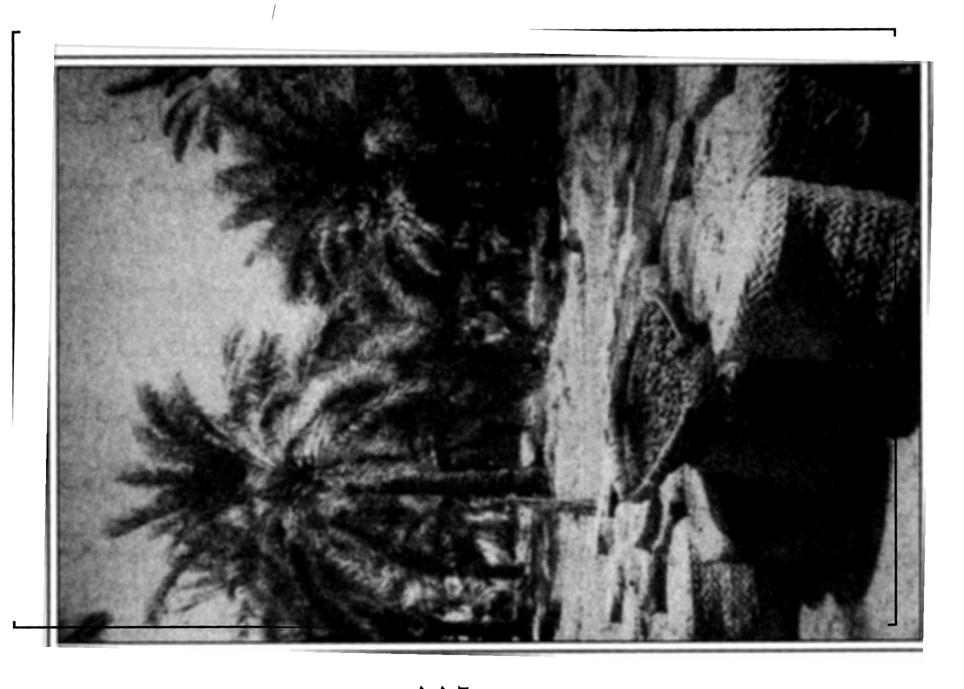
فنعود للحياة الزراعية بالقطيف، حيث كان القسم الأكبر من سكان القطيف، ولاسيما الفلاحين لا يملكون شبراً من الأرض حتى يقيمون عليه كوخاً يأوون إليه، ويعيشون على أرضه، ولهذه الظاهرة الاجتماعية اضطرتهم إلى أن يتسابقوا على ضمان النخيل من مالكها، وتسمى - باللهجة الفلاحية المعروفة في القطيف - : «تأكير النخيل»، أي تضمينها.

والضمان حسب ما شرحناه من شروط، بحيث تكون للفلاح الحرية الكاملة في الحقل مدة الضمان، الذي يتضمنه العقد حسب البنود المتفق عليها : بينه، وبين مالك الحقل.

فيقيم على أرض ذلك الحقل كوخاً له منْ سعف النخيل يأوي له الفلاح، وعائلته في لهيب الصيف، وقارة البرد، كما أن النخيل تعطيه دِفْئاً في فصل الشتاء، وتقيه لهيب الصيف، وتدر عليه من ثمارها، وما يزرعه في تلك الأرض، وتنبته فهي صنعة يعيش منها، ومن جهده ودمه الذي يبذله، ويسقي به النخل والأرض.



هنا صورتين لروضتين غنائتين واحدة في قرية القديح بالقطيف ،
وأخرى تقرب من ضواحي القطيف



كما إنه يربي الأبقار، والدجاج في ذلك الحقل حيث يقسم النخل إلى أقسام: بيت له، ومحل خاص بالبقر، ومحل للدجاج يعرف في لهجة الفلاحين العامة «مربط البقر»، و«مرجن الدجاج»، - أي حظيرة البقر، وحظيرة الدجاج.

وكان بين الفلاحين تنافس، وتسابق على هذه النخيل في الضمان، فأقل الضمان عامان، وما زاد على ذلك يتفق عليه المالك والفلاح.

وسقي هذه الحقول من عيون السيح المقسمة على شكل نظامي وهندسي في توزيع السقي، ودقته الذي يُحيرك، ويلفتُ فكرك هذا التوزيع الدقيق، كما يعجبك بناؤها الهندسي حيث تتسع في أفقها العالي، وتضيق كلما تنزل إلى قعرها.

وتشاهد بها دكة تدور دائرتها، وبعضها لها ثلاث دكك كل منهم تعلو الثانية وتسمى - باللهجة الشعبية -: «الجرف»، وهذه الدكك يجلس على أعلاها المستحمون ليأخذوا راحتهم، وهي كنقطة دائرية تدور على مساحة العين كاملة.

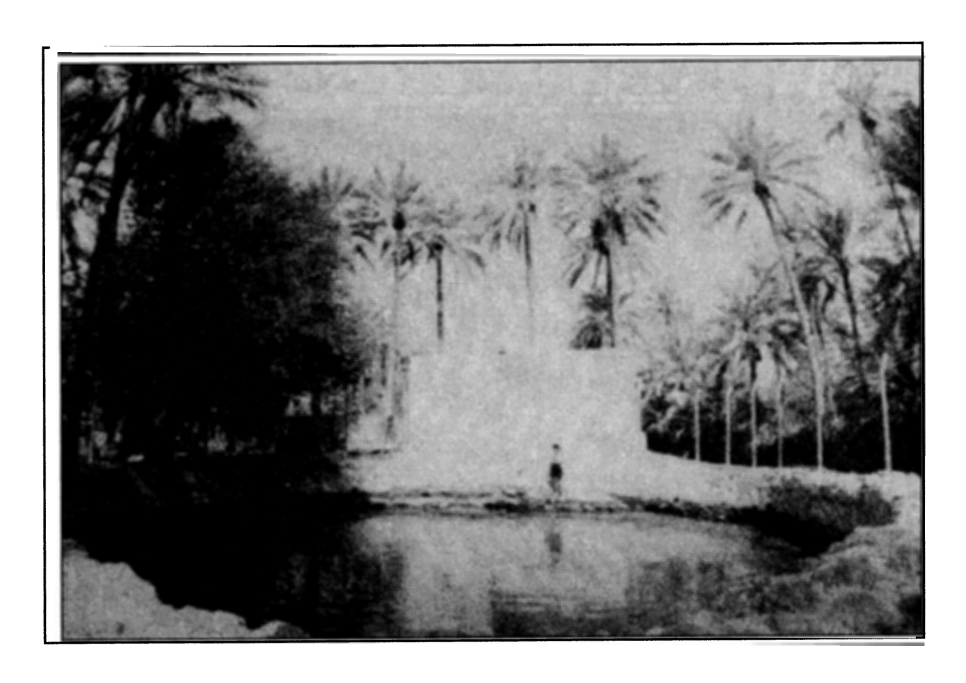
وهذه العيون كثيرة في القطيف وقراها:

قسم منها يسمى: «عيون مدنية»؛ لأنها تقع في المدن، أو في مشارف قرى القطيف، وبين نخيلها.

وقسم منها يسمى: «عيون بريّة»، وهي الّتي تقع في وسط الرمال، تغطيها طبقات من الرمل، وليس ظاهرة منها إلا مجاريها الّتي تسقي النخيل ولها تيارات قوية تنساب في مجاريها الّتي تُسمى - باللهجة العامية القطيفية -: «سيبان» - ومفردها ساب - لإنسياب الماء فيها، وهذا أصدق تعبير في التسمية، كما أن لفظة «ساب» كلمة عربية.



منظران يصوران عينين من عيون المدنية بالقطيف



وسميت هذه العيون: «عيون السيح»؛ لأنها تسيح - أي تسير من بعيد في جداول منظمة - حتى تروي الحقول والبساتين - فهي كسائح في الأرض.

فكان لها الدور في انتعاش الزراعة، واخضرارها حتى أصبحت القطيف واحة خضراء على ضفاف الخليج، بحيثُ لا ترى بُقعةً جرداء في أرضها، إذ لا تقع عينُك إلا على عرائس خضراء، وأشجار زاهرة، ومياه متدفقة.

وزادها جمالاً موقعها الإستراتيجي، حيث مكنها من تصدير زراعتها، فالسلوق إلى شواطئ الهند، والتمور- بعد تجفيفها في البيادر، وتعبئتها في ظروف مصنوعة من خوص النخيل -، والبطيخ، والليمون، وشرائح من الحوامض، وشرائح من الخضار، والبصل، إلى ما يماثلها من الفواكه والخضار مما تنتجه هذه الأرض المباركة من غراس، وثمار إلى باقي أراضي الجزيرة: كنجد والغربية، والأقطار الخليجية: كالبحرين، والكويت، وقطر، وعمان، والإمارات: (كأبوظبي)، والشارقة، ودبي.

وفي ظرف من الظروف، وبالتحديد في أثناء الحرب العالمية الثانية، صدرت بعضاً من تمورها إلى مرفئ البصرة بالعراق.

فكانت أكثر طبقات القطيف، أو قل جميع قاطنيها إلا ما قل، تعيش على نخيلها، وزراعاتها، وطبقةٌ كثيرةٌ منها تعيش على الحُرف أي الصناعات الّتي أشرنا لها، وشريحة أخرى تعيش على الغوص.

والغوص: هو الغطس في البحر لاصطياد اللؤلؤ، وهو صناعة من الصناعات العملية البحرية الشاقة، لما بها من مشاق، وأخطار

يكتنفُ اصطياد اللؤلؤ من أعماق البحر ، ولعل هذه الصناعة تختص بها ضفاف الخليج .

والغوص له قوانين ، وأنظمة تحكم أفراده ، وتنظم العلاقة بين ربان السفينة ، وبين العاملين فيها ، ولابد أن تكون السفن المعدودة لهذه الصناعة من السفن الكبيرة الّتي تتحمل ضغط الموج وأهواله ، عندما تكون في أعماق البحر ، وهذه السفن تصنعها يدٌ خليجية .

وقد يكون مالك السفينة هو الممول ، لمؤنتها ، وتزويدها بالنفقات لإقلاعها لاصطياد اللؤلؤ ، وقد يزودها شخص خارج عن ملكيتها ليشترك مع الجميع فيما يصطادونه من لؤلؤ ، ويتحصلون عليه من أعماق البحر .

ويتألف طاقمُ السفينة من : الربان ، ومساعده ، وبحارة ، وحارسين ، ويسمى الربان - في لهجة الغوص - : «النوخذة» ، والبحارة : «الجزوة» ، والحارسان : «القعيدان» .

والقعيدان مهمتهما أن يحرسا السفينة بالتناوب عندما ترسو السفن في شاطئ من الشواطئ ، لأن جميع الطاقم له الحرية في الذهاب ، والتنقل ، أما الحارسان فهما مقيدان بالحراسة التناوبية ، وليس لهما الحرية كما هي لبقية البحارة .

كما أن هناك أحكاماً للغوص ، ودساتير له في البر ، والبحر ، فهناك نوخذاء في البر له أحكام ينفذها على نوخذاء البحر ، وبحارته في البر : كأخذ رخصة السفر للإبحار ، وتوزيع ما يتحصلوه بعد بيع اللؤلؤ ، وإستلامه للثمن ، وتقسيم ذلك الثمن للربانيين ربان البر ، وربان البحر ، ثم يأتي دور البحارة .

وهنا تُميّز طبقة الغيص على السيب، كما هناك حق على ربان البر، وهو قرض البحارة، ليعيشوا بها مدة الشتاء، لأن موسم الغوص يبدأ في فصل الصيف، ويسمى هذه القرض: «السقام» لأنه يسترجعه من أفراد البحارة، وكأنما هو سقم - أي مرض -، وهذا تعبير دقيق.

كما أن هناك القلاطة: وهو الربح يوزع توزيعاً غير عادل، فلنوخذاء البر مبلغ أكثر من نوخذاء البحر وطاقمه، بعد أن يخصم ما صرفه من تكلفة على السفينة، حيث له حصة الأسد، ثم يأخذ نوخذاء البحر حصة الأسد الثانية، ثم يأتي بعده طبقة الغواصين، فيأخذون الحصة الثالثة، ويأتي بعدها السيوب، ولهم الحصة الرابعة.

ولنوخذاء البحر أحكام، يجريها على متن سفينته في البحر بدون معارض، فعندما تبحر السفينة لا ترسو، ولا تبحر إلا بأمر منه، وكذلك لا يبدأ عمل الغوص - أي الغطس في البحر- إلا بأمر منه.

فعندما تبحر السفينة، وتصل إلى أعماق البحر الذي في أعماقه شجر المرجان، يأمر نوخذاء البحر بإلقاء المراسي، وتسمى - بلهجة البحارة العامية -: «الباورة»، والمرسى هذه قطع من حديد ثقيل يشد بها حبل قوي متين، أو حبلان.

وهذه المراسي يجتمع عليه شريحة من البحارة، لإلقائها في البحر وسحبها منه عندما تريد السفينة الإقلاع إلى السير، ومادامت المراسي ملقاة في البحر فالسفينة تثبت فوق الموج، وتتحرك في ذلك البحر في دائرة مراسيها ذهاباً وإياباً، فهي في دائرة

محدودة الدوران مالم يحدث خلاف الطبيعة بحيث تقع عاصفة جوية، أو بحرية تُسبب للسفينة أهوالاً، فتقطع الحبل من المراسي، وتظل السفينة تائهة في عواصف أمواج البحر.

وعندما يريد الربان إيقاف السفينة عن مخرها في العباب، يصدر أمره بطيّ القلاع، وإلقاء المراسي - أي إنزال الشراع من فوق الدقل.

والدقل - في لهجة أهل البحر، والغوص: هي حطبة منحوتة بطريقة فنية تكون في وسط السفينة تُرفعُ عليها القلوع، والقلوع أيضا توضع فيها حطبة يُلبسُ فيها الشراع، وله من أطرافه، ووسطه أحبلة كثر تجتمع عليه ثلة من البحارة لرفعه في آخر قمة الدقل، ويسمونه - بلهجة البحر: «فرمل»؛ أما رفع الشراع إلى أعلى الدقل فيسمى: «خطفه»، أي إذا أمر ربان السفينة بالإقلاع والسير قال لهم: «هيّا اخطفوا»، وإذا أراد أن يرسو قال لهم: «إرخوا الشراع، وألقوا الباورة» وهي المراسي.

وعندما تُلقي السفينة مراسيها، يبدأ عمل الغوص في رأد الضحى لصيد اللؤلؤ، ويختارون هذا الوقت لإشراق الشمس فيه حتى تمكنهم من الغطس في البحر والصيد.

وللسلطة الّتي يتمتع بها رب السفينة، وقوة نفوذه في البحر، لو أصدر أوامره بإلقاء شخص من على متن السفينة إلى أعماق البحر، لاستجابوا له ونفذوا أوامرهُ، ولو كان فيه إزهاق روح.

و كل سفينة تتألف من طاقم وهم: النوخذة، ومساعده، والجزوة، والحارسان، وهم بحارة السفينة ومنهم الغواصون، والسيوب.

فالغواص: هو الذي ينزل إلى أعماق البحر ليبحث عن المحار، أي الصدف الذي في باطنه اللؤلؤ.

أما كيفية نزوله إلى أعماق البحر، فيشد حبل في صخرة صلبة توضع في رجل الغواص، ويوضع في صدره محفظة يشدها إلى ظهره ليضع فيها المحار عندما يقطعه، ويسمى - بلهجة الغوص -: «هِميان».

وهذا الحجر يساعده على سرعة الغطس، وعندما ينزل في العمق يفك الحبل من رجله، ويمسكه بيده.

وبعد أن يكد الغواص تحت أمواج البحر الجهد والتعب يضيق نفسه - معرضاً نفسه إلى الحيتان المفترسة التي تعتدي على الرجال فيأكلون من أجسامهم - يعطى إشارة بالحبل الذي في يديه، حيث يهزه هزات عديدة عنيفة تحمل هذه الهزات إشارة لاسلكية يعرفها السيب.

والسيب قد يكون أكثر من اثنين أوثلاثة وهم على ظهر السفينة، كلٌ منهم مكلف بمراقبة الغواص الذي في عهدته، ومسؤول عنه.

فبمجرد أن يعطيهم إشارة يسحبونه من عمق البحر، وهو يساعدهم حتى يخرجونه فوق ظهر موج البحر إلى جانب السفينة، ويأخذونه إلى متنها.

ويقدم الغواص لهم ما في «الهميان» من محار، فيتولى آخرون شق المحار، وفتحه أمام ربان السفينة.

فيفتحون عذارى المحار فيجدون به ما يسمر عيونهم من بريق لمعان للؤلؤ صافي كصفاء الضوء، يلوح كأشعة الشمس في باطنها،

ويستخرجون هذا الكنز الثمين وهو يُقَيم بمراتب ثلاث، أعلى، وأوسط، وأدنى؛ وبعد الفتح يسلمون ما أفاض الله عليهم من نعمة إلى ربان السفينة، فيحفظه حتى يبيعونه على تجار اللؤلؤ.

وتجار اللؤلؤ لهم سفن من طراز خاص، لها مميزات خاصة، وشعارات تعرف بها تلك السفن الّتي يعومون بها في أعماق البحر، وبمجرد أن تقع أعينهم على هذه السفن الكبار الّتي تغوص، يسرعون لها، ويلتحمون بها ليبتاعوا منها ما راق لهم بعد أن يماكسونهم في الشراء.

ويعرف هؤلاء التجار في لهجة لغة الغوص «بالطواويش» وهي مأخوذة من أنَّه يطوش، أي لا يستقر، أو من طاش القدر إذا غلى ماؤه فهو غير مستقر.

أما كلمة سيب: وهو الذي لا يعرف الغطس والعوم في أعماق البحر، ويظلُ على متن السفينة ليخرج الغواص من أعماق البحر؛ فالسيبُ لغة هو الذي يسيب الرجل أي يسحبه سحباً كالاغتصاب، فسمي باسم عمله، لأنه يسيب الغواص من أعماق البحر، أي يسحبه بسرعة كالبرق، فهو سيب.

وجاء تفسير السيب في كتب معاجم اللغة ساب الرجل إذا أسرع، فتكون هذه التسمية صحيحة، ودقيقة بالنسبة للعمل البحري.

وتكملة لعمل الغوص، ولغته، فالغوص كان مائدة دسمة تعيش عليها شريحة كبيرة من سكان القطيف.

ويحلو لنا أن نتحدث عن المتاع، والفراش الذي يحمله البحار في رحلته البحرية على متن السفينة، فهو يحمل معه حصيراً مصنوعاً

من خوص النخيل ، وفيه لحاف بسيط من القطن ، و«مزود» - سمي بهذا الإسم لأنه يوضع فيه الزاد - وهومصنوع من خوص النخيل يضع فيه تميرات ، وبعض كسيرات الخبز .

أما الإدام فكان صحياً طرياً لأنهم يستخرجون الأسماك من البحر ، ويأكلونها بغير تصبير ، فهي محتفظة بعناصر التغذية ولذة الأكل مع التميرات والخبز ، وهذه الأسماك الطرية هي الّتي تعطيهم الغذاء الكافي مع العمل الشاق .

كما أن لهم وجبة واحدة تقدم لهم عند غروب الشمس ، حيث تتألف هذه الوجبة : من الرز ، والسمك ، والتمر ؛ وفي بعض الأيام تكون لهم طبخة من الطبخات النادرة العزيزة في موائد البحر ، حيث يضاف إلى الأرز مع السمك عصير التمر - وهو المعروف بالدبس - وتسمى هذه الطبخة : «المحمر» ، أو «البرنجوش» ، فهذه ألذ أكلة بحرية .

فهم يعيشون حياة طبيعية بدائية تحت أشعة الشمس ، وأضواء القمر ، والرياح ، وأمواج البحر ، حيث يمكثون في رحلتهم البحرية مدة طويلة لا تقل عن خمسة عشر يوماً ، ولا تزيد عن شهر ، وتسمى هذه الرحلة باللهجة البحرية : «مطراش» .

وبعدها يؤوبون إلى أوطانهم ، ليقضوا أياماً معدودة لا تتجاوز الأسبوع ، ثم يكرون راجعين إلى رحلتهم البحرية ليواصلوا الغوص ، حتى يدخل فصل الخريف ، ويبرد الجو ، ويصير البحر لا يطاق جواً وماءً ، فموسم الغوص مدة الصيف لحرارة طقس الخليج ، ودفئ مياهه .

ونود أن نعطي صورةً عن الدبس الذي يتولد من عصير التمر : فقد كان لمالكي النخيل والفلاحين إسلوبان في طريقة إستخراجٍ هذا الدبس : فالمالكون يأخذون من بيوتهم من الدور الأرضي غرفةً أو داراً ليس فيها شبابيك أو فتحات ينفذ منها الضوء أو النسيم - حتى إذا دخلتها وأخرجت يدك لا تكاد تراها - ، ويمسحون جدرها بالجص العربي بحيث تكون جدرها مستقيمة على «القدة» ، و«بالمالج» - وهي أداة للبناء لها مقبض من خشب مصنوعةٌ من نوع خاص تُثقل الجدار حتى يكون ناعماً ، فلو وضعت كفك عليه لوجدته يشبه الرخام.

هذا بالنسبة إلى الجدر ، أما الأرض فتصب كلها ، ويوضع فيها قنوات تصب في وسط حفرة عميقة تسمى - باللهجة القطيفية - : «جابيه» ، - كأنها تَجبي كالجابي الذي يستوفي الضرائب - تأخذ الدبس الذي يصب فيها عن طريق القنوات.

وعندما يريدون وضع التمر ، يفرشون تلك الدار أو الغرفة المعدودة بشرائحٍ من جريد تُطوى ، وتُنشر تأخذ من سعف النخل ، تشدها أحبلة في وسطها وخلفها وأمامها ، وتتكون من عدة قطع يفرش بها الأرض المشار إليها ، وبعدها يأتي عمال لهم خبرة بهذا الفن وبرأسهم خبير ، ويسمون - باللهجة القطيفية - : «سداكين» مفردها سداك.

فيأخذون القلة المصنوعة من الخوص المعبأة بالتمر ، ويطئونها بأرجلهم حتى تصير ممتدة الطول ، فيقيمونها صفوفاً متراصة من أرض تلك الغرفة حتى سقفها في جهتيها : اليمنى ، واليسرى ، وفي وسطها التي تسمى : «السده» .

ويغطى سقف الحفرة العميقة التي تعرف : «الجابيه» بباب من الخشب يمد فوق سقفها ، ويفرش عليها خيش ، ويحكم أرتاجه ، ويوضع عليها أثقال حتى لا يتسرب بداخلها الفأر ويموت فيها ، فيفسد الدبس وينجسه بموته .

وهنا ينزل العصير من التمر إلى هذه الحفرة العميقة الساخنة ، وعندها كلما إمتلأت هذه الجابيه ، او الحفرة العميقة - المطلية بالجص العربي كالجدر المشار إليها - يأتي عمال بأبياب من التنك ، وينزحونها ، ويملأون هذه الأتناك .

وهكذا دواليك حتى يأتي الشتاء فتجف القلات عن عَرِقها ، ويتوقف نزول الدبس ، فيبيع المالكون هذه القلات على سماسرة تجار التمور ، وتسمى هذه الغرفة أو الدار : «كندود» .

أما الفلاحون فيقيمون في نخيلهم سياج من جريد النخل ، ويغطون سقفها ، ويوضعون داخلها قنوات تنساب أيضاً في حفرة عميقة ، ويضعون التمر بدون ظروف ، ويسمونها باللهجة الفلاحية القطيفية : «مسحة» ، كأنها تمسح التمر ، وتجففه من العرق .

وعندما يعود الصيف يغسلون هذا «الكندود» غسلاً هو مع ما يفرش عليه المسمى : «الجداين» التي أشرنا لها ، وهى الشرائح ، وينزفون مافي الجابية من ماء ، حتى إذا نظف الماء وعاد لا يحمل أي ميكروب أعيدت عملية صنع الدبس .

هذه صورةٌ تُعطي نبذة عن عمليــة إستخراج الدبس في عصرٍ مضى ، وانقضى ؛ وضّحنا فيها : كيف يستخرج الدبس ؟ ، وسجلناها لتعرفها الأجيال الآتية .

وبعد شرح عملية الدبس ، نعود إلى البحر ، واستخراج اللؤلؤ ، فقد أوضحنا أن دفئ الخليج ، والعوامل الطبيعية مكنت سكان الخليج من هذه الصنعة ، وهي اصطياد اللؤلؤ برغم المخاطر الّتي يتعرضون إليها ، والكوارث البحرية الّتي أودت بحياة كثرة كاثرة من الذين يمتهنون هذه الصنعة ، حيث تهب عليهم العواصف العاتية وهم في وسط البحر فيشرفون على الموت ، إلا من نجاه الله .

وقد مرّت على هؤلاء الممتهنين لهذه الصنعة كوارث عديدة لم يحتفظ بها التاريخ فتسجل في وثائق ، ولم نتحصل على أخبار مفصلة من الرواة - يرجع إليها الباحث - غير كارثة بحرية تحصلت على فصول أخبارها ، وهي من أضخم الكوارث الّتي وقعت في مواسم الغوص بالبحر .

وكان وقوعها في صيف عام أربعة وأربعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية أودت بسفن كثيرة مع بحارتها فأغرقتهم ، وابتلعهم الموج مع سفنهم ولم ينجُ منها إلا أفراد على ندرة وقلة بإرادة ربانية ، فقد لاقوا في لجج البحر أهوالاً ، وألواناً من شقاء ، ولاحت لهم أطياف الموت بين أعينهم .

وقد روى لي هذه الكارثة الشاعر أحمد سلمان الكوفي - المولود في عام أربعة وعشرين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام - ، وقد درس على يد الأستاذ ميرزا حسين البريكي اللغة العربية ، والأدب العربي ، ومكتبة أستاذه زودته بمعارفٍ إمتارها من تلك الكتب ، فكون له مجموعة من الشعر ؛ وأنا أخاطبه بهذا اللقب : «الشاعر المطبوع» ، وله ذوقٌ سليمٌ يزنُ به الأوزان الشعرية .

وقبل أن نسجل رواية هذا الشاعر عن هذه الكارثة، نرسم له ظلاً بسيطاً من حياته، فهذا الشاعر عاش فقيرًا يتسببُ من صنعة من الصناعات المحلية، وهذه الصنعة يمتهنُها أناس كُثر من ضمنهم أحمد سلمان الكوفي حيث يجمعون القروف الّتي تنبت في جذع النخلة، ومجموعة من ورود الشجر، كخدود العذارى، وثغور الغواني، فيأتي بها ويحضرُها ويضعها في عصارات فيعصر القروف والورد، كلٌ بأسلوب منفرد عن الثاني، فيجذب ما فيها من ماء ويصعدهُ في قوارير، فيبيعها ويعيش من عرق جبينه.

وهو قنوع زاهد، يتمتع بإيمان راسخ، وقد شارك بشعره في المناسبات الدينية، والوطنية، وبصفته شاعرًا حساسًّا صور لي ما اكتوى به من الكارثة البحرية الّتي شاهدها أمام عينيه وعاشها، ورواها لي مفصلة، وجسدها لي في منظر مروع كئيب حزين، حيث قال الشاعر:

هبت علينا عاصفةٌ عاتية، فثار الموج وطغى شموخاً عاليَ الأمتار، واربدّ الجو - وكان ذلك الوقت عصرا -، فسمعنا زمجرة الرياح والموج، وما أحدثاه من هزات عنيفة الزلزال، فدمرت السفن وأغرقت، وغامت الرؤيا حتى كدنا لا نرى شيئًا، ولم نشعر إلا ونحن في ثبج الموج يتقاذف بنا.

ومن آيات الله الحافظة لعبيده إذ كنا ونحن في موجٍ هادرٍ نعوم فيه بدون إرادة، نقبض على لوح من خشب بأكفنا قبضة حديدية، وهو يعوم بنا أربعة وعشرين ساعة وسط البحر، يتقاذف بنا الموج في ليل داجٍ، وريح عاتية لا نبصرُ حولنا شيئاً إلا أشباح الظلام.

وأرخت هذه الكارثة ب «سنة الطبعة» - باللهجة القطيفية - ، والطبعة لعل لها أصلاً في اللغة لأن لغة هذا الشعب لغة عربية صميمة ، لأنه عربي أصيل من أرومة عربية ، فالطبعة أخذت من هلاك الشيء - أي إذا فنى - كما أن السفن إذا طبعت ، هلكت وغرقت بسبب أمواجه ؛ لأنها لا تقاوم عسف موج هذا البحر الجبار ، عندما تثور أمواجه بالرياح العاتية ، تجد الأمواج مع الرياح ترتفع عشرات الأمتار ، فتبتلع كل ما ترتفع عليه من سفن أو بشر ، فتفنيها ، لكن الله إذا أراد شيئاً لا رادَ لإرادته .

ونرجع إلى حديث الشاعر أحمد سلمان الكوفي إلى هذه الكارثة فيضيف وهو يحدثني كما شاهدها مرأى وحساً ، واكتوى بآلامها ، ولعل هذه الكارثة أعطته زخماً من الإيمان الراسخ ، وزادته تعلقاً بخالق السموات والأرض ، حيث قال : إنه بقي مع نفرين متعلقين بلوح طويل يسمى : «الدستور» - باللهجة البحرية - ، قابضين عليه قرابة أربعة وعشرين ساعة تتقاذفهم عواصف الريح ، وعسف الموج الشامخ .

ويضيف الشاعر الكوفي : «وبينما نحن في غمرة هذه الكارثة ، فإذا بشخص يقترب من لوحنا ليعيش معنا ، يتشبث بالحياة - كما هم يتشبثون بها - ، فتعلق بهذا اللوح ، فاستقبلناه بترحيب حار ليعيش معنا ، غير أنه رفض العيش معنا بعد معرفته باختلافنا معه في بعض الفروع المذهبية ، ولم ينسه تحجرعقله أشباح المنايا الّتي تتراقص في كل أعضائنا ودمنا ، فانفكّ من قبضة هذا اللوح وتركنا وتحرك خطوة ، أو خطوتين ، فإذا بالأمواج تبتلعه على رؤية ومنظر منا .

أما أنا وزميلاي، فبقينا متمسكين باللوح - المشار إليه -، والموج يتقاذفنا، حتى أوشكت الشمس أن تلقي نظرتها الشفقية الأخيرة لتودع الحياة، فكأنها تشير بغروبها إلى غروب حياتنا، فنظر أحدُنا إلى حمرة الشفق المتلألأة في الأفق، والمنسكب عسجداً على أمواج البحر، فأشار للشمس بكفه قائلاً - ما معناه - : سلاماً عليك أيتها الشمس، ستغيبين وراء الأفق، أما نحن فسنغيب في هذا البحر العميق عندما يبتلعنا الموج.

وما كاد يكمل مقالته حتى حانت كلمات فرج من شخص ثاني : ماذا ترون من بعيد، هل هذا طير، أم قلاع، أم ماذا ؟!

... . وبعد وضوح الرؤيا، بانت الحقيقة الواقعية : هناك رجال على سفينة، جندوا أنفسهم لعمل خير، وخاطروا بها في سبيل المهالك، يبحثون عن الناجين من هذه الكارثة المدمرة، والذين يعومون على أمواج هذا البحر.

فهنا أورق لنا أمل الحياة الأخضر، ولم نصطبر حتى تصل لنا السفينة، ومضينا على جناح شوق، يحدونا حب الحياة، ففككنا قبضتنا الحديدية من لوح السلامة، وذهبنا نعوم، ونسبح في البحر عُراة كيوم ولدتنا أمُنا حتى وصلنا سفينة السلامة فألقوا لنا الحبال، وأخذونا فوق متن السفينة، ودثرونا، وأطعمونا من طعامهم.

ويضيف الشاعر : بعد نجاته، ووصوله إلى بيته بالقلعة حاضرة القطيف، رأى زوجه لبست ثياب الحداد لتعتد، ومثلها أمه في مأتم حزين.

وكانت القطيف من صفوى إلى سيهات كلها مأتم تفجع لليلها المبطن بفقد أحبابها في هذه الكارثة المفجعة، وكل من لم يصل يقرر

عليه أهله إنه أصبح من الغرقى، ودخل في خبر كان، إذ ليس هناك طائرات حتى ترصد

الأحياء، أو الطافين، وليس هناك بواخر تصمد أمام أجنحة العواصف العتية، فكل وسائل وأساليب الإنقاذ الحديثة لا توجد في ذلك العصر.

وهنا ننهي الرواية، والقصة الّتي رويناها عن الشاعر أحمد سلمان الكوفي الذي لا يزال على قيد الحياة - متعه الله طويلاً - ونتمنى له أن نرى ديوانه وقد تنسم الهواء الطلق.

وكارثة الطبعة أو الغرق أصبحت تاريخاً يؤرخُ بها أبناء القطيف بعض المواليد، أو الحوادث الّتي وقعت في ذلك العام، ولأمانة التاريخ أوضح أنني لم ألتزم بالحرفية الأبجدية عما رواه الشاعر أحمد الكوفي، إنما رويت مضمون كلامه، ومعناه أفرغته وصغته في كلمات تترجم ما يريد.

وقبل أن نغلق ملف الغوص، وقد تحدثنا أن موسم الغوص يقع في فصل الصيف، وفي بداية شهر الخريف ينتهي فصل الغوص، ويسمى باللهجة البحرية: «قِفّال»، أي انتهاء موسمه والإيقاف عن العمل البحري، ويبدأ موسم صغيرٌ بحريٌ في فصل الخريف - بداية الميزان - ، ولا تقلع السفن بكثرة كما هي في فصل الصيف، إنما هي سفن قليلة، وسمي هذا الموسم باللهجة البحرية: «الخانشية».

وما دمنا لم نزل نتحدث عن تاريخ القطيف، والكوارث الّتي مرت عليها، فلابد أن نشير إلى قصيدة كتبتها لأن من ضمن فصولها فصلاً يصور موسم الغوص، كما يصور القطيف،

وحاضرتها القلعة ببروجها الّتي تحتوي على قرابة تسعة بروج، وسورها، وسوابيطها يوم كانت القطيف تعيش بنخيلها، وبساتينها، ومياهها المتدفقة جداول تنساب وسط الحقول.

فقد وصفها الرحالة ابن بطوطة الذي إستغرق تجواله قرابة تسعة وعشرون عاما سجل هذا التجوال في كتابٍ أسماه (رحلة بن بطوطة) في القرن السابع في فترة زمنية ٧٠٤ - ٧٧٩ هـ، ١٣٠٤ - ١٣٧٧م، وأشار إلى هذه الزيارة في صفحة (٢٨٠) من كتابه التجوالي المطبوع بمطبعة دار بيروت للطباعة والنشر بتاريخ ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، فقال ما مضمونه: إنها بلدةٌ ذات نخيلٍ، وأنهارٍ، وجداول، وثمار، كما توجد بها رمال قد تغطي بعض القرى إلى أخر كلامه الحرفي الذي لم ننقله بلفظه وحرفه، إنما ترجمنا معناه بإقتضاب، وهذا الوصف يدل على الحضارة العريقة الممتدة للقطيف في جذور التاريخ السحيق ما قبل الإسلام بمئات السنين.

وقد روى لي من المتأخرين في هذا العصر المرحوم محمد بن صالح الفارس - المولود في العام الثامن عشر بعد الثلاثمائة والألف هجرية، كما ذكر أهله، والمتوفي في شهر محرم عام الثالث عشر بعد الأربعمائة والألف هجرية - حيث قال:

شهدت للقلعة بوابات أربع، والرابعة منها تقع في الجهة الشمالية، ولا يفصل بين سورها والبحر إلا شريط كالظل واقع شمال سورها الخارجي.

ولموقع البحر على هذا الشريط أخذ البدو، وقطاع الطرق، يكمنون وراء النخيل الّتي تقعُ شمال الشريط، وتسمى هذه

البساتين: «الشماسيات» - ومفردها شماسية - فإذا ما خيم الظلام تسللوا من هذا الشريط إلى داخل القلعة، فيسرقون، ويعيثون فساداً، ويهربون لما يمكّنهم هذا الموقع من الاختفاء.

فللعوامل الأمنية طُينت هذه البوابة لكونها ثغرة غير أمنية للعوامل الّتي أوضحناها، حيث لا يوجد شارع بين السور، والبحر.

وهذا التسلل الذي قام به قطاع الطرق، وقع في عصر الحكم التركي لأن حكمهم بدأ من واحد وسبعين بعد الثمانمائة والألف ميلادي إلى الثالث عشر بعد التسعمائة والألف ميلادي» .

وبعد تطيين هذه البوابة بقيت للقلعة بوابات ثلاث: بوابة في الجهة الغربية منها، وتسمى: «بوابة باب الشمال»، لأنها مطلة على محلة تسمى: «محلة الشمال»، وهي من ضواحي حاضرة القطيف، وكانت في السابق تسكنها شريحة من الفقراء من صيادي الأسماك، ومن الذين يمتهنون الغوص، وبيوتهم كلها أكواخ تتكون من سعف النخل، وجريده، وتغطي سماء أكواخهم بواري، وحصر تصنع من خوص النخل، وتسمى - باللهجة الشعبية - : «سميم» - مفردها «سمه» .

وفي الجهة الشرقية بوابة، وتسمى: «بوابة البحر»، لأنها منفذٌ للبحر، إذ لا يتجاوز عنها عشرة أمتار، أو أكثر، أو أقل، وعلى مقربة منها الدوائر الحكومية الرسمية: كجمرك القطيف، والمالية، وكاتب العدل، ومستودع التمور، وقصر الإمارة، ومستشفى القطيف.

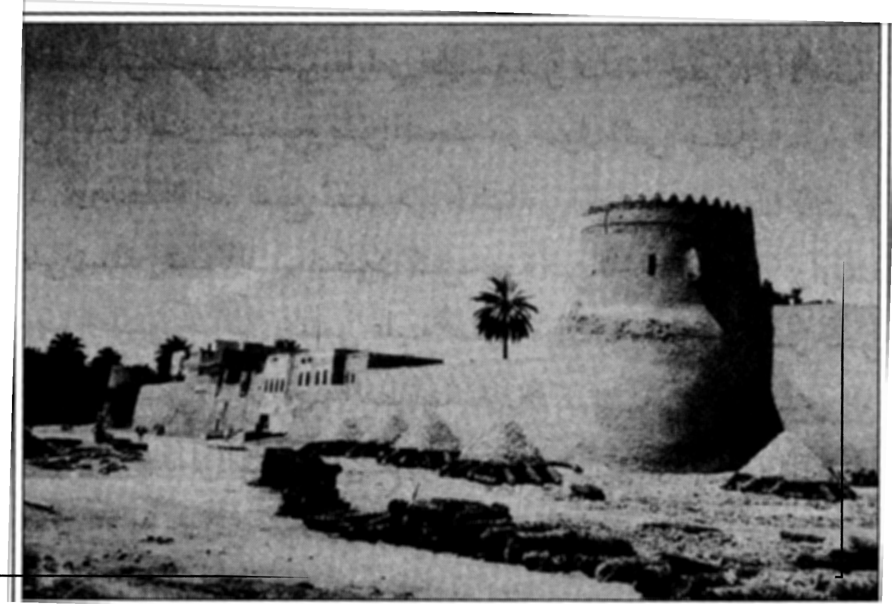
كما يوجد - سابقاً - شرق هذه البوابة مقاعد ملتصقة بالسورمن حجر بنيت بأيدي قطيفية من مادة الجص، والآجر، من الطين الذي يستخرج من البحر، ويحول إلى جص.

وهذه المقاعد تقع عند خروجك من البوابة، متجهًا للشرق على يمينك وشمالك، تتكون كل جهة من ثلاثة أدوار، أوأربعة ويها مجلس خاص يجلس عليه أمير القطيف مساء عصر كل يوم، وتسمى - باللهجة القطيفية -: «دكيك».

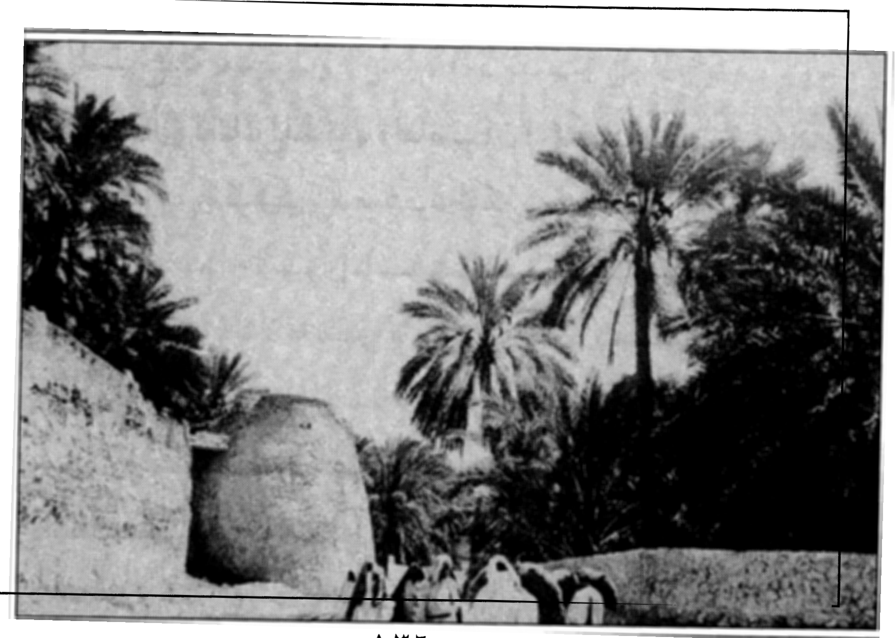
وإذا جلس الأمير امتنع الناس من المرور من هذه البوابة تقديراً، وآخرين خوفا منه، كما يستقبل على هذه المقاعد شخصيات القطيف للسلام عليه، وشريحة من الجمهور من الذين يأتون لرفع قضاياهم، وادعاءاتهم على الآخرين.

فالأمير - في ذلك الوقت - كان له الصلاحية المطلقة في الحكم من الملك عبد العزيز، فينظر في حاجاتهم، ويحيلها إلى الشرع.

وكان في ذلك الظرف القاضيان الخنيزيان فقط: الإمام أبو الحسن، والزعيم أبو عبد الكريم، حيث تولى الزعيم أبوعبدالكريم الخنيزي دسّت القضاء منذ عام الثالث والعشرين بعد الثلاثمائة والألف، أما الإمام أبو الحسن الخنيزي تولى دسّت القضاء منذ عودته من دراسته بالنجف في شهر رجب الأصب عام تسعة وعشرين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - وهذا التاريخ روايةٌ عن أبناء العم، والأخ أبي عبدالواحد الخنيزي.



منظرين يمثلان البوابة الغربية التي هى منفذها للشرق وتعرف ببوابة البحر مقابل الدرويشية قصر الإمارة، والثانية منظر يصور بعض الجوانب لسور القلعة من جهة الشرق



أما البوابة الثالثة فهي في الجهة الجنوبية منها ، وتسمّى : «بوابة السوق» ؛ لأنها مطلة على السوق ، ومدخل له مباشر .

وما دمنا قد دخلنا من هذه البوابة إلى السوق فيحسن بنا أن نعطي لمحة عن صورة سوق القطيف الرئيسة التاريخية القديمة ، الّتي ذهبت مع الأمس الدابر :

فكانت سوق القطيف هي السوق الرئيسة للقطيف ومدنها ، وقراها ، وهذه الأسواق تمتد من هذه البوابة شمالاً إلى الناحية الجنوبية ، وتنعطف إلى الجهة الغربية ، ويسمى القسم الذي يقع بالجهة الغربية منها : «سوق الحرية» ، الذي سمّي - اليوم - : «شارع الشاعر الشيخ جعفربن محمد الخطي» ، وهذه التسمية اقتراحٌ مني على بلدية القطيف ، اقترحته عام ثلاثة وتسعين بعد الثلاثمائة والألف هجري ، فأخذت به ، ونفذته إحياءً لذكرى الشاعر الشيخ جعفربن محمد الخطي .

وإن مِلت إلى الجهة الشرقية منها تمر بالجبلة سوق التمور ، والمقاهي ، وقد أعطينا لمحة عن الجبلة .

وتصوير سوق القطيف الرئيسية فهي كخط ممتد ، لايكاد أن يُحس بتعرجه لأنه تعرج كالضلع الهندسي .

وتقع الحوانيت على صفين متوازيين ، صف في الجهة الغربية ، وصف في الجهة الشرقية ، والحوانيت مبنية بالجص ، والآجر على أسلوب الطريقة القديمة .

أما أبوابها فقسم مصنوع بأيدي نجارين قطيفيين، ومن الخشب الذي تنتجه هذه الأرض الخيرة، والبعض مصنوع في الهند، وخشبها من السَيسم الهندي.

وسقف الحوانيت يغطى بجذوع النخل بحيث تقسم النخلة إلى عدة شرائح فينحت منها الجذوع على أسلوب فني، فتغطى منها سقوف البيوت، وسقوف الحوانيت بعد أن يوضع لها متكأ في جهتين أو ثلاث من الغرفة، أو الحانوت من جنسها من الجذوع تسمى: «السوالف» - مفردها سالفة -، ويوضع للسالفة في الجدر مُنحنى أيضاً، ولكنه منحنى صغير لا يتجاوز نصف المتر أو أقل يسمى - باللهجة القطيفية -: «كبشاً» تمد عليه السوالف، وبعد تغطيتها يصبُ فوقها الجص، والآجر.

أما خارج الحوانيت، وهي المعروفة بالشارع الذي يقع بين الصفتين، وتسمى - باللهجة القطيفية - «السكة».

وكلمة «السكة» عربية محضة، تنطبق على المسمى، فيغطى سقف هذا الشارع بين صفتيه، كما نرسمه في صورته المشاهدة، حيث يُمد من هذه الصفة إلى تلك على سماء كل دكان خشباً من الكندل، بحيث يحفر له على أعلى جدار كل دكان، وتُلحم بالجص.

فتلتقي هذه الأخشاب بأختها الّتي هي على الحانوت الثاني على شكل جملون مرتفع عن سقف الحوانيت بأمتار، ويغطى هذا السقف بعد إقامة الأخشاب ب «بواري» مصنوعة بأيدي قطيفية من خوص النخيل، وتسمى - باللهجة القطيفية -: «السميم»،

فتتصل هذه السوق من أولها إلى آخرها على هذا الأسلوب القديم.

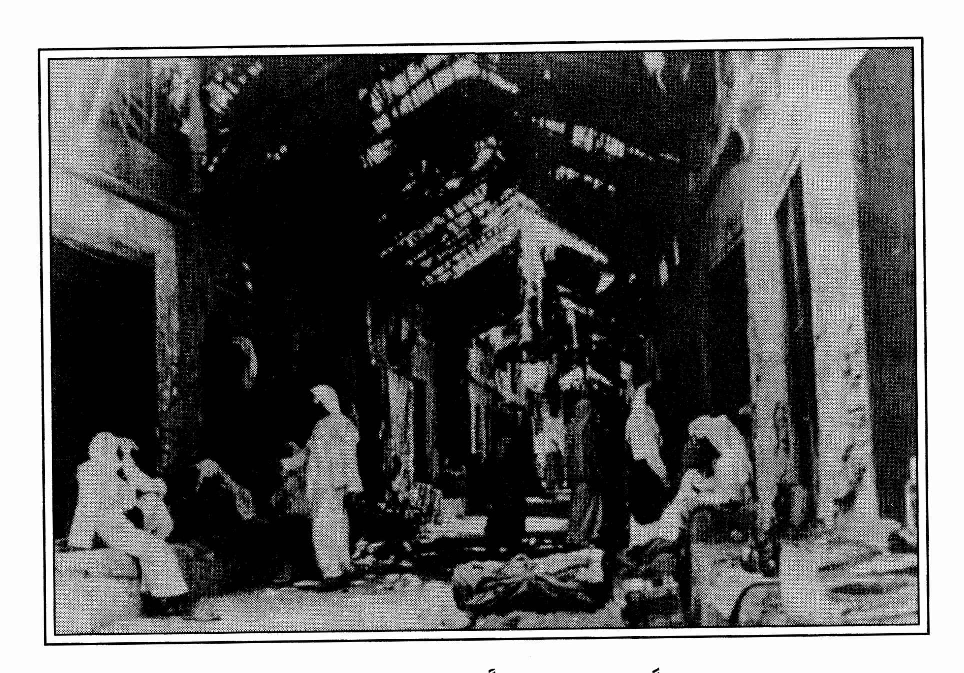
فإذا مررت بين صفتيها كأنك تعيش، وتسير في مجتمع واحد ربطتهم حياة اقتصادية، فكانت تمثل معلماً تاريخياً بعيداً في جذور التاريخ، ولم نعثر على تاريخ يُشير إلى تاريخ تأسيس هذه السوق.

وعندما قررت بلدية القطيف إزالة هذا المعلم، انتدبت الوزارة أحد المهندسين، وعندما وقف على طبيعة هذا المعلم قرر إبقاءه للتاريخ والذكرى.

غير أن رئيس البلدية حسن صالح الجشي - وهو أحد الشخصيات الوطنية للقطيف، ومفكريها في التخطيط، والتنظيم، المولود عام خمسة وثلاثين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، وهذا التاريخ رواية عن بعض أهله، والمتوفى في الثامن من شهر الحج عام واحد وتسعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - أقنع هذا المندوب أن يتراجع عن رأيه، ويقرر إزالة هذا المعلم - كما رواه لي رئيس البلدية حسن الجشي.

وقد نُفّذ إزالة هذا المعلم على مرحلتين، المرحلة الأولي: عام أربعة وثمانين بعد الثلاثمائة والألف، والأخرى عام خمسة وثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية.

وعندما روى لي رئيس البلدية رأيه التغلبي على المندوب، ورأي المهندس في عدم إزالة سوق القطيف الرئيسية، وحين ذاك قبل أن تقع الإزالة أعطيته رأيي بعدم صحة رأيه، وأن رأي مندوب الوزارة هو الرأي الصحيح الواقعي.



صورةً تعطي منظراً لهذه السوق الرئيسية

وقبل أن نختم هذه الرؤيا عـن هـذه السوق التاريخيـة ، روى لـي المرحوم العلامة الشيخ محمد صالح المبارك : كان أهالي مدن القطيـف وقراها ، وحتى مدينة صفوى التي تقع في الجهـة الشـمالية - وكـانت المواصلات شاقة لأنها على ظهورالحمـير- إذا احتـاجوا حتـى إلـى مثقال من العقاقير ك «الحلتيـت» ، و«مـاء الزموتـة» - التـي تعطـى للأطفـال الرضـع - ، يمتطـي الشـخص حمارتـه ، ويـأتي إلـى سـوق القطيف ولو كان وسط لهيب ظهيرة الصيف ، أو قارة الشتاء .

هذه صورة في حرف يرسم المعلم لأجيالنا الحاضرة والآتية الّتي لم ترَ لهيكله صورة مجسدة ، إلا في الرسم الشمسي .

وتسمى البوابات باللهجة القطيفية : «دراويز» ، فهذه لغة غـير عربية ، ولعلها لامتزاج العرب بغير العرب تولدت عندهـم كلمـات أجنبية ، وكلمة الدراويز من ضمن ما تولد ، وهي مأخوذة من اللغة الفارسية .

وهذه الدراويز - أي الأبواب - كلها مصفحة بالحديد ، ولها مغـالق داخليـة ، تغلـق في الليـل في السـاعة الثالثـة ، أو الرابعـة بـالتوقيت الغروبـي ، أي مـا يقـارب السـاعة العاشـرة بـالتوقيت الزوالي ، ولا تفتح أبوابها إلا صباحاً ، ويحوطها بنـاء قـائم علـى جانبيها ، ومدخلها وهو يتكون من : دوريـن سـفلي ، وعلـوي ، وفي الـدور العلـوي يسـكن الحـراس الموكلـون بفتـح هـذه الأبـواب ، وإغلاقها ، وفي الطابق السفلي منها يوجد غرفة أو غرفتين مقاربتين للبوابة ، يتخذ منها الحارس مجلساً يزار ، وبعض الحـراس يتخـذون بعض الحرف كعمل الأحذية ، فيبيعونها على المواطنين .

ومن الذين يعملون صناعة الأحذية حارس بوابة باب الشمال، المدخل الغربي يسمى: سعود بن سعدون.

وكان المدخل لهذه البوابات مصمماً، ومنحوتاً من صخر صلد كبناء السور الذي يحيط حاضرة القطيف القلعة، حيث يحيط بها السور كالسوار بالمعصم، ويتألف من عدة بروج قد يزيد على تسعة بروج، وللسور جسر من داخله يدور بإزائه من أوله إلى آخره مثل الزوايا الهندسية يجلس عليه الحراس للحراسة، وتجول فوقه الفرسان على خيولهم، وفيه منافذ صغيرة يبصرون منها من كان خارج القلعة، ويسددون منها أسلحتهم عندما تحدق بهم الأخطار، فيرمون منها الرصاص، وهي منحرفة بشكل هندسي.

كما أن للأبراج قواعد تُركّب فيها المدافع، وينطلقُ مرماها إلى أمتار تبتعد إلى خارج سور حاضرة القطيف عندما يهاجم العدو حصن القلعة، ولذلك سميت بالحصن، أو القلعة فهو أسم على مسمى.

وهناك قسمٌ هو من القلعة ومنفصلٌ عنها، ويقال استعمل أيام الأتراك ثكنة عسكرية لأنه ذو بروج أربعة، ومطلٍ على البحر في الجهة الشرقية والشمالية، وقد شهدتُ السفن التي تقلع الحجر من البحر لتبيعه على أرباب الذين يبنون بيوتهم أو يرممونها، ترسو بقرابة هذا المبنى على ضفاف البحر حيث لا تبتعد عن بوابته الشرقية، وضفة البحر غير بعض الأمتار، وكذلك في الجهة الشمالية كانت المساحة بينه وبين ضفة البحر لا تزيد عن متربن، وقد امتد هذا المنظر على طبيعته إلى ما بعد الثمانينات والثلاثمائة والألف هجري، يسمى هذا القسم ب (الكوت) له بوابتان، بوابة في جهة الشرق لمدخله، وبوابة

في جهته الجنوبية متصلة بالقلعة، فهو داخل في القلعة جزء منها، ومستقل عنها بسور بجهاته الأربع، وفي عهد حكومتنا الجليلة تحول إلى مقر لدائرة البرق والبريد، وبه سكنى للموظفين، وكان رئيس البرق والبريد يعيش في مبانيه، وعندما تغلق الحراس أبواب القلعة لجأ بعض الشخصيات لرئيس البرق والبريد فيفتح لهم البوابة، ويدخلهم إلى القلعة، ورواية الفتح لهذه البوابة رواها لي الأستاذ الخطيب الفاضل ميرزا حسين البريكي، والأستاذ السيد علي السيد باقر العوامي حيث مرت عليهما هذه المواجهة مراراً فيفتح لهما البوابة، ولا يزال الكوت مقراً للهاتف الآلي بعد أن هدم، وبني بإسلوب حديث، واقتطع منه مساحة للمدرسة، والشوارع فأصبح لا يمثل هيكله القديم.

أما البوابة الشمالية التي ذكرها الفارس، فإنها طينت ولم نشاهدها على الطبيعة سوى الرواية الخبرية التي حكيناها.

ومحمد بن صالح الفارس - الراوي للمعلم التاريخي، وتطيينه بمثل ما بني به السور بحيث لم تشعر بأن هناك فتحة سُدّت – هو أحد شخصيات القطيف، وتقلب في مناصب الدولة، وآخر منصب له رئاسة بلدية القطيف، ومنها خرج للتقاعد.

وكان الفارس ولعاً بجمع الآثار القديمة، فاجتمعت لديه مجموعة من النقود التاريخية الإسلامية، وغيرها، وآثار مصنوعة من الفخار، وتحف من شرائح مختلفة، وطرازات متعددة تمثل أساليب العصور الّتي مرت بها، كما جمع مجموعة من الآثار النقدية في مختلف العصور وعليها صور حكامها، حتى تَكَونَ في بيته متحفٌ لا يستهان به، غير أنه انتهى بانتهاء حياته.

وقد تلاشت هذه المعالم الحضارية لقلعة القطيف، واندثرت، وهذا الاندثار امتدت يده إلى الأبواب الرئيسية لحاضرة القلعة، في عام السبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام.

كما امتدت يدُ الزمن للسور عام الثالث والسبعين بعد الثلاثمائة والألف، عندما أبرمت الدولة مع أحد المقاولين يُدعى «النقادي» مشروعاً حيوياً، هو مد جسر بحري يربط جزيرة تاروت، وبقية قُراها كدارين، والسنابس، والزور بحاضرة القطيف.

فتفاهم هذا المقاول مع بلدية القطيف، فأخذ يهدم في هذا السور الضخم ليغطي بصخره البحر، ويخفف عليه التكلفة، إلا أنه لم ينجح في مشروعه، وتعطل وسحبت الدولة منه المشروع إلى مقاول آخر، فقام بالمشروع وأكمله.

وأخذ هذا السور التاريخي يتهاوى بعد أن أزيل من تصميمه ما أُزيل، وألقي به في البحر، أما البقية منه اندثر في مشروع إزالة القلعة الّتي قامت بقطعها بلدية القطيف، الّتي مضى على تمصيرها ألف ومائتين وستة عشر عاماً حيث كان تاريخ التمصير يؤرخ ب «حجره» - أي عام مائتين وستة عشر هجري، وتسويرها بتاريخ تسعة وثلاثين بعد الألف كما وجدته في الجزء السابع ص ١٢٣ في كتاب «الأزهار الأرجية في الآثار الفرجية» للعلامة الشيخ فرج العمران، وأشرنا إلى إزالة وقطع بيوت القلعة وما تبقى من سورها في الصفحات السابقة.

فلو بُعث الموتى من قبورهم الذين مضى على موتهم خمسة وعشرون عاماً، لما عرفوا معلماً من معالم القطيف الماضية الّتي

شاهدوها ، فضلاً عن القلعة حاضرتها لأن حاضرتها لم يبقَ منها إلا شريط يمتد على جهة الغرب ، وبعض من الشمال ، وبعض من الجنوب ، وظلٌ باهتٌ في الجهة الشرقية .

وما بقيت إلا الضلوع الجراشع ، وقد توسعت القطيف ، ومدنها ، وقراها قبل إزالة القلعة ، غير أنه بعد إزالتها عن طريق بلدية القطيف اتسعت بصورة ضخمة هائلة ، فامتدت الحركة العمرانية حول حاضرتها ، فتوسعت على حساب البحر ، والنخيل ، فأقيمت البيوت بعد قطع بيوت القلعة ، ودفن البحر مئات بل آلاف الأمتار في نواحيها الشمالية ، والشرقية .

أما الجهة الجنوبية ، والغربية فتوسعت على حساب النخيل ، وبكلمة مختصرة لقد تحركت الحركة العمرانية ، ومدت ذراعيها في جميع النواحي على هذه الأرض ، وتغير كل شيء .

وعلى ضوء هذه الحركة الاقتصادية العمرانية ماتت كثير من الصناعات ، ومن ضمنها صناعة الغوص للعوامل الّتي أشرنا لها ، ولتكاثر اللؤلؤ الصناعي الذي أنتجته الدول الصناعية كاليابان بثمن زهيد أفسد سعر اللؤلؤ الطبيعي الذي كان يزهو بصدور الفاتنات ، واستعاضت عنه باللؤلؤ الصناعي ، فأخذت صناعة اللؤلؤ في الخليج تكسد ، ولا يغطي الغوص تكاليف ما يصرف عليه بما في الرحلة من عناصر تعبٍ وشقاء .





الزراعة

لقد تجمعت عَوَامِلُ كثر، فقضت على الحياة الزراعية بالقطيف - الواحة الخضراء على ضفاف الخليج - منها :

العامل الأول : - المخططات العمرانية الّتي قام بها تجار الأراضي مفضلين مصلحتهم المادية الوقتية على مصلحة الوطن الدائمة البعيدة، فشرههم المادي هو الذي حول الحقول، وإزالة مئات النخيل في القرى، والمدن، فضلاً عن النخيل الّتي داخل حاضرة القطيف القلعة في جهتها الجنوبية والشرقية، - وكانت تُعرف ب «الدوالي» - ، والمحيطة بها الّتي تقع خارج السور، تحولت إلى قصور، وشوارع.

ولم تُراعِ المخططات العمرانية مجاري السقي والصرف، فدُمرت مجاري السقي والصرف للبساتين والنخيل، الّتي كانت تُسقى، وتُصرف على طرق فنية، حيث تمر من أقصى مكان في الغرب - من العيون البرية - السيح - ، ومن العيون المدنية - تنساب في جداولها بمائها الصافي الرقراق، بأغانيها العذبة، من وسط بيوت القرى، ومن حوانيت السوق الرئيسة للقطيف الّتي كانت على أبواب حاضرة القطيف القلعة تنساب مياهها من بين بيوتها إلى

البحر فلا تتأثر تلك البيوت، أو الحوانيت بتلك المجاري لأن التصريف كان فنياً ينساب بدون أن يترك آثاراً وأضراراً من الطبع أو غيره لمرور الماء.

ومن أجل تدمير مجاري السقي والتصريف سرى العطش في الحقول، فعادت النخيل أشلاء يابسة، وتحولت إلى أرض يباب لا ترى فيها إلا الشوك، والحشائش بدلاً من الورد، والتّين، واللوز، والتفاح، والفواكه، والرطب الجني.

وكانت هذه الأرض طيبة تنتج الأرز، والبصل، والحنطة، إلى ما يماثل هذه الألوان من هذه الأطعمة من الإنتاج الزراعي، فتزود الخليج، وشواطئ الهند.

كما يُزرع البرسيم - «القت» باللهجة الشعبية - والحشائش مما تأكله الماشية، وهذه الزراعة انقرضت لأن وسائل المواصلات تحولت عن الخيول والحمير إلى السيارات، وكذلك الثروة الحيوانية قلت تربيتها كتربية البقر، والدجاج البلدي، أما الخيل فلا تكاد أن تراها إلا قليلاً.

ويأسفنا أن المهندسين الجدد الذين يحملون الشهادة الجامعية، لم يصل تخطيطهم إلى التخطيط الذي وصل له القدامى الذين وضعوا هندستهم، ومرت مخططاتهم، ومجاريهم من وسط البيوت، والحوانيت بدون أن تتأثر البيوت، ولم تتضرر النخيل.

ولا أريدُ بهذه الجملة تقديس الماضي، وذم الحاضر، إنما سُقتها حقيقة قضية برهانها معها، ومن له إلمامة وهو في العقد الرابع أو الخامس من عمره أدرك هذه الحقيقة.

العامل الثاني : ما قام به بعض المواطنين من حاجة ملحة للسكنى ، ساعد تجار الأراضي في تهافتهم على شراء هذه المخططات من النخيل ، وقد يكون لهم عذر لضيق رقعة قراهم ، وهم لا يرغبون الإبتعاد عنها .

العامل الثالث : هو عدم وجود اليد العاملة للزراعة .

العامل الرابع : هو صناعة البترول ومشتقاته ، فأثرت هذه العوامل - أي البترول ومشتقاته كالغاز وغيره - على الزراعة ، والنخل ، وجميع محصولات ما تنتجه الأرض .

وقبل وجود صناعة البترول ، لم تعرف هذه الآفات الجوية ، أو الكوارث الزراعية ، إلا ما يأتي منها على ندرة لعدم تلوث الجو بمكروبات ما يتصاعد من دخان الغاز وما يماثله .

وقد بدأ الإتفاق على التنقيب عن البترول في هذه الربوع في تاريخ ٤ صفر عام ١٣٥٢ هـ ، الموافق ٢٩ مايو ١٩٣٣م ، عندما وقعت الحكومة العربية السعودية ، وشركة ستاندرد أويل أف كاليفورنيا (سوكال) اتفاقية الامتياز الأساسية .

فأحدثت هذه الصناعة تلوث بالجو ، فأنشأت سُحُباً دكناء تغطي السماء ، فلم نعد نتمتع بالرؤيا الواضحة لهذه الكواكب ، ولا بهذا الجو السحري عندما يهب النسيم العليل فيداعب عرائس الأشجار فينقل لك أريجها فيعطر الجو بالشذا الفواح ، فيترائى لك الليل بقبته الخضراء الصافية ، ولمعان الكواكب في محيطها البديع كأنها غواني عليها قلائد من العقيان ، وأضواء القمر الفضية الّتي تنساب كاللجين فوق عرائس الأشجار والنخيل ، وتستحم في هذه

الجداول الرقراقة الصافية، كل هذه المناظر الجميلة الطبيعية غابت عن عيوننا وراء هذه السحب المتكاثفة الجاثمة على الجو.

ويعد تلوث الجو بهذه الغازات فأثر على النخل والشجر، كما أثرت آبار الزيت على ينابيع العيون السيح الثرّة، الّتي كانت تنبت الحياة الربيعية الخضراء، بإرادة من فاطر السموات والأرض.

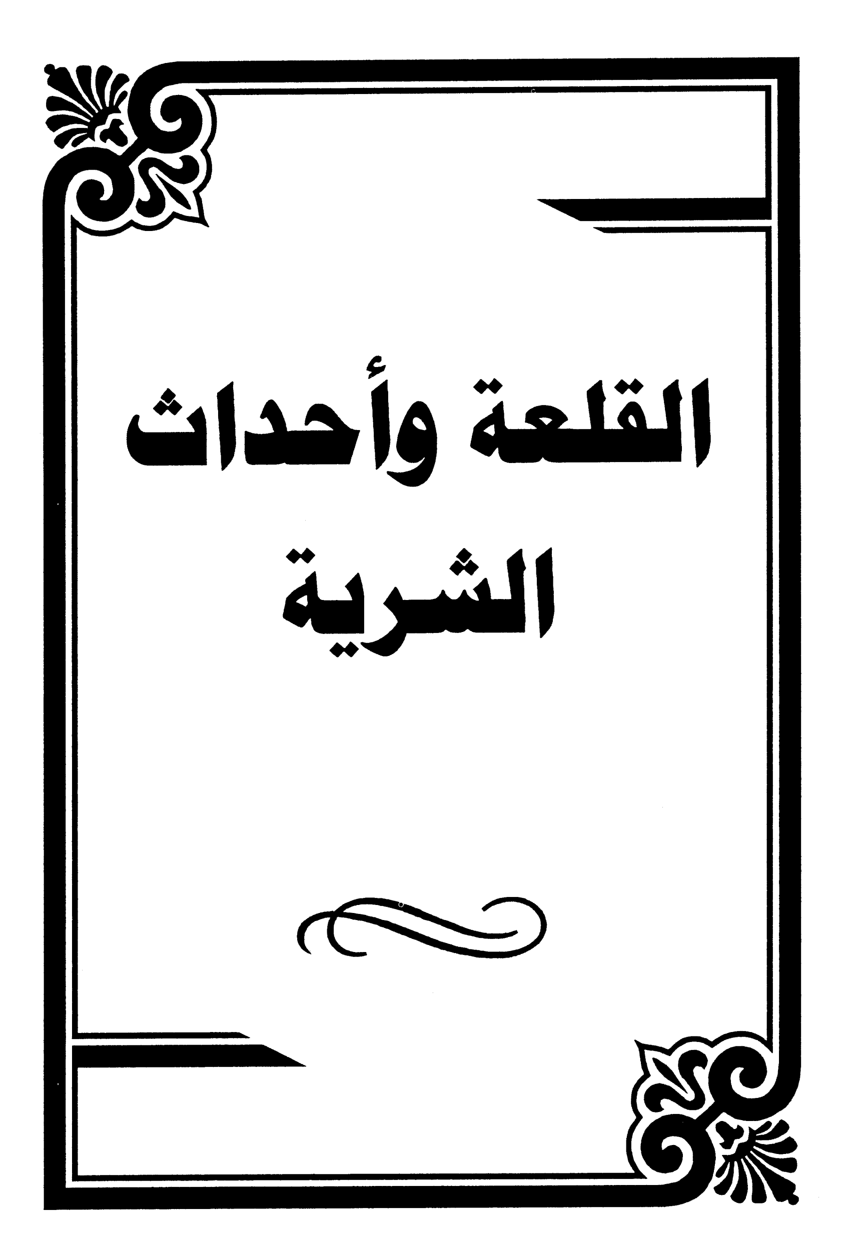
كل هذه العوامل قد تسببت في قتل الزراعة والنخيل، ولا ننسى العيون الّتي نضبت، وغار ماؤها، ولكننا نبشر أنفسنا بأن هناك بارقة أمل تبشر بالعودة للزراعة حيث وجدت البيوت المحمية، وقام بعض المواطنين بتنمية الثروة الحيوانية كالدواجن، والبقر وتعليب ما تنتجه من لبن، نأمل من الله التوفيق لهم والبركة والزيادة.

لكن الزراعة لم تعد حتى الآن كأمسها الأخضر، ولا سيما النخيل حيث كان لها دور في هذه الربوع، لما يعتمد عليها من ثروة غذائية تغذي المجتمع برطبها، وتمرها، وتستعمل في خدمة البشرية: فيحاك من خوصها ما يُجَلس عليه، ويصنع من جريدها أسرة تتُخذ للنوم عليها، ومهاداً للصغار تسمى - باللهجة القطيفية - «المَنز»، وهي عربية.

أما نخيلها الميتة فتستعمل وقوداً لتحويل الطين الذي يستخرج من البحر إلى جص لبناء البيوت، ويتخذ منها جذوعاً يسقف بها البيوت الّتي يسكُنها المواطنون القطيفيون، فيعيش بها الفرد القطيفي حياً، وميتاً، لأنه يعيش بها في حياته أكلاً، وفراشاً، وغطاء، وسقفاً لمنزله، وبعد موته يُغطى قبره بحصير من خوصها، ويسقف بجذوع من نخلها.

هكذا كان دور عماتِنا النخيل ، فرحمة أيهـا المواطـن العزيـز برعايتها ، وسقي هذه النخيل الوارفـة الظـلال الّتـي كلهـا خـير ، وعطاء ، وهبة من خالقك ، ورازقك ، والّتي كانت ربيعاً مخضوضـراً حانياً على أجدادك ، وآبائك ، وعليك ! .





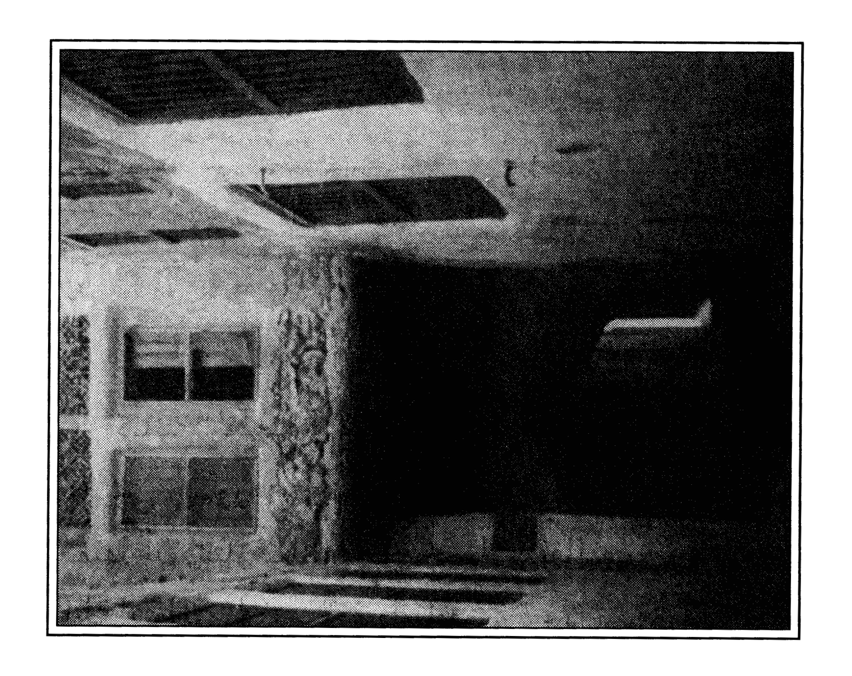
القلعة وأحداث الشرية

كانت القلعة في مبانيها القديمة، وبشكلها، وبوضعها الطبيعي، بسورها، وسوابيطها، وطرقها الضيقة الّتي لا يكاد بعضُها أن يجتازها الحمارُ محملاً بأثقاله، وبرغم وجود بعض المحلات الّتي لا تشرق فيها الشمس، ولا تصفق فيها الريح.

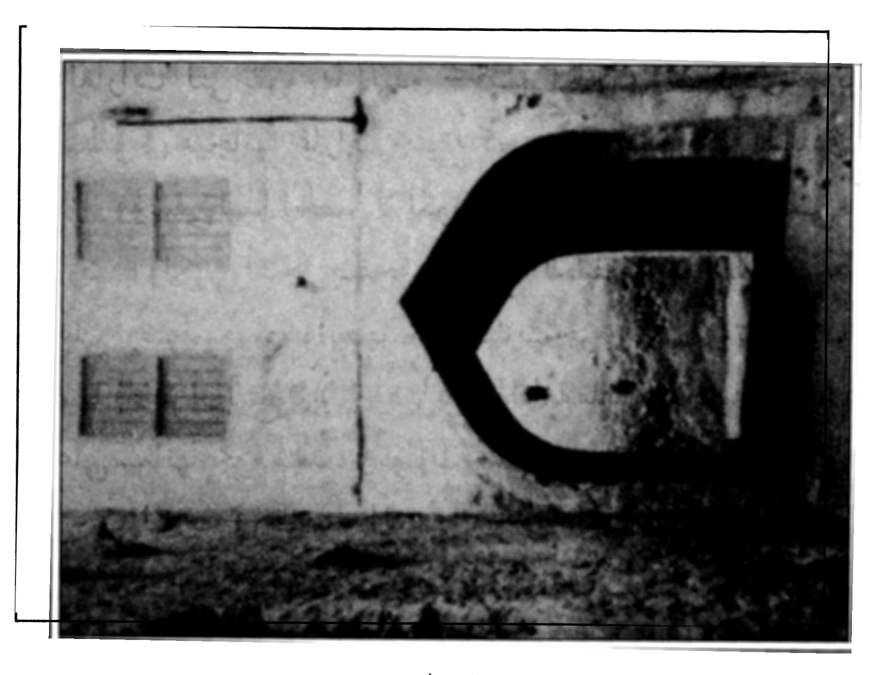
فبرغم هذا، وذاك كانت حصناً حَصيناً يُلجأُ إليها عند الكوارث الحربية، والغارات البدوية، وقرى القطيف بأجمعها يستظلون بظل أمن حصنها، فتقيهم من ويلات الغارات، فكانت الغارات الّتي يقوم بها البدو - قبل الحكم السعودي - كثيرة، تنطلقُ في هيجانها غاراتٌ مجنونةٌ كجنون الرصاص من البنادق.

ووصفي لهذا الحصن لا لكوني ولدت فيه، ودرجتُ على صعيد أرضهِ، ولكنني أسجل صفحةً من تاريخ القطيف، ومعالمها الّتي درجتُ على أرضها، وبين سوابيطها حتى صارت جزء من حياتي، وأنا جزءٌ منها فلابد أن نفتح لهذا الحصن، أو القلعة ملفاً مرت فيه أيامُها فطاف على سمائها نجوم سعدٍ، وكوارثُ نحسٍ من ويلاتٍ، وغارات.

فالتاريخ في سلسلته الزمنية يفرض علينا التحدث عن مجريات الحوادث الّتي تمر بقنوات ماضينا، حلقات تشد إلى حاضرنا، فمن لا ماضي له لا حاضر له.



صورة تمثل بعض مداخل مسورة القلعة بالقطيف قديماً ،
كما ترسم منظراً لأحد سوابيطها بأقواسه الرائعة .



فقد سرت في معالم قلعة القطيف، وفي طرقها، وشممت عطر ثراها، أما الآن فقد انطوت قُصورُها وتهاوت أنقاضاً، فعادت تشبه الوهدة الواسعة لولا بقية باقية من بيوتها الّتي أعطينا عنها وصفاً في الصفحات الماضية.

ولنعد القهقرى إلى ما وراء الزمان، ما وراء قرابة طيف قرن يطل من كوى الماضي، وعلى صعيد شموخ مجدٍ، ورفعة، يوم كانت القلعة حصنًا حصينًا، تزاحم النجم، وتطاول السحاب، حين كانت المأوى الآمن الحصين من الغارات، ولا يطال من كان داخلها طيش الرصاص.

وقد تكررت هذه الغارات الطائشة على هذه الربوع في عدة معارك غير انه لم يَعْنَ مفكرونا، وعلماؤنا - الذين حضروا هذه الغارات، أو شهدوها - بأن تدونها أقلامُهم، وبقيت روايات تلعبُ بها رياح الزمن، فيروي كلٌ ما سمعه، أو ما روي له، فتضاربت الآراء التاريخية لعدم رجوع الباحث إلى سجل يستند إليه، ويروي عنه.

فلم تسجل منها إلا بضع غارات على تضارب، وتناقض في مشاهدتها، ووقوعها، فهناك أحداث الطف[1] بقرية القديح، ووقعة الجبل[2] بالعوامية، وأحداثٌ وقعت في سيهات، وغاراتٌ وقعت من قراصنة البحر البداة على غواصي تاروت، وقد أشرنا لإحداها أيام زعامة عبدالله الغانم.

---

(١) الطف: نخل بسيحة القديح وعلى مشارف سيحة العوامية.

(٢) جبل الحريث أزيل بعد السبعينيات والثلاثمائة والألف هجرية، وصار طريقاً، وكان جنبه فريق يسمى باسمه، بيوته أكواخ من سعف النخل.

وأضخم الحادثات ، وأعنفُها كارثة ، وأشدها لهباً ، وأطولها زمناً ، واحتفل بأخبارها أكثر من غيرها برغم ما فيها من رواياتٍ متناقضة : هي واقعة الشربة ، فلابد من فتح ملفٍ لهذه الواقعة ، ونحلل ما ورد فيها من حكايات ، وأخبار ، وأنباء ، وما عثرتُ عليه مدوناً في بعض السجلات .

ففي عام ستة وعشرين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، في عهد الحكم التركي ، كما يروي الرواة ، ويحكي الحاكون ، ويقص القاصون مد الحصار طوقاً على هذه البلاد ، وحتى القلعة ، فأغلقت أبوابها وحوصرت ، وقد أرخها المؤرخون بالأحداث الّتي وقعت في هذا العام ، أي «عام الحصارة» - باللهجة القطيفية - ، أو «وقعة الشربة» ، فمواليد هذا العام أُرخوا بتاريخ عام الحصارة ، أي الحصار المضروب على القطيف .

ولابد لنا من إلمامة لشرح مفهوم هذه الواقعة ، وخلفياتها ، وأحداثها ، وأسبابها ، فالشربة عربية في حروفها ، ومدلولها ، لأن لغة القطيف هي لغة في مفهومها الكلي عربي ، إلا أن بعض الكلمات حُرفت إلى اللهجة العامية ، غير أنها لم تبتعد عن مدلولها العربي .

فالشربة تصنع من طين يحرق في كور من النار ، يسمى هذا الكور في اللهجة القطيفية : «الدوغة» ، والمحترف لهذه الصنعة يسمى : «الجرار» ، أو «الخزاف» ، نسبة إلى صنعته وهي الخزف ، حيث يصنع الأقداح ، والجرار ، والشربات ، والجحال والحبوب ،

والقدو[1] ، ورؤوس القدو ، وما يماثلها من الصناعات الطينية الّتي تُجبل على أسلوب قوالب ، وتدخل إلى كور النار .

فنعود إلى تعريف الشربة ، الّتي يوضع فيها الماء لرقتها ، لأنه لا مسام لها ، فهي تفرز الماء من جلدها ، حيث إنها خزف ، أي طين ، فيستعين بها قاطنوا هذه الربوع كأداة تبريدية لشرب الماء في فصل الصيف ، حيث لا يوجد لديهم في ذلك العصر كهرباء ، ولا مبردات ، ولا ثلج ، ولاشيء يخفف وطأة حرارة الصيف يلجأ له السكان غير هذه الأدوات المصنوعة من الصناعة الخزفية بأيدٍ قطيفية .

ويستعينون بها لأنها تبرد الماء لرقة جلدها كي تخفف وهج الأوام ، فيخففون لهيب العطش بهذا الماء المبرد ، ويضعونها على محل مرتفع تحت السماء يسمى : «السارية» - باللهجة الشعبية - ، ولعل هذه التسمية لكون النسيم يسري لها من جهاتها الأربع .

وكان صيف هذه الربوع صيفاً ملتهبًا ثقيل الوطأة ، يتصاعد أنفاسه حمم ولهب لا سيما في المحلات الضيقة ، والمجتمعات العامة كالأسواق ، وتزداد هذه الوطأة ، والوهج المحموم في المواسم العامة ، حيث توجد في القطيف مواسم للأسواق ، من ضمنها سوق يوم الخميس - وسميت باسمه ، تجتمع فيها الأغلبية من سكان حاضرة القطيف ، وقراها ، وما تنتجه القطيف من

(١) القدو : يصنع من الطين وله ثقب في أعلاه يصب منه الماء وثقب في وسطه يوضع فيه أنبوبة ، وتسمى باللهجة القطيفية قلم ليجذب به شارب القدو ، ويوضع عليه بكارآ ، وفوق البكارِ رأسٌ فهو يشبه النارجيلة ، أو التعميرة .

صناعات محلية ، فإن جميع صنائعها الداخلية ، وما يؤتى لها من روافد الخارج ، تعرض للبيع في تلك السوق ، في ذلك اليوم .

ومن الأسواق في ذلك اليوم : سوق تسمى بسوق الدهن ، تقعُ في برحةٍ شرقي السوق الرئيسية للقطيف ، وتتصل بهذه السوق من منفذين يمران بالسكة حسب اللهجة القطيفية ، من شرقها إلى هذه البرحة التي تقع شرق السوق بحي الشريعة ، وهذان المنفذان أحدهما وهو الطريق الشمالية أضيقُ بكثيرٍ عن الطريق الجنوبية ، إذ لا يكاد يمر فيها أتاناً بأثقاله ، أما الطريق الجنوبي تمر منه السيارة بعد أن فتحت البلدية الجهة الغربية ، ووسعته بإزالة حانوتين ، فصارت هذه الطريق من البرحة المشار إليها مارة بالسكة إلى الطريق الغربي الذي في جهتها الغربية تمتد البساتين ، والنخيل ، وفي جهتها الشرقية أظهر الحوانيت .

وهذا المعلم التاريخي بقي حتى إزالة سوق القطيف الرئيسي الذي حددنا تاريخ الإزالة في هذه الخيوط في الصفحات الماضية ، وقد رأى ويتصور هذا المعلم التاريخي كل من ولد به في عام السبعين ، أو ما قبلها بعد الثلاثمائة والألف هجري ، أو في الخمسين وماقبلها بعد التسعمائة والألف ميلادي .

وفي هذه البرحة فيها موسمُ عطاء بيع وشراء حيث يجلبُ فيها في هذا اليوم ، أي يوم الخميس ، كل ما تنتجه اليد العاملة القطيفية من صناعات محلية : كالمرواح ، والقفيف ، والزبيل ، والسفر ، والمديد ، إلى أمثال هذه الصناعات التي تحدثنا عنها ،

ويباعُ بها السمن أي الدهن المصفى من لبن البقر ، ويسمى باللهجة القطيفية (دهن البقر) تفريقاً له عن دهن الغنم التي تبيعه البادية .

وهناك شريحةٌ تعيش على ظلال هذه السوق ، فتأتي منذ الصباح الباكر ، وتنصب موازينها لتزن هذا الدهن من يد الفلاحات لمن أراد إبتياعه ، وتأخذ أجراً على وزنها ، وكان الوزنُ بالحقة ، ونصف الحقة ، ووقية ، فرقعتُها تضيقُ بالمتجرين فيها .

وكان مبنى بلدية القطيف الذي هو بالأجور يقعُ شرقي هذه البرحة ، ولا يزال المبنى بهيكله القديم مع البرحة موجودين على الطبيعة ، غير أن البرحة تحولت إلى موقف سيارات ، وخط بها خطوطُ من الأرصفة لتعديل وقوف السيارات ، كما تحول النخل الذي كان يقع في شمالها إلى أسواق للحم ، والخضار ، أما معلم تاريخ السوق القديم فلا أثر له من عين .

ولا تقتصرُ مواسم الأسواق في يوم الخميس بالقطيف على هذه السوق ، فهناك موسمُ سوقٍ لأرض الجبلة يباع فيها ما تجلبه البادية ، وتنتجه الحاضرة وقد أشرنا لطبيعة صورتها في الصفحات الماضية من هذه الخيوط ، وموسم سكة سوق الحرية حيث تجتمع بها شريحة من البدو ، والحضر الذي تحول إسمها إلى شارع باسم جعفر الخطي ، كما تغص السوق الرئيسيى أي السكة بطبقات كثيفة من البشر .

وكان يوم الخميس يوماً له دورٌ لعبه في تجارة القطيف ، وقد بقي هذا اليوم موسماً تجاريا بالقطيف حتى يومنا هذا ، وإن تغيرت الأساليب التجارية في عطائها ، وسلعها ، ومواقعها إلى مواقع جديدة غير تلك المواقع ، وغير تلك الأساليب ، ولم تكن السلع الماضية لأنها لا تنتجُ في هذا العصر .



صورةٌ مقتضبة لتلك الأسواق القديمة

وهنا يتكثف البشر، ويزدحم، ويأتي على مدرج خطوات ضيقة متراصة في هذه السوق، فلشدة الزحام، وحرارة الجو، وأشعة الشمس يشتد بهم الظمأ.

فيستغلُ هذا الموسم، وهذا الظمأ أُناسٌ يغتنمون هذه الفرصة الثمينة، فيتكسبون، ويعملون، ويمتهنون مهنة سقي الماء - وهو عمل شريف لأنه من عرق الجبين - فيستعدون لهذا الموسم من مساء الأربعاء، فيهيئون ما يستطيعون من أوعية يملكونها، فيملئونها ماء، ويبردونها لصباح يوم الخميس.

فإذا ما انتظمت سوق هذا الموسم في دورها التجاري، جاء بائع الماء حاملاً شربته، وكأسه، يطوف بها ليبيع منها على المتسوقين العطاشى، وهو ينادي بأعلى صوته - باللهجة القطيفية - : «الماء البارد، الكأس بحدج» - وهو العملة للحكومة التركية في ذلك العصر، أي ما تعادل ريالاً في هذا الوقت.

فيربحون من هذا العمل، فطاف أحد الباعة وهو كما يقال من عائلة الدبوس - ساكني الدبابية - فطلب منه شخص من البدو الرحل ابتياع كأس من الماء، وعندما شربه طلب منه الدبوس ثمن ذلك الكأس، فرفض دفع الثمن، فثارت بينهما عاصفةٌ كلامية فيها حروف مُشادة، وثارت الأعصاب فوقع بينهم مضاربة بالأيدي، فجُرح أحدهم، فتوتر الحزبان القطيفيون، والبدو.

فنُمي العلم إلى سيد إبراهيم المشكاب - وهو جد السيد إبراهيم المشكاب، صاحب مكتبة الساحل الموجودة اليوم - فثارت ثائرته فجاء وهو يحمل بندقيته لينتصر للدبوس، لأنه من

قرينته الدبابية ، وجرت في دمه القبلية ، فغابت عن حسه الواقعي رؤيته العقلانية الّتي عليها مدار الوعي ، والتفكير ، فأطلق من بندقيته رصاصة أودت بحياة ذلك البدوي الذي راح ضحية «حدج» .

وعلى أثر هذه الرصاصة الطائشة ، نجمت الفتنة الهوجاء ، ودقت ساعة المعركة الجاهلية ، وأطلع الشيطان رأسه ، وتحزب الفريقان ، وغاب عنهم الرشد الحضاري ، والصلة الأخوية ، والإنسانية ، والمصالح المادية الّتي تربطهم منذ العصر القديم ، كل هذه قد نُسيت ، وديست تحت الأقدام ، وغام الجو ، وانقطعت كل صلة ، فاشتبك الطرفان ، وأخذ كل منهم يقتل الثاني ، فاختل الأمن ، وفر البشر زاحفاً وخوفاً إلى حصن حصين .

فأخذت قرى القطيف المجاورة تبحث عن الملجأ الذي يؤويها من اضطراب هذه الفتنة ، وينجيها من رصاصها ، فزحفوا إلى القلعة ، لأنها حصن حصين يؤمن الخائفين ، ويحنو على البائسين ، وحتى ضجت شوارعها ، وضاقت بالفارين إليها ، وصاروا يعيشون في بيوتها ، وشوراعها ، وسوابيطها ؛ كما رواها لي بعض المواطنين الذين عايشوا هذه الواقعة ، كابن عمي الحاج عبدالحسين بن الحاج حسن علي الخنيزي ، فأصبح هذا الحدث الأهوج تاريخاً يؤرخ به مواليد ذلك العام .

وهذا الأسلوب التأريخي قديم في التاريخ ، فقد كان العرب قبل مجيء سيد البشر ، ومنقذ الإنسانية الرسول الأعظم - صلى الله عليه وآله ، يسيرون التاريخ العربي على منهجية الوقائع التاريخية .

وبرغم لجوء سكان قرى القطيف إلى القلعة حاضرتها ، غير أن المعركة لا تزال خارجها حامية الوطيس ، منطلقة الأهواء ، فهي تدور خارجها بين القرى ، والنخيل ، تأكل من الطرفين ما ظفرت به ، ويعيث البدو تخريباً في ثمار النخيل ، والشجر ، ويحرقون الأخضر ، واليابس .

وقيل استمرت هذه الواقعة طيلة سبعين يوماى ، وقيل أكثر من ذلك ، وقيل أقل ، فيخرجون مسلحين من القلعة للدفاع عن القرى ، ورد البدو عنها ، وإيقافهم عما يعيثون فيه ، فيشتبكون معهم ، فراح من الفريقين ضحايا لا تعد ، ولا تحصى .

ولم يوجد في تلك الفترة صحفيون يسجلون الحوادث ، ويتابعون فصولها ، وبقيت تدور أنباؤها على روايات الألسن ، ولم يسجل لنا التاريخ أسماء الضحايا ، أو بالأحرى لم أعرف سوى البطل الشهيد الشاب جعفر بن حسن علي بن الحاج حسن الخنيزي ، حيث قُتل في اليوم الثامن عشر من شهر رجب عام السادس والعشرين بعد الثلاثمائة والألف هجرية .

كما أُصيب أخوه أحمد حسن علي الخنيزي برصاصة في إحدى يديه ، تركته «أعضباً» - أي مشلول اليد - ، حتى اختاره الله ، ولم ينجه من الموت إلا قبيلة «الخزور» ، حيث ألقوا أنفسهم عليه ، ورفعوا شعاراً متعارف بين القبائل البدوية : «هذا خفيرُنا» - أي في عهدتنا وذمتنا - لما بينهم وبين والده من صلة حميمة ، ورباط وثيق لا يفصله الرصاص ، ولا الأهواء المحمومة ، فكرّموه وأخذوه ضيفاً مدة ثلاثة أيام ، وعالجوه ، واستخرجوا الرصاصة

من يده، وبعد ثلاثة أيام أوصلوه إلى بيت والده بالقلعة فأكرمهم والده، واحتفى بهم، واستمرت علاقة الخزور بقبيلة الخنيزي حتى يومنا هذا، وقصة معالجة أحمد، وإنقاذه رواها لي عبدالله بن عبدالمحسن الخزور الموجود على قيد الحياة.

وأحمد الخنيزي: هو أحد ركائز مجد القطيف، ومن الشخصيات الّتي يشار إليها بالبنان، ويأتي في طليعة الشخصيات الوطنية، وفي مرتبة بين إخوانه بعد أخيه الزعيم أبي عبد الكريم الخنيزي، وقد ولد عام تسعة وثمانين بعد المائتين والألف، وأختاره الله في اليوم الثامن من شهر ذي الحجة عام الثامن والخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام.

أما أخوه جعفر فجيء به أشلاء مزقته الرصاص، ودفن ببراحة الخيل بالقلعة بجانب بيوت أبي السعود، وقد أقيم على قبره قبة، وهذا شعار لرمز الضحايا الّتي ضاع دمها هدر في تلك المعركة الخاسر فيها الطرفان.

وهذه المقبرة يدفنُ فيها في مثلِ هذه الحوادث، والغارات، لعوامل أمن التشييع والدفن، لوقوعها في مدينة القلعة.

فكانت هذه تاريخاً يؤرخ به ب «عام الحصارة» - أي الحصار -، فهو تاريخ لمن ولد، أو تزوج، أو مات في ذلك العام، فأصبح سجلاً للحدث الذي يحمله في طياته، وقد أشرت إلى ملف هذه القضية إلى ما فيها من تضاربٍ في الروايات.

فهنا انقل رواية عن العلامة الشيخ فرج العمران بالنص الكامل حسب روايته لها في كتابه الأزهار الأرجية في الآثار

الفرجية، الجزء الثالث عشر صفحة ٣٣٠، ٣٣١: «واقعة الشربة هي الّتي صدرت في سوق القطيف، يوم الخميس ١٣٢٦/٥/١٨ هجرية، وبسببها سدت الأسواق، وعطلت الأعمال، وتلفت النفوس، ونهبت الأموال، وهدمت البيوت، وأحرقت البساتين.

وأصلها ان صبياً أسمه مكي بن الحاج إبراهيم الدبوس من أهالي الدبابية، كانت بيده شربة كبيرة (جرة) متخذة من الطين مملوءة ماء للبيع، ووقعت من يده على الأرض فانكسرت، فرمى بها في الشارع، فوقعت قريباً من بعض البداة، فظن أنه رماها عليه متعمداً، فجاء إليه البدوي فلزم حلقه ليخنقه، ووضع خنجره في خاصرته ليقتله، فاجتمعت عليه الناس فخلصوه، فكثر القال والقيل، وفشى السب، والشتم، وتوفر الجرح، والضرب (وأن الحرب أولها كلام) فكانت الحادثة العظيمة بين الشيعة، والسنة من الصبيح، والمطير، والعجمان، والعوازم، والمهاشير، وغيرهم.

استمرت الحادثة سبعين يوماً تقريباً، وقتلت من الشيعة، والسنة رجال أبطال، وذو شخصيات.

وممن قتل فيها من الشيعة الشجاع الباسل جعفر بن الحاج حسن علي الخنيزي، وكان مقتله ١٣٢٦/٧/١٨هـ، ودفن في القلعة في المقبرة المجاورة لبيت أبي السعود، وبني على قبره قبةٌ، وقد رأيتُها قبل أن تهدم، والصبي المذكور أعني الحاج مكي بن الحاج إبراهيم الدبوس موجود إلى الآن، ومنه سمعت هذه الحكاية، وقد نظم هذه الحادثة وما جرى فيها العلامة الشيخ رضي بن الحاج إبراهيم المحروس الشويكي المتوفي يوم الاثنين ١. /١. /١٣٥٢ هـ

نظمها أرجوزة طويلة رأيتها في كشكوله المخطوط» وينتهي النص الذي نقلناه من كتاب الأستاذ الشيخ فرج .

ونورد ما كتبه عن واقعة الشربة الأستاذ عبد العلي يوسف آل سيف في كتابه القطيف وأضواء على شعرها المعاصر ، مستنداً إلى مهدي سويدان في مقابلة له مع مجلة المنهل ننقل النص كما هو : «قالوا كنا في السوق ، والوقت صيف ، والنهار خميس ، ونحن نبتاع ونبيع ، وليس عندنا للشيطان أي طريق ، حتى جاء رجل يبيع غنماً ، فاستقى من رجل يُلقبُ بالدبوس كان يتسبب بسقاية الناس فشرب منه ماءً بارداً بجدج ، وبعدما شرب طالبه بقيمة ما شرب فامتنع ، فحصل من جراء ذلك السباب بينهما ، وأخذ الضرب طريقه بينهما ، ولما رأى كل فريق منا صاحبه مضروباً تدخل لا ليدفع قيمة الشربة ، أو يسكت هياج الفتنة ، وإنما ليضاعف من وقودها ، ومن استعمل السلاح بطلقة أطلقها الحضري عندما رأى يد أخيه مجروحة بسكين ، وبهذا بدأ القتال الحقيقي ، وتدرج في التوسع حتى صار حرباً أهلية لا يستطيع أحد أن يوقف اندلاعها .

وهكذا استمرت هذه الحرب الأهلية إلى أن دخل جلالة المغفور له جلالة الملك عبد العزيز (رحمه الله) القطيف ، فأخمد نار الفتنة الموقودة وبرّد لهيبها ، مما أعاد المياه إلى مجاريها ، والوطنية الصادقة إلى النفوس بأحسن مما كانت عليه من قبل الهجوم الذي جمعت له البدو جموعها .

كان هؤلاء البدو قد جاءوا بعد بضعة أيام من نشوب الفتنة لأول أيامها ، وجاءوا بجمع كثير ، وعسكروا في الجهة الغربية ، وفي

النخيل المجاورة للدبابية الّتي أعتبرها مصدر الفتنة بـإطلاق أحـد رجالها النار ، فكانت هدفهم الأول ، ثـم بعدهـا واصلـو الزحـف إلى مدينة القطيف للانتقام ، وكانت هذه المدينة يومئذ تتكون مـن الشـويكه ، والدبابيـة ، والكويكـب ، والشـريعة ، وميـاس ، والمدارس ، وباب الشمال ، والجراري ، والقلعة .

وكانت القلعة أكثر تحصناً ومنعة لما فيها من البروج ، والسـور المشيد من قبـل الأتـراك ، ولذلـك أدخلـت فيهـا - أي القلعـة - النساء ، والأطفال ، والعجزة ، والشيوخ .

وعاش الرجال في البلد في حذر ، وكان ضمن الحاضرين الشيخ محمد بن نمر الذي أتخذ له بيتاً ثانياً في الدبابية ، ففي يوم يقيم فيـه ، وآخر يقيم بالعوامية مسقط رأسه .

وقد رأى أهـل القطيـف إن لم يهزمـوا البـداة في هجومهـم فـانهم سيظلون عاجزين عن مقاومتهم - فقال لهم - أي الشيخ محمد بـن نمـر - اجعلوا الرجال على طول محيط السور ، وفي البروج ، وكان سورها يومئذ حائطاً بالبيوت إلا البروج ، وقال للمواطنين فإذا رموكـم فـلا ترموهم ، انتظروا حتى ينفذ ما عندهم ثـم ابتـدءوا بـالرمي ، وليكـن بصورة منقطعة ، وقبل كل شيء ضعوا قلال التمر على امتـداد الجـدر الأمامي من الداخل ، وبقدر الإمكان اجمعـوا الـتراب والرمـاد فـإذ اشتدت الرماية من قبلهم عليكم فألقوا به من أعلى من جهتـي الغـرب والشمال ، وعندئذٍ يظنون أن الحاجز الأمامي قـد انهـار ، فيتقدمـون إليكم بجمعهم يريدون دخول البلدة من هذا المكان وهم لا يبصرونكم من شدة الغبار ، وكثافة التراب ، وأنتم لهم مبصرون بإطلالكم عليهـم

حتى إذا اقتربوا منكم فعندئذٍ ارموهم رمية رجل واحد ، وبهذه الخطة سينهزمون إن شاء الله تعالى.

وبالفعل نفذ أهل القطيف هذا التخطيط البارع الذي اختطه لهم الشيخ محمد بن نمر ، وبالفعل كانت نتيجتها المباشرة انهزام البادية عن القطيف.

ولكن الاصطدامات ظلت معهم متتابعة حتى أذن الله تعالى بإطفاء هذه الفتنة دفعة واحدة بدخول الملك الراحل عبد العزيز آل سعود (رحمه الله) » ؛ وينتهي نص الأستاذ عبدالعلي.

ونضيف نصاً رابعاً ، هو ما ترجمته مجلة الواحة في عددها الأول الصادر في محرم عام ١٤١٦ هـ بالصفحة رقم ٣١ تحت عنوان واقعة الشربة ، وحصار القطيف عام ١٩٠٨ م ، وليس فيه أضواءٌ من التاريخ الجديد ، أو صفحاتٌ تُفصل لنا عدد القتلى من الطرفين ، وما أسماؤهم.

ولم يذكر في ملف هذه المجلة إلا البطل الشهيد الذي لمع أسمه كعنوان على هذه الحادثة هو جعفر[1] بن حسن علي بن حسن الخنيزي ، ولعل إظهاره بهذه الشهرة ، والمعرفة على لسان التاريخ ، قبرهُ الذي لم يندثر إلا قبل أعوام لا تزيد على ثلاثين عاماً ، ومكانة والده الاجتماعية.

ولم نعرف اسماً من القتلى غير هذا الاسم ، ولم يسجل لنا الرواة أسماء احتفظ بهم التاريخ ، لأنهم انطووا مع طي سجل

---

(١) وروى لي التاجر الوجيه منصور رضي الشماسي عن أبيه أن جعفر بن حسن علي الخنيزي قتل بقرب الدبابية وكان مصرعه عند نخل يسمى :» حشاش» .

الذين شهدوا هذه الكارثة وعاشوها ، وكذلك الجرحى لم نُعطَ عنها هيئة إصابتهم ، وما جراحاتهم ، وما أسماؤهم ، وفي أي موقعٍ جرحوا غير أحمد أخو جعفر الذي أشرنا له في الصفحات السابقة ، وقد بقي اسم هذا الجريح على صفحات الزمن دون غيره لموقع والده الإجتماعي ، وشخصيته التي أعطينا عنها لمحةً كلمحة الظل .

ولم يكن على هامش هذه الحادثة نبأ جديد ، سوى ما قامت به مجلة الواحة مشكورة من ترجمة أنباء واقعة الشربة ، ملف متابعة للدورالبريطاني ، يدورُ على هامش أنبائها ، ولا يدخل في صميم قلب المعركة ، فهو يعيش على سفينتهِ في ثبج الموج .

وهذا السجل البرقي يعطينا صورة جديدةً عن قراصنة البحر ، وما يدور فوق أمواجه ، وبين ضفاف شواطئه ، فيتحدثُ عن القرصان أحمد بن سلمان ، وعن الشيخ جاسم بن عبد الوهاب بدون أن يفصل الأدوار الّتي تلبس بها هذان القرصانان .

وفي رأيي أن هذه المخابرات الدائرة باسم برقيات بين القواد البحرية الإنجليزية أصحاب المعاطف الزرقاء ، وبين المعتمد السياسي بالبحرين ، والمقيم السياسي في الخليج ، وحكومة الهند ، وبين وزارة الخارجية البريطانية كلها تهدفُ في حروفها المبطنة بأطماعٍ للاستيلاء على واحة القطيف الخضراء الّتي هى اللؤلؤة في تاج الخليج .

فالإنجليز يستعمرون ضفاف الخليج : البحرين ، والكويت ، وقطر ، والإمارات الّتي تعرف اليوم وتتكون من أبوظبي ،

والشارقة، ودبي، وعجمان، ورأس الخيمة، وكلها تحتاج إلى ما تنتجه هذه البلاد الخيرة من هذه الثمرات الطيبة، فلموقعها الإستراتيجي، ولخصوبتها طمعت فيها ولم يقضِ على أطماعهم إلا جلالة الملك عبد العزيز آل سعود عندما رفع اللواء الأخضر السعودي على ضفافها يرف في ظلال الأمن.

وفي اعتقادي المستخلص من ملف المخابرات البريطانية عندما تعود لها وتقرأها بنظراتٍ ضوئية كاشفه ستوافقني على ما ذهبتُ إليه.

والرواية الّتي رويتُها عن ابن العم الحاج عبدالحسين بن حسن علي الخنيزي، تختلفُ عن الرواية الّتي سجلها الأستاذ العمران في كتابه، وأسندها إلى بطل نواة الحادثة هو مكي الدبوس فهذه الفصول لا تلتقي مع تلك الفصول، وتختلف اختلافاً كبيراً بالرغم من أن عبدالحسين كما يقال كان أحد الأبطال المحاربين مع إخوانه، وقائدهم الزعيم الشيخ علي أبو عبد الكريم الخنيزي كما قرأته في المقال الذي كتبه الأخ الشيخ حسن الشيخ علي الخنيزي المنشور في ذكرى الزعيم الخنيزي بصفحة ١٣٦ تأليف الأستاذ الشيخ عبدالله الخنيزي، ونورد نص ما قاله:

«في سنة ١٣٢٦ هجرية حدثت فتنة بين أهل البلاد، وأهل البدو، استعصى أمرها، وتأزمت الحالة إلى امتشاق الحسام بين الطرفين، فأُطلقت بين الجانبين أفواه البنادق والمدافع، فاصطلى الطرفان بسعيرها، وخسر الجميع ضحايا فيها، فواسى الشيخ مواطنيه في هذه الكارثة السوداء، وخرج ذلك الفقيه المسالم الوديع، في حلة

شجاع مغوار ، فتقلد السلاح تنشيطاً لعزائمهم عن الخوار . وكان في طليعة الشجعان البواسل أخواه فقتل أحدهم ، وجرح الآخر جرحاً عظيماً ، أدى إلى سقوط يده اليسرى إلى آخر عمره .

أما رواية الأستاذ عبد العلي عن الأستاذ مهدي سويدان ، لم يستند فيها مهدي لسجل أو راوي قديم عايش الأحداث ، لكون مهدي حديث السن لم يعايش ذلك الحدث وقعة الشربة ، ولم يكن قريباً من عصرها ، ولم يسند هذه الرواية الّتي رواها ممن استقى أنباءها ، وأضاف على رواية الحاج عبدالحسين الخنيزي رأياً للعلامة المجاهد الشيخ محمد بن نمر ، والشيخ محمد بن نمر لا يسكن القلعة إنما يسكن العوامية ، والدبابية ، وكيف يستطيع التنقل بينهما تحت أزيز الرصاص ؟ ! ، ووسطة المواصلات هي الأتن أو الخيول ، وأن المعركة كما يقول الأستاذ الشيخ فرج العمران استمرت سبعين يوماً بينما الأستاذ مهدي سويدان في خبره استمرت قرابة ستة أعوام ، ولم تضع أوزارها إلا عند دخول الملك عبد العزيز آل سعود في شهر جمادى عام واحد وثلاثين هجري ، أي عام الثالث عشر بعد التسعمائة والألف ميلادي .

وكل من روى أنباء هذه الحادثة لم يقل باستمراريتها المدة الزمنية الّتي حدثنا عنها الأستاذ سويدان ، وإن كان قصده من ذلك لم تهدأ الغارات البدوية المجنونة ، ولم تسكن الاضطرابات في حركتها المدمرة إلا بعد دخول جلالة الملك فاتحة أمنٍ واستقرار حيث لم تقع بعد دخوله غارةٌ أو واقعة ، كما وقعت في عصر الأتراك ، فهذا صحيحٌ ، ومعروف لدى الجميع .

كما وقع في خطأ تاريخي حيث نسب تاريخ بناء السور إلى عصر الأتراك فتأسيسه كان عام تسعة وثلاثون بعد الألف هجري، وجدد في عهد حكم السلطان سليم التركي.

والواقع أن واقعة الشربة كما أشرتُ في الصفحات الماضية لها، رواياتٌ، وأنباءٌ تعبث بها أجنحة الريح فتبعثرها بين النخيل، والمياه، وفي رمالٍ صحراويةٍ ملتهبة، كل ما نعرف عنها أنها كانت واقعة مجنونة استمرت بعض شهور تزيد أو تنقص، وراح فيها ضحايا من الطرفين، الله أعلم بأسماء المقتولين، والجرحى منهم، وهذا التضارب أكثر ما يقع للحوادث الّتي لم تدون في أُبان جريانها، والتاريخ قد أرخ حوادثَ في أعمال شوط جريانها، وقد تضاربت فيها أخبارُها، والمؤرخون على مشهدٍ منها.

فكيف بحادثٍ يؤرخه أناسٌ استقوا أنباءها بعد ردح من الزمن، مر على تلك الأشلاء، وضاعت مع الأمس الدابر؟!.

وقبل أن نغلقَ ملف هذه الواقعة، نُعَرّف معنى البدوي، والبدو، فقد أشار الله لهذا التعريف بإيجاز، وأي إيجاز أعظم من كتاب الله في سيرة يوسف على نبينا، وعليه أفضل الصلاة والسلام حيث قال:

«وجاء بكم من البدو»

فالبدو هم الذين لا يستقرون على صعيد واحد، فهم يرحلون من تلعة لأخرى، ومن وادي لآخر، ومن سفح أخضر إلى سفح ممرع، يبحثون عن الكلأ، والماء، فلا تستقر مضاربهم في محل واحد، ولا

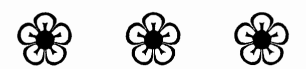
مأوى لهم ولا وطن معين ، فهم يضربون في كبد الصحراء الملتهبة طولاً ، وعرضاً ، ويؤوبون إلى مدينة عنك إحدى قري القطيف في فصل الصيف ، حيث يبيعون ما أنتجته ثروتهم الحيوانية من ماشية ، ومن معز ، وإبل ، وبقط ، وسمن ، فيتاجرون بها .

وفي إطلالة فجر الخريف يقبضون غلات نخيلهم ، فيبيعونها ، ويرحلون إلى الصحراء لا يعودون إلى عنك بالقطيف إلا في فصل الصيف من العام القادم ، ولهذا الترحال أطلق عليهم أسم البدو لأنهم يبدون ، ولا يستقرون .

وبعبارةٍ أدق أنهم يعيشون في حياةٍ بدائية غير مستقرة على ركائز ، وتخطيط اقتصادي .

وقد روينا فصول هذه الفتنة ، أو هذه المعركة الّتي وقعت عام ستة وعشرين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، الموافق عام الثامن بعد التسعمائة والألف ميلادي ، الّتي لو مسك زمامها المنطلق الهائج عقلاءُ ، لما كان الذي كان ، فإن العقل هو النبراس متى تغلب على الهوى ، والعاطفة ، وجلله الإيمان ، والخوف من الرحمن .

فلذلك نكتفي بهذه اللمحة عن هذه الواقعة التاريخية ، ليبقى فصلاً من فصول تاريخ حياة هذه الربوع .





الحرف القطيفية القديمة وصيد الأسماك

كان لصيد الأسماك دور معاشي ، يعيش عليه قسم كبير من هذه الربوع ، ولا سيما جزيرة تاروت الّتي سنتحدث عن ملاعبها الجميلة يوم كنُتُ طفلاً ، ويافعاً ، وشاباً .

ولا ننسى مدينة سيهات ، حيث هي الأخرى الّتي كان لها الدور في الغوص ، وصيد الأسماك ، والربيان .

فمنذ فجر تاريخ هذه الربوع ، كانت روافدها الاقتصادية تنقسم إلى أقسام : هي حرث الأرض ، وزراعتها عن طريق التملك ، وهو نادر ، أو عن طريق اتفاق معقود مع ملاك البساتين ، وقد شرحنا كيفية هذه العقود .

وثلةٌ أخرى عملُها ركوب البحر ، حيث يلاقون زمجرة البحر ، وأهواله ، وأخطاره ، وهم الغواصون ، وصائدوا الأسماك ، والربيان .

وشريحة تعمل في الصناعات كالصياغة ، فالصياغة كانت صناعةً رفيعةً لها دور في حياة القطيف ، والصنّاع هم وطنيون يصيغون الُحلي في موسم الأعراس ، وفي الأيام المجردة .

ومن ضمن هذه الصناعة: صناعة «المعاضد» - أي الأسورة -، و«الحجول» - أي الخلاخيل -، والخواتيم، والتراكي - أي الأقراط -، والقلائد، والعقود الّتي تلبس في الصدر.

كما تختص بعض الصناعات بصواغ الخليج كالخزامة، والقرنفلة الّتي تضعُهما الغانيات في جانبي الأنف في الجهتين؛ وهذه الصناعة قديمة عربية قد تغنى بها شعراء الجاهلية، ولعلهم استمدوها من حياتهم البدائية الّتي تعيش على الطبيعة، وولدوها مما يضعونه من أزمّةٍ، وأخطمةٍ في آناف النوق، لأنهم يتغنون، ويعيشون على هذا الصعيد، ويصورون حياتهم صوراً ناطقة في أشعارهم.

فأشعارهم تمثل حياتهم بدون رتوش، حتى قال شاعرهم في حبيبته:

و أحبها وتحبني و يحب ناقتها بعيري

إنه لتصوير رائع، يعطيك صورة حية متحركة عن هذه الحياة الطبيعية، والقطيف هي من قلب الجزيرة العربية، لذلك تمثلت فيها طقُوسها، وعاداتها، وحياتها.

وأنا لا أستسيغ هاتين الحليتين المعروفة بالخزامة، والقرنفلة، الّتي تضعهما الفتاة في أنفها على الجانبين، لأنها تشوه جمال الفتاة، وتخزم انفها فهي كإسمها، مأخوذة من الخَزم وربما يكون لهاتين الحليتين في أنف الفتاة حُسنٌ عند غيري.

وقد بلغ من هوس هذه العادة لبعض العجائز الّتي لا يعيش لها ولد ذكر ، تتعهدُ على نفسها : إن رزقت ولداً ذكرا لتخرقن خشمه ، وتعامله كمعاملة المرأة ، حيث يكون الخرق في المحل الـــذي توضـع فيه الخزامة ، أو القرنفلة ، وقد وجدت من الرجال من نفذت به هذه العملية ، كزميلنا المرحوم الشاعر محمد سعيد المسلم الذي مررنا به في هذا الكتاب عدة مرات .

ونحمد الله حيث انقرض لباس هـاتين الحُلَيّتـين ولم يعـد لهمـا أثرحتى من العجائز القديمات ، وهــذا مـن فضـل ربـي علـى هـذا الشعب الكريم .

وصناعة أخرى هي أوراق من الذهب توضع على رأس الفتاة ، وتسمى باللهجة الشعبية «قحفيه» - أي قلنسوة لأنها تغطـي شـعر المرأة ، ويتهدل الذهب المنظم في سلك على طرف رأسها قريـب مـن جبهتها ، ولباس هذه الحُلية لا يستسيغُها ذوقي ، فهي في رأيي تشـوه جمال الفتاة ، وانقرضت كأمسها .

وقد تفنن الصواغ الماهرون في أساليب هذه الصنعة ، وطوعـوا السبائك الذهبية ، والفضية في أساليب أعمالهم بـألوان مـن صـور الفن الساحر الذي يسمر الأبصـار ، وتشـرأب لـه الأفئـدة ، وقـد انقرضت هذه الصناعة مع أمسها القريب .

وما دمنا نتحدث عن الصنعـة الذهبيـة الّتـي يعشـقها الجنـس الرقيق اللطيف ، فيحلو لنا أن نذكر صناعـة كـانت تمتهنهـا بعـض النساء وتعيش من كسبها ، وهي صنعة الوشم الّتي أُخِـذت أيضـا

من طبيعة البلاد العربية القديمة من عهد الجاهلية، وكانت تعشقُها النساء.

والوشم هو أن تعمل الواشمة في ظهر الأكف، أو بين الحواجب لوناً أخضر يؤلف من حروفٍ أو نقاط، وعلى أسلوب هيئة فاتنة لا سيما في أكف البيض، حتى تغنى الشاعر الجاهلي طرفة العَبد فقال:

لخَوْلــةَ أطــلالٌ ببَرقــة ثهْمَــدِ تلُوحُ كباقِي الوَشْمِ في ظاهر اليـدِ

وهذه الصنعة قد انتهت منذ ثلاثين سنة، أو تزيد، أو تقل، وانمحت من أرضية القطيف، ولا تزال فتيات ونساء من القطيفيات، يعشن وهن يحملن هذا الشعار التاريخي الجاهلي.

وصناعة النجارة، والنجارون هم وطنيون يصنعون الأبواب، والشبابيك، والأسرة، والمناضد، كما يصنعون هياكل تحفظ الشربات، يجعلون بها ثُقُوبًا لوضع الشربة فيها، وتسمى - باللهجة القطيفية -: «تختة الشربات» - أي مركز وضع الشربات - حيث تنزل الشربة في ثقب منها فلا تتحرك الشربة، ولا تميل.

وتفننوا في أسلوب هذه الصناعة البدائية بمقدار طاقاتهم، ومادتهم الخشبية المحلية، وهي من خشب قضوب اللوز، وشجر النبق، وما يماثلها من الخشب الذي يزرع في حقول القطيف، فعاشت هذه الربوع على هذه الصناعة ردحاً من الزمن، وقد انقرضت.

وصناعة الحياكة ، فالحائكون : هم الذين يحيكون المشالح ، والعِبي ، ولم يكن لهم دور كدور الصاغة ، والنجارين ، لأن صناعتهم كانت بدائية البدائية ، بل هي أقل بكثير من قولنا بدائية البدائية ، وكانت تبتاع إنتاج هذه الصناعة الطبقة الفقيرة ، لتلتف بها لتقيها من ليالي الشتاء القارصة ، حيث تمر على هذه الربوع موجات شتوية قاسية ، وقد انتهت هذه الصناعة ، ولحقت بغيرها من الصناعات الأخرى .

وصناعة الخبز ؛ والخبازون : هم قطيفيون كانوا يعدون بكثرة كاثرة ، ويديرون صناعتهم بأنفسهم ، حيث يبتاعون الحنطة ، ويطحنونها في مدارات .

وهذا المدار يؤلفُ من رحى كبيرة تديرها أتن بعد تدريبها على هذا الأسلوب العملي ، فيحولون الحنطة إلى طحين ، فيعجنونه في إناء كبير حتى يعود خميرة من العجين ، فيقرصونه ، ويدورونه دوائر .

وله أداةٌ تحوله وتفرشه كالدائرة ، وهي أداة خشبية تسمى : محوراً - وباللهجة القطيفية - مِحواراً يصنع في مصانع مناجر القطيف لأنها تفرش العجين ، وترققها ؛ فبينما تراها في يد الخباز كالكرة إذ انداحت بهذا المحوار الذي باليد قطِعاً رقيقة مدورةً ، وتحورها ليسهل نضجها إذا ما أدخلت في النار ، فيضعونه في التنور بعد تحويرها .

والتنور يحفرُ له حفرة عميقة في الحانوت الذي يباع فيه الخبز ، ويوضع فيه إناءٌ مصنوع من الخزف يصنع في القطيف يماثل

«الجحلة» ، حتى يجيء الخبز نظيفاً ، ويسجر فيه الخباز النار ، وقودها : التلة ، والكرب ، والسجّين ، وهي قطع تُؤْخَذُ من جذع النخل الموات ، فيضع القرص المدور ، ويلصقه على دائرة ذلك التنور ، وكلما نضج قرصٌ أخرجه من التنور بأداة حديدية تشبه الملعقة تسمى - باللهجة القطيفية - «مقشرة» فهي تقشرهُ لأنها تزيل ما علق بهذا التنور من سُخام ، ثم يضعُ قرصاً آخر .

وهناك محل لتجميع الأقراص الّتي يخرجها من التنور للمستهلكين لبيعه ، يسمى - باللهجة القطيفية - «باش خون» ، وهذه كلمة تركية ، أو فارسية .

غير أن هذه الصنعة بقيت حتى يومنا هذا ، إلا أنها تبدلت للتطور الذي دخل على المخابز بالأسلوب الجديد المتطور ، بفارقٍ عدم ممارسة هذه الصنعة أيدي قطيفية ، فأصبحت هذه الصنعة تمارسها أيد غير سعودية والكثرة الغالبة لممارستها أيدٍ هندية ، فالهنود أصبحوا اليوم هم الخبازون الذين يديرون أكثر هذه الصناعة ، ولا تحتاج اليوم إلى وقود حطبٍ كالأسلوب الذي كانت تدار به سابقاً .

وصناعة الفخار قد أشرنا لها في صفحات هذا الكتاب ، وأعطينا عنها لمحة .

وهناك الصنعة الّتي يتكون منها بناء البيوت ، وهي «صنعة الجص» ، تعمل بيد قطيفية تعيش عليها شريحة من هذه الربوع ، ويشترك في صنعتها شرائح مختلفة تبحر بسفنها لإخراج الحصى من البحر ، وأخرى تستخرج الطين على أتنها من البحر ، وآخرون

يحولون هـذا الطـين إلـى جـص ، بعـد أن يجمعـوا مـوات النخـيـل ، ويفصلونها قطعاً تسمى : «جزماً» - مفردها جزِمة باللهجة القطيفية .

فيرتبونها علــى أُسـلوب فنـي ، فيضعـون كومـاً مـن الطـين في وسطها ، ويغطونها بالجزم حتى لا يظهر منهـا شـيء ، وتـدور الجِـزَمُ عليها كما يدور السِوار علـى المعصـم ، ويشـعلون فيهـا النـيران ، وبعبارة جامعة فإن هذه الصنعة تستفيد منها عدة شرائح من مجتمـع القطيف ومُدُنها ، وقراها .

فشمال القلعة - حاضرة القطيف - قرابة سورها توجد مصانع يديرها حسن البيـات ، وآل الجصـاص نسبة لصنـاعتهم ، وغـرب بوابتها المطلة على بـاب الشـمال مصـانعُ بحـذاء النخـل المعـروف بالبستان ، الذي تحول اليوم إلى حي قصور يعرف بحي البستان .

فيطلـق علـــى العـــاملين في الجــص - نسـبة لصنعتهــم - : «جصاصون» - مفردها جصاص - ، وتسمى مصانعهم : «صيران» - باللهجـة القطيفيـة - لأنهـا تُصـير الفضـاء سـحباً كثيفـاً مــن الدخان ، والصار يتألف من مائة «جزِمة» أو أكثر ، ولا يكون أقل من خمسة وعشرين جزِمة ، وثمن هذه الكومة يزيد وينقص حسب ما يحرق بها من جزم ، وما يماثلها من الصناعـات الّتـي انقرضـت مـن هذه الربوع ، حيث قضى عليها الذهب الأسود .

وشريحة أخرى قليلة جدا هـي الطبقـة الّتـي لا تشـتغل تُعـرفُ بالملاكين ، وتعيش على ريع أملاكها ، وإدارتها .

وطبقة التجار الذين يتاجرون في المواد الغذائيـة وغيرهـا مـن سـلع الأكـل والألبسـة الذيـن يُعرفـون ب «الـبزازين» - حسـب

اللهجة القطيفية (أي بائعي الأقمشة) - ، وشريحةٌ من هؤلاء التجار هم الذين يستوردون البضائع من شواطئ الهند ، ومن غيرها فيبيعونها على التجار المحليين كالرز ، والسكر إلى غير ذلك من الأطعمة ، والألبسة ، والعقاقير .

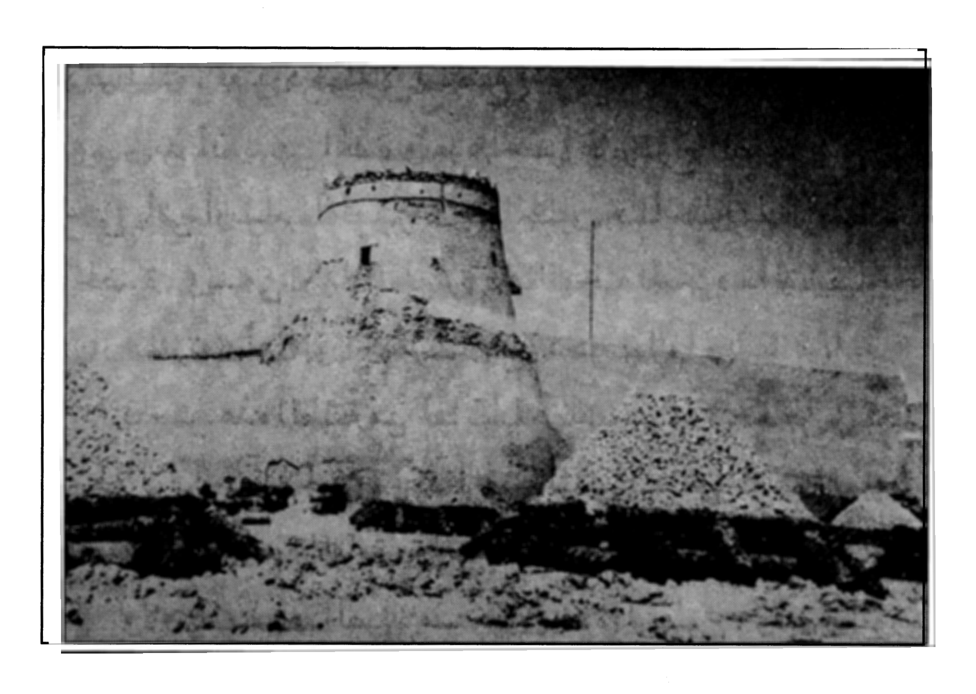
أما صيادوا الأسماك ، والربيان فهم ينقسمون إلى عدة شرائح ، فمنهم من يملك السفن الصغيرة ، فيبحرون بها مغامرين بأنفسهم تحت ضربات الموج ، وما يلقونَ من عنتٍ وأهوال ، وصعوبات ، فيصيدون الأسماك بعدة طرق كنصب «القراقير» .

والقرقور : يتألف من خشب الشجر ، يقطع ، ويعمل على هيئة مستودع صغير ، أو كبير ، له فتحة بحيث إذا دخل فيها السمك لا يستطيع أن يخرج لأن هذه الفتحة تسهل له الدخول ، ويصعب عليه الخروج منها لوضعها الفني ، ويربط فيه حبل يشد بالسفينة ، وينزل إلى البحر فيصطادون السمك ، والربيان عن طريق شبكات صيدٍ غير القراقير تسمى - في لهجة البحر القطيفية - : «الحدوق» ، حتى غدا مَثَلاً بين القطيفيين إذا خرج المرء لمهمة ولم يظفر بها قال : «حدقنا يا أماه» أي عادت شبكته بدون سمك .

وطريق أخرى بالسنارة بحيث يوضع فيها خيط ويدلى بها في البحر فيصطاد السمك ، وآخرون يصطادون بأدوات بطرق قماشية ، فيبتاع البحار قِطَعًا كبيرة من القماش ، من الأجناس القطنية حيث يقوم بصنعها ، وتخريقها ليسهل دخول الربيان ، أو السمك ولا يستطيع الخروج ، ويضع فيها قطع من الحبل في جهاتها الأربع .



صورتان تمثلان كلاً منهما لمنظرين من مصانع الجص



فيضعونها على أكتافهم، ويذهب بها الصيادون مشياً على أقدامهم بدون سفن، حتى إذا ما وصلوا إلى البحر العميق - ولكنهم لا يبتعدون كل البعد عن الشاطئ -، مدوا هذه القطع القطنية البيضاء في ثبج الموج، لصيد ما يتأتى لهم صيده، وما يكتبه الله لهم من رزق، وتعرف هذه في اللهجة البحرية باسم «الشُقة»، كأن اسمها اشتقَّ من الشقاء الذي يعانيه البحار، وبعد أن يصطادوا، ويرجعوا يجففون هذه القطع تحت أشعة الشمس ليعاودوا بها الكرةَ تلو الكرةَ.

وهناك أسلوب للصيد عن طريق «الحضور» - مفردها حضرة -، وهذه تعمل من السعف، وجريد النخل، وتوضع في البحر على محل ناشز منه بحيث يغمرها البحر ولا يغطيها، فالسفن الذاهبة والآيبة تبصرها، ويجعل فيها فتحات لدخول السمك، والربيان لاصطياده، فعند دخوله لا يستطيع الخروج.

وبعد أن ينتهي المد، ويعود الجزر لا يخرج الصيد مع المد حتى يأتي أرباب الحضرة عند الجزر، فيأخذون ما اصطادته الحضرة، ويسمى ارتياد الحضرة - باللهجة البحرية القطيفية -: «بارحضرته» أو «بور حضرتك» أي دخل لها وأخذ ما فيها.

فتعيش هذه الطبقة من حياتها الجهادية عيشاً متعباً من الكسب الحلال من عرق الجبين، وكد الجسم الذي يتعرض لتقلب الطبيعة، وفصولها الحارة، والقارة، وألوان الرياح، وأشعة الشمس.

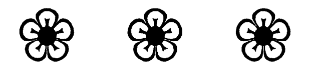
ولا تزال صنعة الصيد مستمرة في هذه الربوع، وقد تطورت بأساليب للصيد جديدة، كتطور العصر الجديد ليحل هذا

الأسلوب في هذا العصر محل الأسلوب القديم البالي ، فلا شقاء اليوم ، ولا مشقة ، ونقصد بالمشقة لم تكن كما كانت بالأمس .

ولسنا نريد أن ننفي عن هذه الطبقة التعب ، والأخطار ، إنما هناك مقياس ، وفارق بين اليوم ، والأمس ، فاليوم السفينةُ تسيرُ على محرك غازي يدفعها فتشق البحر غير محتاجة إلى ريح ، أما بالأمس قد تكون الريح معاكسة للسفينة فتسبب الأتعاب إلى طاقم البحارة ، فتجهدهم ، وتشقيهم ، ولا حاجة إلى مجداف اليوم فتكل سواعدهم .

وصيد الأسماك بهذه الطريقة خفف من أسلوب العَناء ، وأوجد هذه الثروة السمكية بكثرة في الأسواق ، فتوفرت أكثر من ذي قبل ، لأن السفينة الّتي تسير بمحرك ، وعلى الطرق العصرية تقطع مسافات أكثر وأسرع من السفن الشراعية الّتي لا محرك لها ، لذلك توفر صيد الأسماك ، والربيان بالرغم من الزيادة البشرية عن ذي قبل بأضعاف مضاعفة ، غير أن الكسل ، والإتكالية سرت كما يسري الدم في العروق فمشى إلى الطبقة العاملة في القطيف ، حتى أفسحوا المجال إلى الهنود ، وغيرهم من الجنسيات الأخرى ليحلوا محلهم .

وبرغم التطور الذي جدّ على صيد الأسماك ، فإن القطيف لا يزال به السوق الرئيسة ، التي منها تمدّ مدن المملكة والخليج بوافرٍ من هذه الثروة الحية - السمك ، والربيان .





أيام في جزيرة تاروت

إن جزيرة تاروت - كانت في الماضي - تصدق عليها كلمة جزيرة، فهي جزر تتألف من قطع، أو أشرطة أجزاءٍ بحرية على شاطئ بحر القطيف، وهي جزءٌ منه فصلها البحر ولا طريق لها من اليابسة لدورة البحر عليها من جهاتها الأربع، قبل أن تنشأ الدولة الشارع البحري التي ربطها بالقطيف الأم حيث تم إكمال هذا الشارع عام الثاني والثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية.

وتتألف هذه الجزر من تاروت الأم، وداربن، والزور، وسنابس، والربيعية، وكانت تاروت عاصمة هذه الجزر المشار إليها، الّتي سماها الفينيقيون: «عشتاروت» - آلهة الحب والجمال -، وما أظهره التنقيب بين أطلالها يدل على أنها كانت مركزاً لآلهتهم، فقد عثر المنقبون على بعض الدمى الّتي غابت وراء هذا التراب، فهي دليلٌ على تسميتها بعشتاروت وحرفت إلى تاروت لأنها مركز لآلهتهم.

وفي تاروت آثار تاريخية منها: حمامها الأثري التاريخي القديم المبني على بناء فني، ويجرى ماؤه في جداول منحوتة

بين الصخور في عُمقٍ من الأرض ، وقسم من هذه الجداول مغطاة ببعض من تلك الصخور ، والماء ينساب من تحتها .

فيستحم المواطنون تحت هذا السقف الصخري ، وبين دكتين مغلفتين بصخور طبيعية منحوتة نحتاً فنياً ، والماء يجري بتيار أمواج متدفقة لا يكاد الرجل أن يقف أمام تياراتها ، وتعلو هذا الحمام قبة صخرية بنتها يد صناع ، وبداخله مقهى يدير فيه شخص أقداح الشاي للمستحمين لمن طلب منه قدحاً ودفع ثمنه .

ومن أثار تاروت القلعة الفنية التي تجثم ببرجها على نسجٍ بقرب الحمام الأثري ، عندما تمر من بوابة مدينة تاروت تقع هذه القلعة الأثرية على يدك اليمنى ، وهي من القلاع الأثرية التاريخية التي لا تزال شامخةً بهيكلها الفني برغم ما لحقها وعلق بها بعض الدمار من مرور الجديدين اللذين لا يرحمان .

أما دارين فكانت في أيام الجاهلية ميناء للجزيرة العربية - أي ميناء هذه الربوع ، ونجد - وكانت ترد البضائع لهذه الربوع عن طريق شواطئها ، كالتوابل ، والعطور ، والأطعمة ، ويصدر منها ما تنتجه القطيف وقراها ومدنها من خيراتها الزراعية ، ومن صناعاتها المحلية .

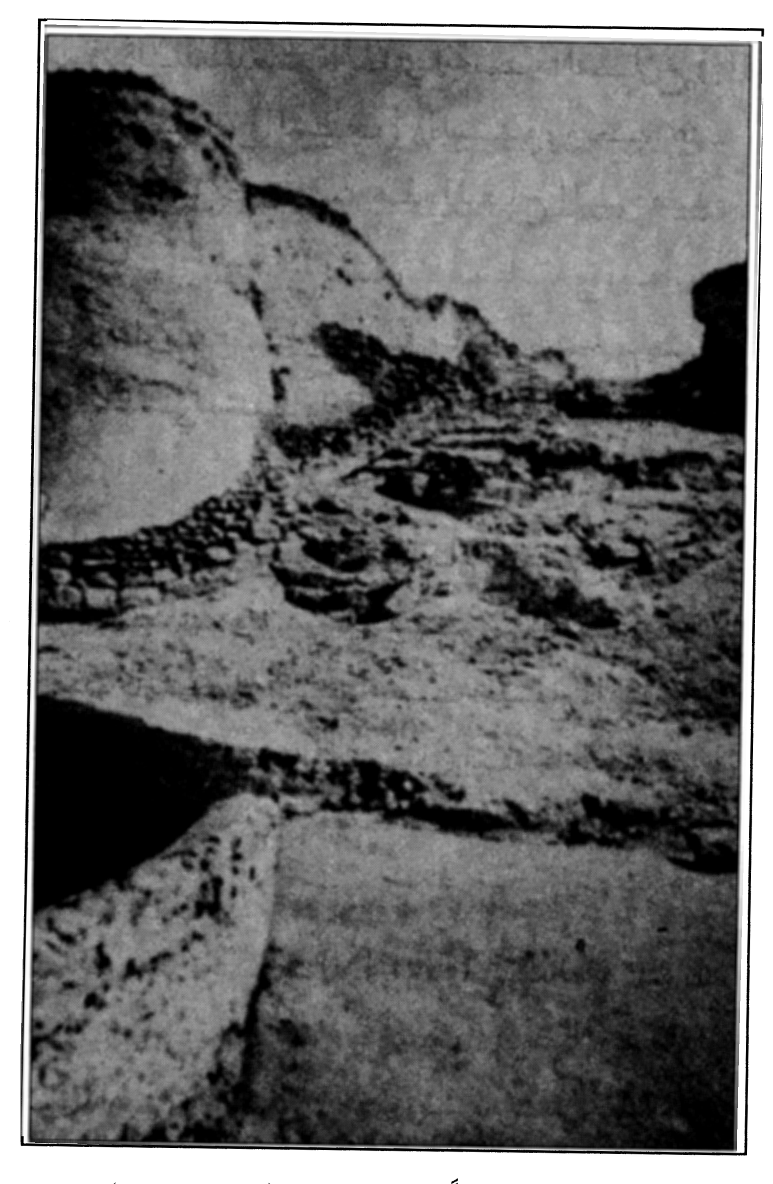
فإن القطيف واحةٌ خضراء تموج بأحلام سعيدة ، ومجد زاخر له دور عميق في التاريخ البعيد ..... البعيد ، حيث

كانت مركزاً حضارياً ، وفيها تُقوم الرماح - إحدى أدوات الحرب في ذلك العصر الذي انحصر السلاح في الأدوات الثلاث ، الرمح ، والسيف ، والسهم ، ويعبر عنه اليوم بالسلاح الأبيض - ونسبت هذه الرماح إلى هذه البلاد فقيل : الرماح الخطية .

فكانت دارين المرفأ الرئيس ، تموج بتضخم بشري يحتشد في أسواقها الّتي تستقبلها في مواسم تشبه موسم عكاظ ، أو المربد .

ولكثافة هذا التكتل والإزدحام يستغل السراق بائعوا الضمير الحشد الموسمي ليمكنهم من عمليتهم الدنيئة ، فيختلسون كالشبح البغيض تحت جناح البشر المكثف ، فيسرقون ما أمكنهم من السطو عليه كالخفافيش في موج الظلام .

* * *



صورة تمثلُ منظراً لهذه القلعة (قلعة تاروت)

وما كانت هذه السوق لتقصرَ على الحياة المادية، بل كانت أفقاً فكرياً، وسماءً تلمع على أديمها عقول تدير فيها مواسم شعرية، يتساجل الشعراء فيها بأشعارهم، ويتبادلون أفكارهم، ويذيعون مكنون أسرار حبهم في أشعارهم كالفرزدق، فهي في طبيعتها وسيرها كالصحافة، والمذياع عندنا اليوم.

ويغتنم السراق إلهاء الناس بتجارتهم المادية، والفكرية، فيسرقون بعد أن عبروا صحراء الدهناء إلى دارين خالية حقائبهم، ويعودون منها مملوءة، حتى قال شاعر جاهلي يصف واقع هذه الحياة الماضية بمرفأ دارين:

يمرون بالدهنا خفافاً عيابُهم ... ويخرجن من دارين بجر الحقائبِ

على حين ألهى الناس جل أمورهم ... فندلاً زريق المال ندل الثعالبِ

إل الشاعر يصور في هذين البيتين الحياة المتحركة، والمزدحمة في ذلك العصر على ضفاف الخليج على أرض دارين القطيف الّتي عادت دارين اليوم ساكنة تقوم على أرضها بعض البيوت في هدوء وصمت، سوى أمواج البحر الّتي تشق هذا الصمت عندما يطغى مده.

وكان البلغاء، والشعراء في العصر الجاهلي إذا مدحوا عطراً قالوا: «عطرٌ داري» - أي منسوب إلى دارين - كما شبه الشاعر الفرزدق حبيبته بعطرٍ داري، وقد بقى هذا التشبيه بعطر هذا المرفيء أزماناً طويلة؛ حتى عثرتُ وأنا أفتش في بطن تاريخ القرن الرابع من الهجرة على قول شاعر كبير، يصفُ قارورة عطر كأنها عطرٌ داري، يضوع من سماء قبب هذه البيوت للشاعر الشريف الرضي:

أمسوا كأن لطائماً داريّةً باتت تضوع من القباب وتنفحُ

وصورةٌ متحركة تمثل هذه الحياة في حرفٍ يضيءُ ليلنا المبطن بالضباب في صفحات التاريخ ، حيث قال شاعرنا الكبير الشريف الرضي :

يهدي إلينا شفعها ووترها عياب دارين حملن عطرها

وقال قبله أبو نواس :

فيه مدام كعين الديك صافيةٌ من مسك دارين فيها نفحة الغار

وهذا التغني هل بقي حتى إنتهت هذه الحياة من المرفيء ، ويبست على صخوره ؟ ! . . . أم صمت هذا اللحن ويبس على لُهات مغنيه ، وملحنيه لا ندري في أي تاريخ ، وأي زمنٍ ؟ ! . . . والله أعلم بالحقائق .

ولا نريد في هذه الحروف المختصرة أن نتحدث عن الحركة التاريخية في هذا المرفأ ، وتطورها ، وكيف تحرك التاريخ ، ومتى سكن ولكنها لمحة موجزة عن شريانٍ حيويٍ من قلب القطيف حتى نعطي صورة متحركة لهذه الجزيرة في ذلك العصر .

سبق أن قلنا إنّ تاروت أو عشتاروت هي جزيرة لا طريق لها إلا عن البحر ، وطريق البحر هذا إن كان مداً فالوصول لها بالسفن عن طريق دارين ، وان كان جزراً فالوصول لها على ظهور الخيول أو الأتن .

لقد ذهبتُ مع والدي إلى هذه الجزيرة طفلاً ، ويافعاً ، وشاباً ، في رحلاته الإرشادية الدينية الّتي تستغرق طيلة أسبوع نقضيه على

أرضها ، وفي ظلال نخيلها ، وبساتينها الّتي تميزت بجودة فاكهة النبق ، ويسمى في اللهجة الشعبية القطيفية : «الكنار» .

وعندما كنت طفلاً أذهب في عهدة خالي علي عبد الوهاب الغانم ، الذي لم أعثر على تاريخ ميلاده والمتوفى عام واحد وخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجرية حسب ما رواه لي الخال حسن عبدالله الراشد وعلي المذكور هو خال الوالدة شقيق أُمها ، وقد أشرت لرعايته وحدبه عليَّ منذ وضعتني أمي على هذا الكوكب ، حتى اختاره الله في العام الذي أشرنا إليه ، فجزاه الله خير ما يجزى والدٌ من وَلده .

فكان حارساً ، وملاكاً أميناً ، يحافظ عليَّ ، وحتى عندما يهدأ الليل ، وتسكن الحركات البشرية ، وتصمت العصافير ، والطيور ، وتذهب إلى أوكارها لم يكن جفنه يداعبه النوم إلا سِنَة كالظل الزائل لشعاع الشمس ، فيبلغ به الحنان ، والعطف ، فيضم سريري إلى جنب سريره ، ويجعل لي حواجز خشبية لئلا أتدحرج فأسقط إلى الأرض ، ويتكفل بكل ما أحتاجه من استحمام ، أو تبديل ملابس إلى غير ذلك ، لأنني في ذلك الدور لا أستطيع الاستقلال والعمل الانفرادي .

وفي كل أمسية من أمسيات أيام الرحلة نذهب إلى الحقول ، وكانت هذه الرحلة يرتبها فضيلة العلامة الشيخ منصور آل سيف ، أحد تلاميذ مدرسة الإمام أبي الحسن الخنيزي ، وعشاقه ، ومقلديه في فروع الفقه والأصول ، وأحد ركائزه وطلابه المتخرجين على يده ، وبيته الكبير مأوى للضيوف ، ومركز للإمام الخنيزي عندما يذهب إلى هذه الجزيرة ، ومن تبعه في رحلته ، أو جاء له في أثنائها .

فالشيخ منصور بن عبدالله آل سيف كان أحد علماء القطيف من الذين حازوا على فضيلة تقارب المراهقة لدرجة الاجتهاد ، وهو شعلة ذكاء ، متزن الخُطى ، والكلمات ، على وفرة جهادية في سبيل حياة وطنه الاجتماعية والسياسية ، فقد كان له شوط مجدٍ صعد به إلى القمة ، وتوفي في شهر الحج عام الثاني والستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية .

ويرغم الأزمات الاقتصادية الخانقة الّتي لا يكاد المرء في ذلك الظرف أن يتحصل على بعض القوت ، فالناس تعيش في حياة جدب مريع ، لم تمنع فضيلة العلامة الشيخ منصور آل سيف - الذي يفيض سخاء ، ولا يحسب للفقر حساباً ، فهو كالوردة تذيع عطرها في كل آن من الأعمال الخيرية ، فبيته المرتكز لأبي ومن معه في رحلاته لهذه الجزيرة .

كما أن الشيخ منصور هو الذي ينظم مسير الرحلة ، وتخطيطها في سيرها في : تقسيم المآدب في العشاء ، والغذاء ، والعصر في الحقول والبساتين ، فأما الحركة الدائمة فهي في بيته مع وجبة الإفطار ، كما يصدر منه تنظيم جلسات الأمسيات - ونقصد بها العصر - في النخيل ، والجوازر .

والجوازر هذه هي حقولٌ تُسقى من الآبار عن طريق الحمير ، أوالثيران ، وكيفية طرق السقي لهذه النخيل :

يضع الساقي «نيراً » على رقبة الحمار ، أو الثور ، يتألف هذا النير من ثلاث أخشاب ، أو خشبتين ، ويوضع حبل طويل يشد في النير ، ويمتد إلى رقبة الثور ، أو الحمار ، بعد تمرينهم على هذا

العمل ، ويكون آخر الحبال مشدوداً في دلاء ، وهذه الدلاء ينزلها الثور ، أو الحمار إلى أعماق البئر .

وعندها يستخرجُها مملوءة بالماء ، ويريقه في قناة ينساب منها إلى سقي البساتين مدة الوقت الذي قسمه الفلاح عليه ، وعلى غيره من الثيران ، أو الحمير الّتي تصلح للسقي .

ويوضع فيه جرس يكون له موسيقى سنفونية عذبة ، تتألف من ألحان يطرب لها السمع ، وتهبط على الأذان بلا استئذان ، لذلك سميت ب «الجوازر» - في اللهجة الشعبية القطيفية - ، وكلما صدحت هذه الألحان أطربت الساقي ، فيتحرك في الذهاب ، والإياب ، فيستمر في سقي البساتين .

أما الزراعة الّتي كانوا يمارسونها ، ويعتنون بغراسها الّتي تدر عليهم أكثر نفع مادي ، فهي زراعة البرسيم ، والنخيل ، وشجر النبق ، واللوز وبعض أشجار الفواكه كالرمان ، والتّين ، وما يماثلها .

فهناك تحلو الأمسية ، وتزهو بما فيها من متع خضراء تظهرها الطبيعة بدون رتوش .

تلك الأمسيات لا تزال صوراً متحركة ، وعواطفَ يشدني إليها الماضي شداً وثيقاً ، وكأنها مناظر تموج بألوانها الزاهية أمام عيني ، وفي مُخيلتي ، وعلى صفحات دفتر الذكرى .

وتعود بي الذكرى - وما أعذب الذكرى - من الدفتر المشار إليه إلى إحدى الأمسيات ، ونحن نسير من بيت العلامة الشيخ منصور آل سيف ذي الكرم الفياض ونتروض على أقدامنا إلى

أحدى البساتين ، أو الدواليب الّتي تُسقى عن طريق النواضح ، فتُسمع أصوات النواعير كأصوات الموسيقى ، فيكون لها ذلك الوقع الشيق .

وتكون الجلسة على ضفة الجدولِ المتدفق بالماء ، وبين البرسيم الأخضر - أي القت - ، وأشجار النبق ، أو بين الدوالي ، وعرائس النخيل وعند ضفاف جداول المياه ، فتدار علينا أقداح الشاي في أكواب زجاجية رقيقة يُرى ظاهرها من باطنها ، ويعمل الشاي بطريقة فنية حيث يكون عمل الشاي بأدوات فنية كالسماور .

والسماور - لغة أجنبية - يعرف بين أبناء القطيف ، له محل خاص يوضع فيه الماء ، ومحل يوضع فيه الفحم ، والنار ، حتى إذا غلى الماء وضع الشاي في الإبريق .

وللسماور أنبوبة تتصل بالجمر الذي يتقد ، وبعد أن يتقد الجمر تُزال الأنبوبة وتوضع سلة محلها ، ويثبت إبريق الشاي على هذه السلة ، ويغطى الإبريق بغطاء من القطن ، أو الحرير ، معمول بطريقة خاصة لهذه الأباريق الّتي تختص بالشاي .

فإذا ما تهدر الشاي ، أي بلغ شوطه في الاستواء أداره الموكل بعمل صنعته الفنية ، لأنه يحتاج إلى ذوق سليم في تركيب مقدار الشاي مع مزجه بالماء .

وترى السماور ذا اللون الذهبي ، أو الفضي يزهو في ذلك المجلس ، أو النادي ، فيزيدُ الأمسيةَ روعةً على جمالها ، فتدار من ذلك السماور الأقداح ، كما لهذه الأقداح صحون ذهبية يوضع فيها القدح الخاص ، وملاعق فضية ، فهي في ذروة الأناقة .

وصنعة الشاي بهذه الطريقة تقلصت في هذا العصر، لأننا في عصر السرعة المادية الّتي لا تعرف لذة للجمال، والمعاني.

وكان الإمام الشيخ أبو الحسن الخنيزي يزين صدر ذلك النادي، ويدير الحركة العلمية، والفكرية، والحركات الأدبية والتاريخية، معه نخبة من رجال الفكر والعلم، تنطوي تحت جناحه، فتستفيد وتشرب من معين معارفه الّتي أفاضها الله عليه.

وكانت لي إحدى الذكريات في دولاب الفاضل الشيخ محمد تقي بن سلمان المعتوق، حيث وجه أبي سؤالاً نحوياً يتعلق باللغة العربية للشيخ أحمد بن الشيخ منصور آل سيف، فحار صمتاً، فأسرعت إلى الجواب وحللت المسألة، فخشي أبي على تأثر شعور الشيخ أحمد بن الشيخ منصور آل سيف - لأنني حللت المسألة، وأنا صغيرٌ وهو رجلٌ متزوج ذو أولاد - فأراد أبي أن يخفف من صدمته الشعورية فقال: إن هذا السؤال غير موجه لك، فأجاب الشيخ منصور أبي: إن المسائل العلمية لا يختص بها شخصٌ دون شخص، أو كبير دون صغير.

وهكذا دواليك في كل أمسية نقضيها في بستان آخر - أو دولاب كما يسميه قاطنوا جزيرة تاروت -، نستمد من معرفة الإمام الخنيزي العلمية، ونتمتع بهذه المناظر الطبيعية السحرية الّتي تبعث المسرات في النفوس، والصور الشعرية في الأفكار، ولكنه - يا للأسف ولا يفيد الأسف - قد تحول أكثرها إلى قصور في هذا العصر، وزالت تلك الروعة الفتانة الجذابة، وأمحت معالمها الزاهية.

وحتى ذلك الحمام الأثري، الذي قلّ أن تشاهد له في هذه البلاد نظيراً، سكن، وتعب عن هذه النغمات، وما فيها من أغاني، فسكت اليوم والتحف الثرى، فهو لا يسير، ولا يغني، وقد كان يسقي الزروع، والنخيل، فهو يغذي، ويروي أكثر حقول تاروت إن لم يكن كلها يعيش على مائه، فهو يشبه الماء المعدني، أو الكبريتي، وله نظيرٌ حمامٌ ثانٍ في القطيف يسمى: «حمام أبولوزة»، الذي أعطينا عنه لمحة سابقة.

ونريد أن نظل ونبقى نسيرُ في جزيرة تاروت لنكمل خيوط هذه الذكريات الحالية نغني مع نواعيرها كأغنية العصافير على ذرى شجرها النبقي.

ونكمل الحديث عن رحلتنا الّتي تشبه الظل الذي يُنسخ عند الزوال، عشرة أيام نقضيها في هذه الجزيرة في رحلة شيقة مع والدي الإمام أبي الحسن الخنيزي - وأنا يافع - لا أود أن تنتهي هذه الرحلة لأنها تعفيني من الحضور إلى الدرس، والتدريس في الكتاب.

فهي انطلاقة للمرح الذي يرغب فيه الطالب، ويفر إليه من مدرسته الضيقة المحيط، والمحاطة بالأسوار إلى أفق أوسع، وأرحب فضاء، ولاسيما إن وضع الكتاتيب ليس فيها فسح، أو بعض التسليات للمتعلمين فيها، إنما هي كسجن، فمنذ تحينُ ساعة الدخول لا تخرج منه إلا بانتهاء الدوام، فلا تملك فيه حرية، ولا تنفس، ولا بسمة، أو مرح، أو فسحة، إنما هو حصار للتلميذ في درس متواصل على أسلوب الطريقة القديمة.

ويرغم أن هذا الكتاب الذي وصفته سابقاً ، كان متطوراً في أساليبه إذا أخذنا الكتاتيب الّتي تشبهه في التعليم في عصره ، فكانت فرصة لي للتخلص منه ، لأنطلق تحت أشعة الشمس نهاراً ، وأضواء القمر ليلاً ، وفي هذه الجزيرة البحرية الّتي تجمع بين منظر النخيل ، والزراعة ، والبحر ، وصيد اللؤلؤ ، والأسماك ، والربيان ، وممارسة ألوان التجارة .

فكانت الحياة في هذه الجزيرة حياة نشاط ، وجد تفرضها عليهم لقمةُ العيش الّتي يعيشون بها ، ويتعبون من أجلها ، فأعمالهم أعمال شاقة ، ولهذا الإسلوب المعيشي يبكرون في النوم ، ويسبقون في اليقظة أضواء الفجر ، فهم قطعة من العمل لا تعرف التفتير .

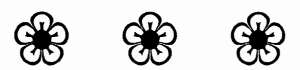
إن هذه الصور والذكريات صدى السنين الحاكي ، طالما قفزت من أجفان الماضي فتشدني إليها حياتي الحاضرة ، فأستحضرها مجسدةً أمام عيني كأنني أعيشها ، وأنا لهفة شوقٍ لها ، ولا يجدي الشوق ، غير أن تلك الذكريات لا تمحى ، ولا تُنسى .

ففي تلك الأمسيات الغالية ، يُلقي الأصيل حلَله الذهبية الفضفاضة على عرائس النخيل ، وقمم الأشجار كاللوز ، والنبق ، وتنسكبُ تلك الحِللُ على موج البحر فتشاهد منظرًا رائع الألوان ، فكأنما هناك يدٌ تُسطّرُ ، وتسجل أسرار الحياة لمبدع هذا الكون الخالق الأزلي الأول ، الذي لا أولية له ، والآخر الذي لا آخرية له ، كما عبر مولانا وإمامنُا زين العابدين سلام الله عليه .

وبعد أن أطوي ذكرى أيام هذه الرحلات ، وأعود إلى بيتي أظل أنهبُ ذكرياتها ، وتتراقص على أجفاني أشباحُها ، وكنت أودّ

لو لم تقطع فصول هذه الرحلة ، وأظل أعيش في آفاقها بدون أن ينقص من حلقاتها أيُّ حلقة ، ومن غير الممكن أن تستمر الحياةُ على هذه الصورة ، فالحياة لها ربيع ، وخريف ، وخريفُها أكثُر من ربيعها .

وليست الرحلة الوحيدة هي للجزيرة ، فهناك رحلة أخرى بين الحقول ، والعيون ، والدوالي في قرية الجش بالقطيف ، هي ذكرى من الذكريات الغافية على صدر الزمن البعيد ، وسوف نوقظها من سُباتها ، ونحركها لنتحدث عنها ، لعل فيها بعض التجارب ، أو الفائدة .





تحت الظلال الخضراء

كُنت ، وكانت لي ذكريات عذبةٌ ، تراودني أطيافها ، وتوقظني أحلامُها كأنها شريط سينمائي متحرك ، يصور مناظرهُ الملونة أمام عيني ، كأن تلك المشاهد تتسلسل بأضوائها ، وأمسياتها ، وليلها ، ونهارها ، تتعاقب كيومي الحاضر على منظر مسرح الذكرى ، وأنا أشاهد أبي كالنور المتلألئ يشرق في صدر النادي ، ويفيض على من حوله من معارفه ، ويغذيهم بالغذاء الروحي ، والفكري .

لم تزل هذه المناظر تتحرك ، وتتجسد حينما كنت أقضي مع أبي في رحلته الإرشادية الدينية الّتي تستغرق عشرة أيام ، نقضيها بين المروج ، وعرائس النخيل ، وأشجار الليمون .

فكانت الجش واحة خضراء بعيونِها ، وبساتِينها الغناء ، ومن العيون ثلاثٌ على أبواب بيوتها تسمى عيون البلد ، ماؤها صافي يشف عما في قاع تلك العيون ، ويتدفق تياره قوة ، فينساب في تلك الجداول ، وهو يغني الحياة فتنبت أرضها الشجر ، والثمار .

وهنا يحلو لنا الاستحمام في تلك العيون ، وتتولد عندنا الرياضة البدنية عند العوم في الماء ، والقفز والسباحة من دون أن نقصد الرياضة .

فالجش - هذه كما عبرتُ عنها - واحة خضراء تميس بحقولها، وأشجارها، وخرير جداولها الّتي تنبعث من عيون السيح، وهي كثيرة على حجم هذه البلدة الصغيرة، فهي تضم عيوناً كُثر غير الثلاثِ المُشار إليها.

فهناك عين تسمى: «الدالوه»، ويسمى ذلك الفريق الذي توجد فيه باسمها، وعين الدالوه تُعد من العيون الضخمة التي يعيش عليها قسم كبير من الحقول.

وواحدٌ من جداولها أشاد عليه أبي حماماً مسقوفاً من جذوع النخل، ومصاناً عن لسعات البرد في الشتاء، كما أخبرني أخي العلامة الشيخ عبدالحميد الخنيزي الخطي أن والدنا هو الذي أنشأ هذا الحمام، وفي هذا الحمام كنت أستحم مع أبي، وكانت هذه العين واسعة الأرجاء عميقة، وتقع في وسط مسجد يسمى باسمها، وسقفها السماء لأنه لا سقف لها.

لقد تحركت أمام عينيي هذه المناظر الّتي عفى عليها الزمن، وأصبحت في خبر كان.

وكان المركز لرحلة أبي إلى هذه القرية هو بيت حسن أحمد سنبل، ذي الكرم، والشهامة قبل أن يتوفاه الله، وبعد وفاتهِ خلفه ابنهُ أحمد سنبل، ولم أعاصر الرحلات الّتي يقوم بها والدي في عصر حسن سنبل، إنما أصف ما شاهدته مع أبي من مناظر متحركة في هذه القرية الريفية.

فكان أبي يسكن في بيت أحمد حسن سنبل، وكان هذا الشخص ذا كرم فياض، ولا تقصرُ شخصيته على الجش، بل هو من

شخصيات القطيف - المولود في شهر ربيع الأول عام ستة وعشرين بعد الثلاثمائة والألف للهجرة كما ذكره لي، وتوفي في شهر رمضان المبارك العام الثاني عشر بعد الأربعمائة والألف هجري.

وكان له دور في النضال الوطني مع زملائه كعلي بن حسن أبو السعود، والشيخ حسن الشيخ علي الخنيزي، والعلامة الشيخ محمد علي الجشي، وغيرهم، وامتد نضالهُ الوطني حتى مع أبنائه سناً فهو يشاركهم، ويعياشهم، فكم اشترك مع كاتب هذه الخيوط في رحلات وطنية رحلناها إلى عاصمة المملكة الرياض.

فأحمد حسن سنبل يتمتع برأي بعيد النظرات في الحياة، فهو مناضل وطني، وصادق الضمير، أخلصَ لبلادهِ، ولقريتهِ الجش، وقد عاش ردحاً من الزمنِ عمدة لها، فرحمه اللهُ، فقد خَسرنا عضواً عاملا طالما اشترك معنا في تلك الرحلات الّتي أشرنا إليها.

وليس الحديث يدور عن هذه الرحلات فهي كثيرة، وهي من خيوط هذا الكتاب، غير أنني أريد أن أتحدث عن هذه القرية الريفية، والأيام الممتعة الّتي مرت بنا كمثل البرق، أو كطيفٍ من طيوفِ أيامِ الربيعِ، تحس بذكراه، ولا تشم عطوره، ولا تُداعبكَ نَسماتهُ.

هذه القرية الريفية كانت الحياة فيها بسيطة لم تكن مركبة، أو معقدة، فقاطنوها قد أغرقهم الفقرُ، وكدهمُ العملُ، فأكثرهم فلاحون يعيشون على الحقول، والنخيل، وأقلية تمتهن الصيد العمل البحري.

فكان أكثرهم لا يملكُ حذاءً، ولا يملك غير الثوب الذي يرتديه الذي يكادُ أن يفر من جِلده لكثرة ما ارتداه، وهذه الظاهرة

الّتي قاسوها أعطتهم طاقات من الصبر بحيثُ يتجرعون منها ، وهم يعيشون في شظف من العيش ، ووابل من الفقر .

وبرغم ما يعانوه من قسوة هذه الحياة ، كان أبى يذهب إليهم لا طمعاً في مالهم ، ولا حياة ناعمة مترفة عندهم ، ولا ظل نعيم في بيوتهم ، فهم يسكنون أكواخاً في الحقول ، أو خارجها ، لأنهم لا يملكون من ذلك شيء .

إنما هي رغبة منه في تعليمهم ، وإرشادهم لما ينفعهم في دينهم ، ومشاركته في شظف عيشهم ، لتخفيف ويلاتهم في هذه الحياة الّتي يفرّ من ميدانها الأبطال الذين لا يحملون سلاح العلم ، والإيمان ، والصبر .

روى لي أخي الشيخ عبدالحميد : أن أبي - لما يتمتع به من تقوى - ألّم به حرج وقلق نفسي ساوره لو كان حب المال لمجرد إنفاقه في سبيل الله هل يجرح التقوى أم لا ؟ .

فعرض هذا المطلب العلمي النابع من القلق النفسي الذي منشأه خوف الله - وهو المجتهد الأكبر الذي لم يطأ عالمٌ هذه الربوع مثله حتى يومنا هذا - عرض هذا المطلب على تلاميذه ، فأجابوه بعد المناقشة : لانرى في هذه الوسيلة في حب المال لإنفاقه في سبيل الخير جرحاً للتقوى ، فهدأ واقتنع ، وهذا أكبر دليل على تقواه ، وتواضعه الخلقي .

فتعاليمه لم تقتصر على الناحية الدينية فقط ، فطالما أرشدهم للنظافة ، والاستحمام ، لأن النظافة من الإيمان ، حتى يرشدهم بأسلوب مبسط تفهمهُ عقولهم بهذه الجملة :

ما عذركم يا أهل الجش ؟ ! ، كيف تحملون هذه الأوساخ على أجسامكم ، وثِيابكم ، وعلى باب قريتكم عيون ثلاث تجري بجداولها الدافقة ، الصافية ، الدافئة ؟ ! .

فهو يبين هدفه في حرف مبسط تصاغ في كلمات يفهمها العوام - الكبير ، والصغير - حتى ينقذهم ويرفعهم من هذا السفح ، لئلا تجرفهم أوحال الميكروبات التي يتولد منها أمراض تفتك بالمجتمع ، وتقذف بهم في هوة الزمن السحيق ، فهو يرشدهم بشيء مما يجانس عقولهم ، ويُقربهم إلى تعاليم الدين الحنيف ، فيخرجهم من ظلام الجهل ، إلى ضوء العلم .

هكذا حياةُ المعلمين الرساليين الذين يسخرون أنفسهم ، ويذيبونها في سبيل الله ، وخدمة الدين ، لا يريدون جزاء إلا جزاء الله ، فهو المثيب على كل عمل صالح .

ويحلو لي أن أعيدَ شريطاً متحركاً ، ينقل صورة باقية على صفحة الذاكرة :

في أمسية من أمسيات الصيف الجميلة - في قرية الجش الريفية - على سطح بيت أحمد سنبل ، حيث أضواء القمر ترسلُ غلائلها في السماء ، وعلى الجدر ، وعرائس النخيل والأشجار ، والنسمات الرخية تداعبُ أغصان الشجر ، وتكتب في صفحة المياه أحرف الحياة .

كل هذه المناظر عادت أمام عيني في تلك الأمسية الصيفية ونحن على سطح بيت أحمد سنبل - وبصفته رئيس القرية وشخصيتها الأولى ، وشخصية من شخصيات القطيف العامة -

وكان النادي مملوءً ، ومزدحماً بالرجال ، ومطلاً على الحقول الهادئة الساكنة كسكون الليل ، لولا نأمة تتحرك من نأمات النسيم فتحملُ على جناحيها الأعطار من تلك الأشجار .

وكما أعطيت عن حياة أبي صورة ، وقلت إنه حركة علمية دائبة لا تعرف التفتير ، أو السكون عن حركة العلوم الدينية ، والفكرية ، والأدبية ، فأخذ في هذه الندوة يطرح أسئلة ، ومن ضمن

الأسئلة طرح بيتاً لشاعر قديم ، فقال : ما معنى هذا البيت ؟ وما تفسيره ؟ :

الشمسُ في القوس أضحت وهي نازلةٌ إن لم يزرني وفي الجوزاء إنْ زارا

فأجابه الحاضرون بالنادي : لا نفهمه ؛ ثم وجه السؤال إلى أحمد سنبل فأجاب بمثل ما أجاب به الحاضرون ، وعطفَ السؤال ووجهه إليَّ طالباً مني تَفسيرهُ ، فأجبت شارحاً لصورة هذا البيت .

وتكملة للفائدة نوضح معناه ، ونشرح صورتهُ ، فمعنى البيت يتوقف على شرح معرفة فصول السنة :

فإن أطول ليالي الفصول الأربعة للعام هي في الفصل الأخير من الخريف القوس ، وأقصر ليلة هي ليالي الجوزاء أخر فصل الربيع .

فالشاعر يقول إذا لم يلتقِ بحبيبه في تلك الليلة ، تكون عليه أطول ليلة ، ولو كانت من أقصرا الليالي من فصل الجوزاء ، وإذا التقى به ، ونعم بزيارته ، تكون تلك الليلة الّتي كان فيها الوصل أقصر الليالي ، ولو كانت من ليالي القوس في فصل الخريف .

فالبيت فيه حسابات ، ومعادلات فلكية ، لأن الشمس تتحول في بروجها الأربعة ، الصيف ، والشتاء ، والخريف ، والربيع .

فالشتاء يتألف من ثلاثة فصول : الجدي ، الدلو ، الحوت ، وكذلك الربيع : الحمل ، الثور ، الجوزاء ، ومثله الصيف : السرطان ، الأسد ، السنبلة ، والخريف : الميزان ، العقرب ، القوس .

وحكى التاريخ قصة حول هذا البيت حيثُ روي : أن عالماً يخطب في إحدى المساجد ، وهو على منبره في إحدى مدن الأندلس فسأله سائلٌ عن معنى هذا البيت ، فحار في شرح معناه ، وطلب من السائل مهلة ليذهب ويدرس علم الفلك حتى يفسر له هذا البيت .

فهذه فوائدُ نقتبسُها من الرحلات الّتي نقضيها مع الوالد لها معنيان ، غذاء الروح ، والفكر الذي هو أثمن شيء في الحياة ، فالعقول تمتار من مائدة الإمام أبي الحسن الخنيزي ، والتمتع بصورا لمناظر الطبيعية الخلابة فنعيش ساعات على الروابي الخضراء ، وبين الحقول الّتي تجدد شباب الإنسان ، وترسل له النشاط ، والجد .

إن هذه الذكريات قد لفها غلاف العدم ، وطوتها أيدي البلاء ، كما غير الزمن معالم هذه القرية ، فدفنت تلك العيون بعد أن غاض ماؤها ، وماتت أشجارها ، ونخيلها وهي واقفة على أقدامها ، فكل ما فيها قد تغير ، وهذا التغير له سلبياته ، وإيجابياته .

انطوت تلك المناظر البائسة حيث غابت تلك الأكواخ المتبعثرة ، والمتناثرة في المستنقعات ، وعلى جانب النخيل ، وأقيمت

مكانها قصور مشادة تضيئها المصابيح الكهربائية ، وتغطى شبابيكها الستائر الحريرية ، فكل شيء تغير في هذه القرية .

اختفت مناظرُها البائسة ، وماتت مناظرُها الضاحكة ، الحقول الخضراء ، وخرير مياه عيونها ، وزقزقات طيورها ، فإذ ذهبت اليوم لا ترى من تلك الصور أثراً من أثار الحياتين : حياة الخصب ، وحياة البؤس ، حيث الأكواخ المتناثرة المتهدلة بسعفها ، وتعرضها إلى الحرائق ، فطالما ذهبت هذه البيوت لقمة سائغة لألسنة النيران ، ولا سيما في فصل الصيف اللهاب .

هذه لمحة من فصول الذكريات الّتي قضيتها في الصغر بين حقولها ، وخرير جداولها ، نسجلها وفاءً لهذه القرية الريفية الّتي تهيم بحب الإمام الشيخ علي - أبي الحسن - الخنيزي ، وابن أخيه الزعيم - أبي عبد الكريم - الخنيزي ، وما تفرع منهما ، بل تعشقهما كل العشق .





على شواطئ الذكريات

لم تكن ذكرياتي الترحالية تقتصر على جزيرة تاروت، أو قرية الجش الريفية، بل كنت أرحل مع الوالد في رحلاته إلى القُرى الأُخريات، كالعوامية، أو أم الحمام الّتي تسمى سابقا أم الخمام، أو إلى سيهات الّتي يقول فيها الشاعر جعفر الخطي:

هلاّ سألت الربعَ عن سيهات عن تلكم الفتيان والفتيات

هذا بيت من قصيدة يصف فيها ربوع القطيف، والشيخ جعفر الخطي هو ثروة من ثِراء هذا الشعب المعطاء، وركيزة من ركائز الفكر الذي لمع أسمه في سماء الأدب، وتنقل في الآفاق كالشمس، حتى أرسى قلاعه على بحر قزوين بإيران، والتقى على بساط العلم، والفكر بالعالم الشيخ البهائي، فكانت لهما قمةُ فكر، وعلم، وقد جارى الشيخ جعفر قصيدة البهائي فطواها بشعره كطي السجل للكتب.

وقد ولد به في التوبي - إحدى القرى الريفية بالقطيف ذات الأشجار، والأنهار والنخيل الباسقة، والطيور المزقزقة - وكانت التوبي صورة من صور الجنان الغناء، ولم تقف على تاريخ ميلاد هذا

الشاعر، الذي هو أحد الركائز الأدبية الّتي سار ضوؤها في الآفاق، وسجل لهذه البلاد مجداً ضخماً تعيش على مائدته أجيال وقرون.

فقد سافر الشاعر الشيخ جعفر الخطي متجولاً في بلاد الله طولاً، وعرضاً، وطاردته ساسة عصره، حتى قال قصيدة يصف فيها الأطياف المخيفة، والأشباح البغيضة الّتي تطارده، ويرسل فيها شوقه، ويذوب فيها حناناً لرؤية بلاده، وتعطشاً للعودة لها، ومنها هذا البيت الذي يصور الخلجات النفسية الأصيلة، والأشباح المتمددة في طريقه كالثعالي:

ولولا وجوه في القطيف أخافُها لما طال بالبحرين عنكَ ثوائي

وقد غرب وانطفأ في غربته، كما ينطفئُ الكوكبُ الذي تعقبه شعلة بيضاء عند موته بعيداً عن وطنه، حيث وافته المنية بمدينة شيراز بإيران ودفن عند مرقد السيد الجليل السيد أحمد بن الامام موسى الكاظم عليه السلام عام ثمانية وعشرين بعد الألف هجرية - على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام.

والخطّي نسبة إلى بلاده الخط، وهو على ما يقال من عائلة آل الشيخ قبيلة تسكن بقرية التوبي الّتي أشرنا إليها ولولادته فيها في الصفحات الماضية، وقيل أنه ليس من قرية التوبي، وأن بيته كان بالقلعة إلى جوار مسجد المسهلة، أو المسألة، وقد أعطينا عن هذا المسجد لمحة في الصفحات السابقة، ولم نعثر على نص تاريخي يؤكد أو ينفي تاريخ ميلاد الشاعر، ونشأته في أي محلة وهو برعمٌ لم تفتحه أضواء الشمس.

وبعد هذه الإلمامة عن حياة الشيخ جعفر الخطي ، نريد أن نبحر من شاطئ حياة الخطي إلى بحر ذكريات أُخرى ، لنسير بزورقنا في أعماقها ، ونحرك ما غفى بين جفونها من أطياف ، وما تعيدُه لنا حياة الذكريات من صور مضت ، وانقرضت ولم يبق لها إلا اسم الذكرى ، فإن استيقظت وإلا انطوت ، وذهبت مع الأمس رماداً في تلافيف الزمن .

لم تكن لي صور تتحرك في ذكرياتي للرحلات مع أبي لقرية العوامية ، وأم الحمام ، وسيهات - مع الفارق بينهم حيث اثنتان في الجنوب ، والعوامية في الشمال - كالصور الّتي تتحرك في جزيرة تاروت ، أوفي قرية الجش ، وأنا بدوري أجهل سر التحرك ، والسكون ، ولا يعلم هذا إلا خالقي ، ومدبري .

ولعلي أُعلل هذه الظاهرة لسبب المرح النفسي لما يبديه جو جزيرة تاروت ، وقرية الجش ، فعلى تباينهما في جهة الموقع ، فالجش في الجهة الغربية ، وتاروت في الجهة الشرقية ، وهناك فاصل بحر يطغى في مده ، وسكونه في جزره .

فتعليل هذه الظاهرة لوجود الأتراب في الجزيرة ، والجش يفتح آفاق المرح النفسية لما نقوم به معاً من انطلاقة ألعاب ، ولهو صبياني ، نقوم به في أحضان طبيعة هذين البلدين ، فهو الباعث النفسي لبقاء الذكريات في محفظة الماضي ، وفي دفاترها وصفحاتها المختلفة .

فكل هذه العوامل تدعو إلى بقائها مدة طويلة ، تغفو على ذراع الزمن ، وعندما تتحرك لتنفضَ عنها غبار السنين المتراكم

عليها ، ليبين منها ما تمزق من حجاب الضباب ، فلي ظلٌ ضئيلٌ من ذكرياتي في سيهات .

فبعد أن نكمل الرحلة في الجش ، نسير منها على الحمير إلى مدينة سيهات ، فالمركز فيها لوالدي منزل إبراهيم الرميح ، فتدور المسائل العلمية ، والفكرية ، والأدبية كما هي سيرته الّتي خطها ، وعود الناس عليها .

فهنا أنطلق مرحاً في حقولها الخضراء حيث تتميز بالاترج ، والزنبق ، والفل ، والعمار - أي الريحان - ، فهناك الماء وفير بسخاء ، لسقي الحقول ، والبساتين .

ولا أتذكر ما يثير ذاكرتي في ذلك الدور وأنا يافعٌ غير قصة من القصص الطريفة الغريبة :

حيث الرحلة كانت في فصل الخريف ، وفي ليلة من لياليه ، وأنا نائمٌ تحت عريش مسقوف من جريد النخل المغطى بالبواري المصنوعة من خوص النخيل ، وتسمى - في اللهجة القطيفية العامية - : «سميم» - ومفردها سمه .

فنمت تلك الليلة ، ولم أستيقظ صباحاً إلا وملابسي ، وجسمي ، وعيني - لا أكاد أن أفتحها - مغطاة بما نزل عليَّ من سماء هذا السقف ، قطرات من عصير التمور ، ويسمى - في اللهجة القطيفية - : «دبس» .

حيث سقط الطل على ذلك السقف المفروش بالتمر ، لتجفيفه وأكله في الشتاء ، ومن هذه التركيبة عندما نزل الطل على ذلك التمر ، نزل العصير على عيني ، وجسمي ، وملابسي .

وعندما صحوت من نومي لم أكد أن أفتح عيني ، فبحثت عن عين قريبة من هذا البيت لأستحم حتى أستطيع أفتح عيني ، لأن جفنيها كادا أن يلتحما بالعصير ، لما فيه من لزوجة تشبه السكر .

فاستحميت ، وغيرت ملابسي حيث لم تكن في البيوت إسالة للماء على الطريقة الحديثة ، ولا الطريقة القديمة ، إذ لا ماء في البيوت ، غير أنه يوجد في بعضها أبارُعلى الأسلوب القديم ، ويجلب الماء منها بدلو يوضع فيه حبل ، ويسحب باليد لاستخراج الماء ، ويسمى الدلو : «زيلة» ، وهي غير عربية ، إنما هي كلمة شعبية ، وهذه أبدع نكتة بقيت تعيش في دفتر الذكريات أسجلها من صفحاتها .

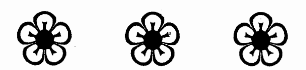
وأحبُّ أن أشير إلى عين أثرية تقع بين : سيحة سيهات ، والجش ، وسقيها لحقول سيهات أكثر مدداً من حقول الجش ، وهذه العين تسمى بالكعبة ويقال : إن أبا طاهر القرمطي نقل الحجر الأسعد ، أو الأسود إلى جوار هذه العين ، وكان تسميتها بالكعبة بسبب هذه القصة التاريخية المروية .

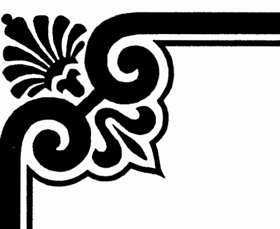
والذي أعتقده أن هذا لا يتحقق وقوعه ، لأن الحجر له كرامةٌ من الله لا يستطيع البشرُ نَقلهُ ، والذهاب به إلى مكان آخر غير المكان الذي خصص له من خالقهِ .

وقد روي في صفحات التاريخ أنه عندما نقل الحجر ، ووضع على ظهور بعض الجمال أبت السير به ، وعندما أعيدت إلى البيت أخذت تسرع فكيف نصدق هذه الرواية التي تزعمُ أن الحجر نُقل إلى هذه المحلة بجنب العين ليقوم مقام الحج .

وعلى ما أعتقدهُ أن هذه الرواية مزيفة ، وغير صحيحة ، ربما إختلقها بعض الخصوم السياسيين للقرامطة ، ولم أقف هنا لأدافع عن القرامطة ، إنما لهذا البيت الذي هو أول بيتٍ مقدسٍ وضع بمكة المكرمة ، ومن الجائز أنها كانت محاولة من القرامطة ، أما تم نقله للمكان المشار إليه فإنني على صلب عقيدة راسخة لا يستطيع أحدٌ نقله .

هذه لمحةٌ تاريخية ، أحببنا أن نضيفها وإن لم تكن من ذكرياتي ، ولا من فصول الرحلات .





الرحلات بين الحقول في المدن الشمالية



كانت لأبي رحلاتٌ روحيـة يهـدف منهـا تعليـم المبـادئ الدينيـة، لتنوير أهل المدن، والقرى الريفية، ولا تقتصر هذه التعاليم على ضـرورة المعارف الدينية، لأن الدين بمفهومه الواسع هـو عبـادات، ومعـاملات، وأخلاق، حيث يقول النبي الأعظم - صلى الله عليه وآله - :

«بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق»

إذاً فالدين هو المعاملة، والأخلاق مضافاً إلى العبـادات للـه وحده لا شريك له.

فكان يعسـرعلى أهـل الأريـاف، والقـرى، أن يرحلـوا إلـى القلعة - حين ذاك - ليتزودوا مـن ينبـوع العلـم بسـبب العوامـل الاقتصاديـة، والعمليـة، لكـون الحيـاة الاقتصاديـة، والعمليـة لا تمكنهم من فرص الذهاب، لتوقفها على ترك أعمالهم، وتشـعبها في طرقٍ مختلفة، وشاقة، ولعسرة المواصلات لأنـه لا يوجـد واسـطة في ذلك العصر إلا عن طريق الحمير.

وتستغرق الرحلة وقتـاً طويـلاً في الذهـاب والإيـاب، أو عـن طريق المشي على الأقدام، فمنهم الفلاح العامل في حقله، ومنهـم

البحار الذي يرتاد البحر لصيد الأسماك، ولو تركوا أعمالهم وذهبوا للعاصمة لما استطاعوا أن يتحصلوا على قوتهم.

فلهذه الغاية الشريفة كان الوالد - رحمه الله -، وأمثاله من العلماء العاملين يخرجون لهم، وينزلون على بساط حياتهم، ويشاركونهم في شظف عيشهم، ويزورونهم في أكواخهم المتبعثرة، المتناثرة، المتواضعة.

هكذا شاهدت الحياة الّتي يقضيها أبي معهم بدون طمع في مال، أو جاه، لفقدانهم اليسار، وفاقد الشيء لا يكون معطياً له.

ومن أطرف القضايا، والقصص الّتي وقعت لأبي في قرية العوامية، ما حكياه لي السيد حسين السيد سلمان السادة، وعلي الزاهر - كلاهما من سكنة العوامية - حيثُ رويا لي عن مشاهدة وجدانية فقالا:

«إن عبدالله بن ضيف الزاهر - المولود عام أربعة وعشرين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، والمتوفي ليلة الأربعاء من اليوم الخامس من ربيع الأول عام سبعة وتسعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام، كما روى ميلاده، ووفاته ابنه الأديب الأستاذ محمد الزاهر ولديه مكتبةٌ مكونةٌ حسب ذوقه المترف، ووالده عبدالله هو أحد شخصيات العوامية من قبائلها الغنية بالمجد - أقام مأدبة عشاء في بيته لوالدك، فأجابه لهذه الدعوة، وبعد وصوله إلى المقر المهيئ للجلسة، كان من الصدف أن السلم الذي يوصلُ أباك مع المدعوين للمقر المعدود خراباً لا يطاق الصعود عليه، إلا بالتجشم، والصعوبة.

وبعد استقرار والدك في صدر هـذا المجلس ، وهـدوء حركـة المُسَلِمِينَ عليـه ، تحـرك بـه إيمانـه وإخلاصـه ، ولم تُغـطِ علـى ذلـك المجاملة لكون المأدُبة له ، فقال - بعبارة رقيقة فيها إرشـاد ، ونصـح - : لو صرفتَ - يا بني - ثمن مأدبة عشائي على إصـلاح سـلمك ، لكان أنفع لك ولعيالك» .

هذه صراحةٌ حقيقية قلّ من ينطق بها من الرجال .

وما دمنا في ظلالِ هذه القرية القطيفية ، يحلـو لنـا أن نتحـدث عن عيونها الثراء السيحية الّتي توجد بكثرةٍ كاثرةٍ في هذه القريـة ، وحتى داخل مسورتها عين تسمى : «عين الميسونه» .

أما خارج السور فهناك عيـونٌ كُـثر : كعـين أم جُدَيّـر ، وعـين الخضيرة ، وعين الطيبة - وعين الغميري - ، وما يماثل هذه العيـون تسيح في جداولَ سحرية يتجلى في هندستها روعة الفـن ، ساهرة لا تعرف أجفانها النوم .

فتقسّم على سقي الحقول والبساتين ، ليلاً ونهاراً على اختلاف فصول الأعوام ، وضوء القمر والنجـوم ليـلاً ، والشـمس نهـاراً ، فيسير الفلاحون في أخذ حصصهم من الماء علـى ضـوء السـاعات التي يرشدهم لها ضوء القمر والنجوم ، والشمس ، لندرة من يملـك سـاعة مـن الفلاحـين ، فهـم يسـتعيضون عنهـا بمنـازل الشـمس ، والقمر ، والنجوم ، فماء كل عين مقسم على أربعة عشـر وضحـاً ، والوضح يتكون من اثنى عشر ساعة ، ويطبقون هذه المدة الزمنية من الشروق الى الغروب ، ومن الغروب الى الشروق .

فيكون سقي هذه الحقول على منهجية الطريقة الّتي أشرنا إليها في تقسيم الأوقات، يتم سقي النخيل والحقول عن طريق الفلاحين المتضمنين لها.

وإذا ابتعدنا عن قرية العوامية، وسرنا إلى نقطة الجهة الشمالية، ودخلنا مدينة صفوى وجدنا بها الحياة الأثرية، والطابع التاريخي القديم «جاوان»، المدينة الأثرية الّتي اندثرت، ولم تَبْقَ إلا أطلالُها، ويُقالُ لقد أجرى بعض المنقبين البحث في أطلالها، فوجد فخاراً قديماً، وآثاراً تاريخية أُخرى - وقد أشرنا لها في الصفحات الماضية.

أما صفوى الّتي تحركتُ في حقولها المُورقة اليانعة، ومناظرها الخضراء، ففيها أضخم وأقوى ثروة مائية تتمثلُ في تياراتِ «عين داروش» الواسعة الضخمة الّتي تسقي أكثر حقول صفوى بدون مَنٍ أو سأم، وتعيش على مائها.

فلها عدة جداول، تسمى - باللهجة القطيفية -: «سيبان»، ومن أضخمها وأقواها «ساب أبوقميح».

وأخبرني بعض المواطنين - من سكان مدينة صفوى -: أنه عندما زارها بعض العلماء الفيزيائيين من موظفي أرامكو السعودية أبدوا نظرية علمية حولها، إن في مائها طاقة لو وضع مولد ذو طاقة كهربائية عليها لاستطاع هذا التّيار المائي أن يزود المنطقة الشرقية بالتّيار الكهربائي، وكانت جداولها تتسع إلى جريان بعض الزوارق الصغيرة.

هكذا كانت ولكنها بانت، كما توجد على طبيعة أرض صفوى عينان أُخريان: عين الوسطى، وعين الجنوبية، وقد لحقتا بداروش في نضوبهما، وكانت العين المسماة الجنوبيه ذات تيارات مائية شديدة التدفق، تنساب في جداول بين الحقول، وكان أحد الملاك لهذه الحقول عبدالله القصيبي، حيث غمره الترف، والبذخ، والنعمة، فأخذ يستعمل ويسيرُ في جداول حقوله التي تنساب من العين المشار إليها بعض الزوارق الصغيرة للتسلية مع حاشيته، وهم يتغنون بها ذهاباً وإياباً في هذه الجداول.

ويا للأسف - لقد ذهبت هذه الثروة الثّرة، ونضب ذلك الماء الذي كان من مفخرة هذه الربوع، ومن آثار الأباء، والأجداد، فقد وجِدت هذه العيون قبل الإسلام بمئات السنين، ولم نقف على تاريخ حفرها، وولادتها، لأن تاريخ هذه الربوع لم يُعنَ به، ولم يحفل بهِ أهله، فالله العالمُ بتاريخ حفرها، ويقال بأن أول من قام بحفر هذه العيون على هذه المنهجية الفنية الفنيقيون الذين ملكوا هذه المنطقة قبل الإسلام بردحٍ من الزمن.

غير أننا نسكبُ الدموعَ على فقدانها بعد عمرها الطويل المديد الذي عاشته، ومرت به تغذي البشرية، وتُحيل الأرض إلى ربيع أخضر، كل ذلك انتهى في لحظات، وتحولت إلى أشلاء بعضها دفن وراء التراب، وبعضها معطل الجثة.

وهذا التحول نستطيع تحديد تاريخه، حيث بدء التناقص في ماء هذه العيون بعد الثمانينيات والثلاثمائة والألف هجرية، حتى وصلت إلى الوصف والصورة الّتي أعطيناها عنها.

وبنضوب هذه العيون تغيرت معالم القطيف التاريخية الزراعية ، وانمحى وجهها القديم سواء كان في القطيف نفسها ، أو مدنها وقراها الريفية.

وبهذا التغير فقدت ثروتها الزراعية الوطنية القومية ، حيث نضبت عيونها ، فماتت بموتها الحقول ، إذ لا حياة بلا ماء ولا ماء بلا حياة ، ولو حدثنا محدثٌ بأن هذه العيون الطبيعية ستصاب بهذه الكارثة ، وتموت فيها الحياة ، وتسكن منها الحركة لكذبناه.

وهل نبقى ونعيش على ماء البحرالذي يُقَطر ليتحول إلى ماء عذب فنعيش به - نحن - دونَ حقولنا ، وزراعتنا ؟ ! ، ولكنه الواقع المرير الذي صرنا إليه.

هذه أحرف من ظلال قصيرة تصف حياة طويلة في أعماق جذور التاريخ منذ الحضارة الفينيقية الّتي استخرجت هذه العيون ، ونظمت طرق السقي ، وطرق الصرف الّتي لا تعود على النخيل أو الشجر بأطباع ، أو أضرار عجز العلم عنها اليوم في تطوره ، والتكنولوجيا الّتي وصل بها إلى مالا يتصور العقل قبل أجيال.





على هامش الذكرى

هنا على هامش الذكرى ، أو تحت ظلالها الباهتة ، أو من صميم الذكريات نفسها ، نتحدثُ والذكريات صدى السنين الحاكي ، فقد تموت الذكرى في لحظة ولدتها قبل أن تستهل ، فلا ترث – كما يقول الفقهاء – ، وقد تعيش حياة مستيقظة متوثبة تريد الانطلاق والحياة ، وقد تغفوا في وقت ما ، ثم تصحو فإذا هي في ربيع الشباب .

هذه لمحة تعريفية للذكرى ، لأنني كتبت هذه الصفحات – كما قلت – من دفتر الذاكرة بدون تحديد للتاريخ الزمني ، فقد يتأخر حدث عن حدث متأخر عنه ، وقد أشرت إلى هذه الفواصل الزمنية ، فالحديث يجر بعضه بعضا .

ومن ذكرياتي ما كان منها ضاحكاً ، وما كان منها باكياً ، فإن جراح الليالي أكثر من بسماتها ، فإذا صفا لك يوم فأنت ذلك السعيد ، فالحياة كلها آلام ، وآمال ، ولولا طاقات من الصبر لما وصل الإنسان إلى فكِ بعض رموزالرياضيات العلمية ، أو لم يُحقق مخترعٌ ما تولد في فكره ، وجال في دنيا علمه .

فبهذا الجهد، وهذا الصبر وصل الإنسان إلى بعض أهدافه، وغاية مرامه، ولو كسل ونام، لما تحصل - حتى - على قوته اليومي، وبعبارة مختصرة، أي عمل من الأعمال الّتي يمارسها بنو البشر يجب أن يغلفها صبر، إذن فالأناة، والصبر هما مفتاحان لمغلقِ أسرار الحياة.

وبعد هذه اللمحة عن تعريف الذكرى، وما يحيطها، أعود إلى ذكرى حبيبة تُلاحقُني عشتُها طفلاً، ويافعاً، وشاباً، ودرجتُ على صعيد مدارجها في بيتي بالقلعة - حين ذاك - لأرفع عنها أنقاض السنين، وما تكدس من رمادها، فأبصرُ ما في هذا البيت من أطياف الذكريات السحيقة البعيدة القريبة.

وكيف أبصرها، وأستحضرها ؟!... والبيت بل المدينة بنفسها قد أُزيل معالمها عن طريق بلدية القطيف، بعد أن عوضت أهلها بأثمان عن هذه البيوت.

وأصبحت القلعة لا ترى فيها تلك البيوت الّتي تتزاحمُ فيها الكثافة السكانية، ويحمل البيت جمعًا من عدة عوائل، قد تزيد على أكثر من ست عوائل، أو أقل، فهو يحمل فوق طاقته، ويزدحم، ويضج بأصوات هذه العوائل.

كل هذا قد تحول إلى أرض ما عدا شريط بقي منها، وهي البقية الباقية، ولا ندري هل هذا الشريط يبقى على أرضها الصلبة رمزاً لذكراها، أو يتبَعُها في الدثور ؟!، وهذا الشريط يمتد في الناحية الغربية، والجنوبية، وظل

صغير في الجهة الشمالية ، وضلع أقصر منه في الجهة الشرقية ، فيصدق عليها بيت الشاعر :

و ما بقيت إلا الضلوع الجراشعُ

لقد انتهى دورك ، ومجدك أيتها القلعة ، وتهاويتي أنقاضاً ، باحثةً أعاليك عن أُسِكِ ، وزالت تلك المعالم القديمة الّتي فيها من الزخرفة ، والنقوش الشرقية روعة الإبداع ، وحرف المعمار ، والّتي مر على تمصيرها ألفٌ ومائتان وستة عشر عاماً ، حيث أُرخ تمصيرها ب «حجره» ، وهذه الكلمة التاريخية حسب الحساب الأبجدي ، وأرخ تسويرُها بتاريخ «صخرة» ، أو محفوظة - أي عام ألف وتسعة وثلاثين .

فلعلك تأخذك الغرابة ، والدهشة عندما تقرأ التاريخين بحجرة ، وصخرة ، وعندما نزيحُ عنهما الستار ، والتعليل التاريخي يبينُ لك سرُ الحقيقةِ لهذا التاريخ ، وما قُصد بهاتين الكلمتين ، وما تنطوي عليهما من معنى يرمز للقوة ، والبطولة ، وتعطي صورةً لحضارة استمرارية هذه المدينة في العراقة ، وقدم التاريخ .

ويحلوا لنا هنا أن نسجل ما قام به الأستاذ العلامة الشيخ فرج العمران من تأريخ تأسيس وتسوير هذه المدينة الحضارية في أبياتٍ سجلها في كتابه «الأزهار الأرجية في الآثار الفرجية «الجزء السابع ص ١٢٣ ، تاريخ التمصير والتأسيس :

قلعتنا العصماء مثل المرمره قرون من ناطحها منكسره

ويشهد التاريخ أن أهلها مذ أسسوها ارخوها حجره

سنة ٢١٦هـ

تاريخ تسويرها :

القلعة المحبوبة المحظوظة بعين باري السما ملحوظة

وانها من شر كل غاشم مذ سورت قد ارخت «محفوظة»

سنة ١٠٣٩هـ

وبعد ما رويناه عن أستاذنا نعود إلى حديثنا ، فقد اختارها المفكرون ، والمخططون من رجالات هذا البلد أن تكون حاضرةً للقطيف ، يدل هذا الاختيار على تفكيرٍ ، وتخطيطٍ عميقين ، لكون هذا الموقع يشغلُ حيزاً ناشزاً مرتفعاً على الأرض ، فيصلحُ عاصمةً تطلُ من علٍ على هذه الربوع ، ويُحسنُ هذا الإختيار إطلالة هذا الموقع في جهتيه الشرقي ، والشمال على ضفتي البحر .

كما تميَّز هذا الموقع بصفاتٍ طبيعية ، فإذا سكبت السماءُ الأمطار كأفواه القُرب لا يجد الساري في شوارعها ما يعوقه لأن أرضها صلبةٌ ولها تخطيط مصارف بدائية بحيث تُفتح هذه القنوات التي تسمى باللهجة الشعبية القطيفية (بلاليع) فيغور الماء في بطونها عندما يفتحها عامل البدية فلا ترى أثراً لتلك الأمطار في الشوارع ، فكأن السماء لم تسكب من أجفانها قطرة واحدة .

وصفة أخرى طبيعية في أرضها حيث أن هذه الأرض عندما تحفر ويقطع منها الغلاف الوجهي حتى يصل الحافر إلى جبل وبين الطبقة العليا والجبل رمالٌ، ولهذه الميزة كان الكنيف بها إذا وصل على هذه الهندسة لا يحتاج إلى نزحٍ، ويفنى الغائط حيث أن المياه تمتصها الرمال، فلا ترى لهذا الكنيف رائحة تؤذيك.

فأقول يا ليتُ، وهل تنفعُ ليتُ؟! ... وليت الزمان سمح ببقائهِا كهيكل أثري، وعوض أهلها عن عقاراتهم، كما أتمنى أن تصان هذه الآثار كحمام تاروت، وقلعته الأثرية، وحمام أبي لوزة بالقطيف، وما يماثل هذه الآثار من آثارنا التاريخية القديمة، فهم من آثار الحياة التاريخية الضخمة المجيدة، وقد ذكرتهم في هذه الخيوط لعلاقتهم بحياتي، ووطني.

لقد شَغلني إزالة القلعة، وتهتُ عن مرابع بيتي لأنه لا أثر له إلا في عالم الخيال، فلنمثله على صورته الواقعية، ونستعيد الأيام الحلوة تحت سمائهِ، فكم من يومٍ قضيت ساعاته على مدارج بيتي، وفي طُرق القلعةِ، وعلى ملاعبِ أرضها، وفي سوابيطها.

والساباط: هو أن يكون ممراً من تحت سقف، يقوم هذا السقفُ على جدارين، أو ثلاثة، وقد يكون هذا الطريق مستمراً، أو يقفُ عند نقطة.

والساباط أثرٌ من الآثار الهندسية البنائية القديمة لهذه الربوع ، فذكره وتعريفهُ للأجيال الآتية لمن لم يرَ هيكله الطيني جاثماً على الأرض يقرأ صورته مرسومة على الورق ، بعدما عَفى عليه الزمن ، وضاعت معالمه في بطون التاريخ :

فإن الحياة تفل الحديد إذا لبستهُ وتُبلي الحجر

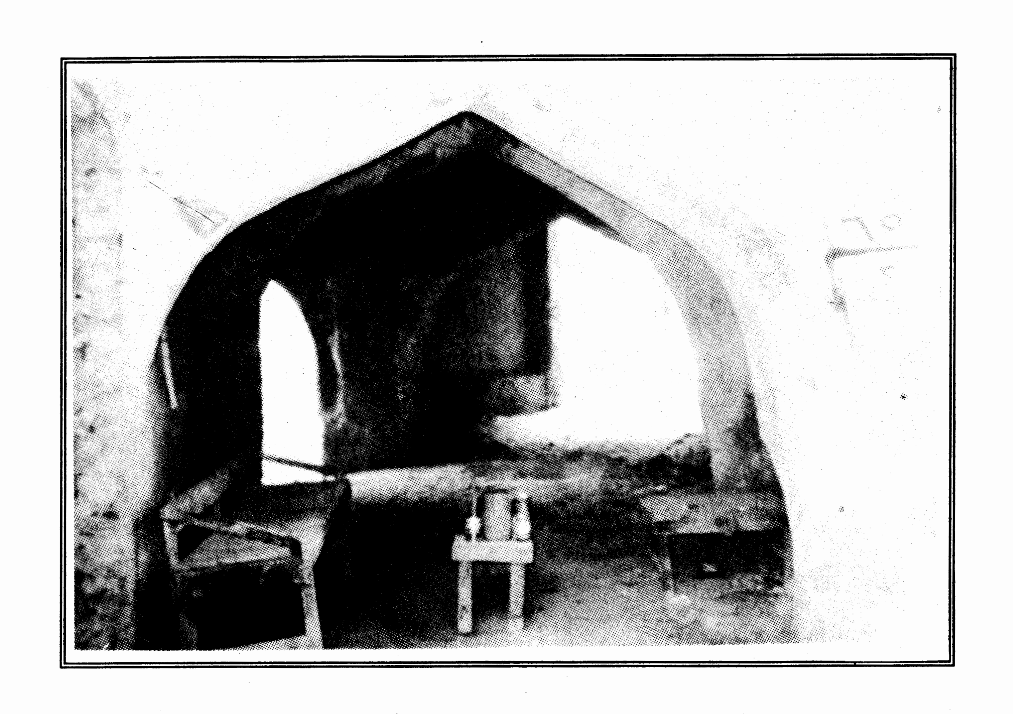
وأنا أتحدث عن الساباط وبيتي في القلعة أضع صورةً هنا فنية تحمل أقواساً معمارية من طابع البناء الإسلامي الفني لساباط به أربع ممرات كل قوسٍ ينفذ إلى طريقٍ، وهذا الساباط هو بيت جيراني المشاهد لبيتي من الناحية الشمالية والغربية بيت حسن علي السنان وأخويه .

لقد عدتي إليَّ أيتُها الذكرى ، وماذا وراء الذكريات من صور ، وألوان ؟ ! . . . . فيحلو لكِ أيتها الذكرى أن تحمليني على جناحيكِ ، وترجعي بي القهقرى ، وأنا أنشد بيت أبي تمام :

كم منزلٍ في الأرض يألفهُ الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

أحنُّ إلى الطفولة ، إلى الشباب اللتين تبرعمتا في ذلك البيت ، فتلك عيشةٌ بسيطةٌ هانئةٌ ليس فيها تعقيدٌ ، ولا عناء ، وكانت الحياة في ذلك العصر ، يعيش أهلُها على بساطِ مائدة القناعة ، بدون ضجيج ، أو عجيج .

فإذ تحدثنا عن الحياة الماضية ، إنما نريد أن نرسمها كما هي من صورتها الواقعية ، بدون أن نضيف عليها رتوشاً ، فهي كمرآة تنعكسُ عليها ظلال حياتها الوجدانية ، بما فيها من خير ، أو شر .



صورة تمثل واجهةً لأقواسٍ فنيةٍ معمارية للساباط التي أشرنا إليه

وأكبر الظن أن هذه الحياة ، - وأريد بها حياة الخمسينيات ، وما قبلها بعد الثلاثمائة والألف هجرية - أعلل بساطتها للأزمة المادية - اذ لا قناعة في الإنسان - فالإنسان بطبعه طموحٌ مغامر جشع في هذه الحياة ، كلما تحصل على مالٍ طمع في ازدياد ذلك ، إلا ما قل وندر من بني الإنسان .

لقد ذهبنا بعيداً عن ما خططنا له من التحدث عن السير في منعطفات القلعة ، وزواياها ، فإن الغريب إذا دخل هذه المدينة ، وهو لا يعرف معالمها فنصيبه الضياعُ ، والتّيه .

أما أنا فلستُ من الغرباء حتى أضيع في تلك المنعطفات ، فكأنني أرى تلك المنعطفات ، والزوايا مَنَاظِرَ تتحرك أمام عيني ، ومن تلك المناظر «ساباط الظَلمي» .

وسمي هذا الساباط بهذه التسمية الشعبية ، لما تغطي سماءَهُ ظلمة ، حيث لا ينفذ له ضوء الشمس ولا القمر ، ولا تمر به نأمةٌ من نأمات النسيم العليل ، فكأني أجتازه نهاراً وأنا في دور الطفولة ، ولا أستطيع أن أجتازه ليلاً للحكايات الّتي روتها العجائز ، وتتداولها المحافل .

ومن هذه الروايات : أن ساباط الظلمي تسكنهُ الجن ، والعفاريت في صور مخيفة مرعبة ، ويصورونها على صور مروعة على ألوان شتى من صور الجن ، والعفاريت الّتي لا يستطيع الإنسان أن يشاهدها ، فضلاً أن يتعايش معها ، وهي تطلع من أمامكِ ، أو خلفكِ ، أو جنبك فجأةً في صورة مُخيفة مُرعبة ، لها وجه مطاولٍ ، وجسم ضخم له أنياب كوحوش مفترسة ، فتقبض عليك قبضة حديدية ، فتسوقك إلى مكان لا ترى ، ولا ترى أهلك .

فقسم منها يخرجون وفي أكفهم سلاسل يسحبونها بحيث يكون لها أصوات مزعجة، وهذه تسمى: الجن ذوي السلاسل، ويخيفون بهم الأطفال، فأشباحهم تظل تتراقص في العيون عندما تمر بهذا الساباط، ولا سيما إذ كان الشخص منفرداً؛ فهناك يطلق ساقيه إلى الريح، ويهرول كالبرق ليجتاز ذلك الساباط نهاراً، وتشتدُ المخاوف فيه ليلاً، لما تخصصه العجائز من محلات للجن، والعفاريت، والموتى، فيحجمُ الأطفال عن المرور بهذه المحلات المخيفة المرعبة في مُخيلاتهم كما صور لهم، ومحلات سالكة آمنة لا شرور فيها.

هكذا كنا نسمع هذه الحكايات، ويكون لها صدى عميق في النفوس، فنجفل عن المرور بهذه المحلات، ومنها هذا الساباط، ولا سيما عندما يبطن الأفق الظلام، ويسود الصمت المدينة، إذ لا كهرباء، ولا مذياع، ولا تلفاز تخرقُ أُذن الصمت فتحدث سميراً للسائرين.

فالصمت قد يخلق في النفوس أشباحاً مرعبة، وقد يخلق في المفكرين عالماً من الأفكار البعيدة الّتي لا يصل لها المفكرون في وسط الضوضاء، والجلبة.

لقد ابتعدت عن بعض الذكريات الّتي أحاول أن أيقظها من نومها، وأسجلها، وإن كانت هذه الظلال الّتي أستظلينا بظلها هي من صميمِ ذكريات حياتي، حينما كنت أعيش في بيتي بالقلعة، فأنا أعيش فيه في عالم الذكرى لعدم وجوده.

فقد أُزيلت القلعة في اليوم الأول من شهر جمادى الأول من عام خمسة بعد الأربعمائة والألف هجرية، الموافق شهر يناير عام خمسة وثمانين بعد التسعمائة والألف ميلادي، إن للبشر آجالاً،

وللمدن آجالاً ، كما للدول آجالاً محددة في هذه الحياة . . . . فكم من مدينة أغرقها اليم ، أو أفناها الزمان ؟ ! ... فصارت في خبر كان ، غير أن الإنسان يتألم على ما رآه يزالُ في لحظاتٍ ، وهو يراه بأم عينيه كأثر من الآثار التاريخيه السحيقة التي تعطي رمزاً في أصالة هذه المدينة ، وقدمها في التاريخ البعيد البعيد .

ونعود إلى هيكل بيتي الذي مازال ماثلاً في صورته أمام عيني ، وكأني أتحرك فيه نزولاً ، وصعوداً في طوابقه الثلاثة ، وغرفتي الّتي استلهمتُ من سمائها الشعر - وأنا في ربيع الشباب - ، ولقنتُ تحت سمائه المعارف الإسلامية ، والدروس الدينية من معلمي الأول أبي .

فكأنها قد أُعيدت لي الذكرى مجسدة كاملة كما كنتُ في غرفتي جالساً في إحدى زواياها ، وبين يديَ المذياع مُتكئاً على رفٍ بجانبي ، ويسمى - في اللهجة القطيفية - «روزنة» .

و «الروزنة» هذه تُنحت من جدر الغرفة نفسها ، فهي دكة خارجة منه ، داخلةٌ فيه ، وتختلفُ أحجامها في الكبر ، والطول ، والعرض بمقدار مساحة الجدار المنحوتة منه ، وبرغم هذا لا تأخذ حيزاً تشغله من الأرض المُقام عليها .

وتُقَسم إلى رفوفٍ بين جُدرها من الزاوية للزاوية الأُخرى ، يوضع على هذه الرفوف المذياع ، أو الكتب ، أو الآثاث المنزلية ، فيكونُ لها منظرٌ جميلٌ ، وهذا الطراز ينذرُ عدم وجوده في الهندسة المعمارية القديمة ، وكلمة «روزنة» كلمة دخيلة على اللغة العربية ، وهي كلمةٌ فارسية .

فكانت هذه الغرفة من هذا البيت ذكرى صبابتي، وحبي، وذكرى ليلة العمر - أي تم زواجي في أفقها -، وسماء إلهامي - وإن كان الشعرُ لا يحدد بمكان أو زمان.

ومن ذكرياتي الحبيبة في هذه الغرفة، زورات الخطيب علي المسلم، ويعرف بعلي آل حبيب، فهو شخصٌ أنيق الهندام، خفيف الظل فيه مرحٌ فياض برغم أنَّه لا يبصر، ولكنه ذو بصيرة، وذكاء، يمارس الخطابة، وهو ذو صوت مُنَغَّم النبرات، ويحفظ من الأشعار الجديدة، وتوفي في رمضان عام ثلاثة وتسعين بعد الثلاثمائة والألف.

فكان هذا الشخص يزورني في كل صباح في فصول السنه، وفي شهر رمضان في كل مساء بعد الإفطار، وفي إحدى زوراته من ليالي هذا الشهر العظيم، طرح عليَّ سؤالاً عن معنى فقرات في دعاء الافتتاح وهي:

«الحمد لله على حلمه بعد علمه، والحمد لله على عفوه بعد قدرته، وهو قادر على ما يريد»

وسؤاله لم يكن سؤالاً سطحياً عن اللفظ، إنما يريدُ منه ما وراء الصور من المعاني، فكان جوابي له: «إن هذه الفقرات من الدعاء المنسوب للإمام الحُجة - عجل الله فرجه - كلماتٌ في عمقها وجوهرها لو شرحها العَالِمُ لاحتاج شرحها إلى سفر متعدد الصفحات والجوانب.

وأنا أشرحُ لكَ بعض هذه المعاني بإيجاز: فالله سبحانه وتعالى، نحمده، ونشكره، فهو يعلم ما نأتي من أعمال في العلن، وفي السر، أو قل أي حركة، أو سكنة لا تخفاهُ، فهو مطلعٌ على

خفايا الصدور ، وقادرٌ على تعجيل العقوبة لنا ، ولكن عفوهُ ، ورحمتهُ الّتي سبقت غضبه ، وقدرته على كل شيء هي الّتي مدت لنا تمادينا في أعمالنا القبيحة ، وعدم شكرنا ، وطاعتنا لفاطر السموات والأرض ، فهو يمدنا بنعمه عسى أن نقلعَ عن غيّنا ، ونرجع إلى طاعته» .

وقلت له : «لا تنسى تلك الفقرة من مضامين هذا الدعاء العظيم الّتي تصور رحمة الله بعباده وهي : تتحببُ إليَّ ، فأتبغض إليك ، وتتوددُ إليَّ فلا أقبلُ منك كأن لي التطول عليك ، فلم يمنعك ذلك من الرحمة بي ، والإحسان إليّ ، والتفضل عليَّ .

فهذه فقراتٌ تصور في مضامينها غاية العطف من مولى قدير ، لا يُعجِزُه شيءٌ في قدرته المُطلقة على عبده الفقير ، في فقره المُطلق» .

فعندما شرحت له هذه الفقرات ، أبدى ارتياحاً ، لأن هذا الخطيب - دائماً - يحب التفهم ، والمُسائلة ليستفيد منها ، ويُفيد بها في خطابته للجماهير .

ومن ذكرياتي في هذا البيت الذي كان نبعاً يسيل سلسالاً كنهرمن الأفكار ، يفيض من صاحبه الوالد الإمام أبي الحسن الخنيزي - رحمه الله - ، عندما كان هذا البيت محطات للفتيا ، وللفصل في القضاء .

أذكر هنا قصتين من قصص المرافعات القضائية الكثر الّتي وقعت في مجلس القضاء ، وعلى دكته تحت سماء هذا البيت ، وقد رواهما لي من شهد صورتيهما ، نسجلهما في هذا الكتاب للتاريخ ، والذكرى .

فنبدأ بالقصة الأولى ، ونروي فصولها :

حيثُ دار نزاعٌ بين زوج وزوجِها ، بعد أن تم عقد القِران ، ويدرت من الزوج نفرةٌ برغم أن في ذلك العصر لا يلتقي الزوجان إلا ليلة الزفاف ، ولهذه الظاهرة لا نستطيع تعليل هذه النفرة ، إلا أن يكون قد حصلت نظرةٌ عابرة على غير قصد مغلفة بغيرعلم ، فحل هذا النشوز العارم من الزوج قبل الدخول بها .

وبعد أن حدث ما حدث بينهما ، تقدمت الزوج رافعةً إدعاءً ضد زوجها ، تطلب منه المحاكمة أمام منصة القضاء ، وطلبت في مرافعتها الطلاق منه ، وإذا لم تُطلق فسوف تزهقُ نفسها .

والمرأة إذا كَرهت فلا دواء لها ، ولا إصلاح في بغضها ، وإذا عاهدت لم تُوفِ بعهدها ؛ فتدخل أهل الخير والصلاح باستعمال قنواتهم الإصلاحية ، وأساليبهم الإرشادية ، فلم تفد في إقناع الزوج وإرضائه لفك هذا الرباط ، لأن الطلاق بيد من أخذ بالساق - أي بيد الزوج .

وبعد أن أخفقت محاولة الإصلاح ، طلبت الزوجُ المحاكمة فَعُرضت القضيةُ على أنظار أبي ، ورأى أن يبذل مساعيه وما يملكه من جاه ، وشخصية في إقناع الزوج ، في أقوال فيها من صور الترغيب ، والتحبيب ، والأجر والثواب من الله تعالى في الدنيا والآخرة ، فرفض وأبى ، ولم يوافق على الطلاق بحيث يقبض ما يماثل صداقه الذي دفعه .

فكان الحل لهذه المشكلة هي إرضاء الزوج فيما يرضيه من بذل ، حتى يطلق لكون العصمة بيده ، فتدخلت أريحية أبي الفياضة السمحة ، وكان الصداق الذي جرى عليه العقد مائة ربية هندية .

فطلب منه والدي أن يستلم ما يماثلها ، فأبى ، فخاف والدي على ضياع هذه الشابة فيحترق شبابُها ، ويدمرُ مستقبلها ، ولا أحد يعرف ماذا يحدث لها من هزات مدمرة شيطانية في المستقبل .

فأجهد نفسه في سبيل إرضائهِ ، وبذل له من كيسه الخاص مبلغاً مغرياً خمسمائة ربية هندية ، لم يرد عليها جزاء إلا من الله ، واستلم الزوج هذا المبلغ المغري - في ذلك الظرف - الذي يعادل مبلغاً ضخماً - في هذا اليوم - ، وكما يقال : «حشفاً وسوء كيلة» ؛ فالربية لا يتحصل عليها في ذلك الوقت كما يتحصل عليها اليوم .

وعندما طلق الزوج الزوجة ، فكأن هذه الشابة بعثت للحياة من جديد ، ونفضت عنها أشباح البكاء ، وطيوف المستقبل الأسود الذي كان يحيط بها ، ويهددها .

ولعل هذه الحادثة وقعت عام الثاني والستين بعد الثلاثمائة والألف هجريه ، وأنا أتذكر ظلاً من ظلالها على غير استكمال تام لإستيعابها ؛ إما كمال صورة أحداثها الواقعية فقد رواها لي الأخ الشيخ حسن ، وكذلك مهدي بن حسن الجشي .

وهناك قصة ثانية رواها لي الأخ الشيخ حسن ، والذين يحضرون مرافعات القضايا في مجلس القضاء ، كما روى تاريخ وقوعها ، وبعض فصولها السيد حسين السيد سلمان من أهالي العوامية ، حسب ما روى لي تاريخ ميلاده عام أثنين وثلاثين بعد الثلاثمائة والألف هجري - ، فهو يؤرخ وقوع هذه القصة عام سبعة وخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجري ، نذكُرها وهي من أشد المرافعات تعقيداً ، فقد عجز عن حلها الكثيرون ، ولم يهتدوا لحلها .

فقد وقع نِزاعُ بين شخصين من أهالي القطيف، هما سعيد إبراهيم الضامن، وعبدالله حسين الفرج، بدون أن نسمي الشهود الذين مروا بظروفٍ في هذه القضية غير مشرفة.

وقد وقعت مرافعة هذه القصة، وكان والدي في رحلة إرشادية في قرية الجش الريفية - إحدى قرى القطيف -، حيث تقدم سعيد الضامن بدعوى على عبدالله بن حسين الفرج، لدى قاضي المحكمة الشرعية، مُدعياً عليه أن عبدالله ابتاع منه ألواناً من الأطعمة: كالرز، والدقيق، والسكر، ويصل ثمن هذه الأطعمة إلى خمسمائة «ربية» - العملة الهندية الّتي يتعامل بها القطيفيون والخليج في ذلك الظرف.

فأنكر المُدعى عليه، فكان على المدعي أن يثبت دعواه، فطلب منه القاضي وسائل إثباته فيما يدعيه، فقدم بينته على ما ادعاه، ففوجئ بسر خطير لم يدر بخلده، حيث أن بينته كانت سلباً عليه، وضربة مفاجئة غريبة كطعنة خنجر، تسددُ له من داخل بيته، حيث شهدت ضده، فعكست شهادتها، ووجهت سهامها ضدمن قدمها للشهادة، فشهدت أن عبدالله الفرج هو الدائن، والمدين هو سعيد الضامن.

فكان لهذه الشهادة وقع عميق، وأثر في نفس المدعي سعيد الضامن، ومحاميه حسين الشبيب، فراح يضرب أسداساً في أخماس لأنه خسر مبلغه، وترتب على ضوء هذه الشهادة أن يدفع لخصمه مبلغاً يماثل ماادعى فيه، ولم يستطع أن يتقدم بجرح، أو طعن في هذه البينة لتقديمها واختيارها، وتقديمها منه للمحكمة تزكية لها.

فسرت لمحة ذكاء ، وتريث ، وأناةٌ في آفاق القاضي الناظر للقضية بعد تأمل طويل ، ورجوع إلى فضيلة إنسانية ، وعصمة وازعة دينية تعفيه من الدخول في هذه المسألة المضطربة حلقاتها ، وأفهم الخصوم في مجلس القضاء أنَّه عاجزٌ عن حلها .

وهذه فضيلة من الفضائل تُسجلُ لهذا القاضي ، وهذا القاضي هو السيد إبراهيم والد السيد أحمد ، وسيد محمد من سكنة دارين القطيف ، كما روى السيد حسين السيد سلمان الساده أن القاضي الذي نظر في القضية المشار إليها هو السيد إبراهيم ، واستعفى من النظر فيها وهو الراوي لتاريخ وقوعها لي عام سبعة وخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، وأضاف أنه أول قاضٍ يعين من إخواننا السنة ، ليشترك مع الخنيزيين في إدارة دفة القضاء كل واحدٍ مستقل عن الثاني .

أما الأخ العلامة الشيخ عبدالحميد فيردد شخصية أول قاضي من إخواننا بين السيد إبراهيم المذكور ، وبين الشيخ محمد عبداللطيف ، وقد رأيت السيد إبراهيم ينوب عن القاضي في فترات إجازته ، ومرضه ، أو عزله عن منصبه .

فأحيلت هذه القضية إلى العلامة الزعيم الشيخ علي - أبي عبد الكريم - الخنيزي - رحمه الله - ، وحينما اطلع على مسار القضية ، ونظر في سيرها فرأها في دروب متعرجة ، قال هذه القضية لا يحلها إلا العم وهو جدير بحلها - يشير بذلك إلى الوالد الإمام أبي الحسن الخنيزي - لأنه عمه أخو أبيه ، فأحيلت له .

وبعد إطلاعه على مسار القضية ، أحضر كاتباً ودفتراً لضبط القضية ، وطلب من المدعي أن يدلي بدعواه ، ويوقع على أقواله ،

وكذلك المدعى عليه أن يدفع الدعوى بحجته ، ويوقع عليها في دفتر الضبط .

وكان في ذلك الظرف لا يستعمل القضاة دفاتر ضبط للدعاوي ، إنما تسمع الدعاوى شفوية ، لا تحريرية ، لأن القاضي يبت فيها في جلسة أو جلستين ، فجاءت مسار دعوى الضامن مع الفرج مثل ما صارت عليه في أسلوبها في المحكمة الشرعية المعروفة بالمحكمة الشرعية الكبرى اليوم.

فحانت لناظر القضية فكرةٌ بعيدة المرام ، واسعة الآفاق تستلهم العون ، والمعنى من قضاء الإمام عليّ – عليه السلام – ، فهو أقضى القضاة بعد رسول الله ، لقول الرسول –صلى الله عليه وآله– :

«أقضاكم بعدي علي»

ولقوله – صلى الله عليه وآله – :

«أنا مدينة العلم ، وعليٌّ بابُها»

فقد أثرى الإسلام علمُ الإمام علي ، وقد وصفه عبدالله ابن عباس فقال : «العلم في العالم ينقسم إلى عشرة أقسام ، اختص منها الإمام علي بتسعة سهام ، وشارك الآخرين في السهم العاشر» .

فاللجوء إلى علمه انفراج لكل عقدة ، ومفتاح حلٍ لمشكلةٍ تنطوي على قضية عويصةٍ ذات مشاكل عميقة الجذور .

وبعد ضبط القضية طلب من المدعي إحضار بينتهُ ، واستعمل مع الشهود أسلوب التفريق ، وهذا أسلوبٌ شرعيٌ مباحٌ ، بحيث أن يدلي كل شاهدٍ بما عنده على انفرادٍ أمام المتخاصمين تُضبطُ أقواله كتابياً ، ويبقى مكانه حتى يأتي الشاهدُ الآخر .

وعندما دخل الشاهد الثاني، كبر ناظرُ القضية وقال - ما مضمونه - : «إن الحق واحدٌ لا يتبدل»، ففهم الشاهد الثاني من هذا المقال أن زميله الشاهد الأول قال الحقيقة، وحانت منه يقظة ضمير، وصحوة إيمان، فما كان منه إلا أن قال: «إذا جئتُ بما هو الواقع الصحيح أكون آمنا ؟» . . . فأعطاه ناظر القضية ذلك.

وكل شاهد يأتى به كان الوالد، يسير على ضوء إمامه علي، فيردد كلماته: «الله أكبر لقد ظهر الحق»، ففهم منها الشاهد الآخر إن زملاءه شهدوا بما هو الصحيح حتى توالت الشهود.

ثم سأل الشاهد الأول فشهد بما شهد به الآخرون ثم جمع الشهود أمام المترافعين، وطلب من الشهود أن يفصحوا عن حقيقة شهادتهم الّتي تُدينهم أمام الله، وما الذي دعاهم إلى عكس شهادتهم الّتي لا تواكب الحق، والواقع وكيف تحملوها ؟ .

فكان جوابهم أن شهادتهم الأخيرة هي الحق، أما الذي حملهم على ذلك هوالسلاح الفتاك: سلاح الجوع فإن المعدة الفاغرة اضطرتهم إلى ارتكاب هذا المركب الخطير.

فالفقر أمضى سلاح لتحويل البشر إلى مهاوي الرذائل، لأن الفقر كاد أن يكون كفرا ، وما قدمه لهم المدعى عليه من لقمة تسد رمقهم، وتسكت بها أطفالهم، وتخفف من ويلات أزمتهم الخانقة، فاضطروا إلى الإنحرف عن الخط السليم، وطلبوا المغفرة والعفو من الله، والأمان من العقوبة.

كما روى لي السيد حسين - المشار إليه - أن المحاميين اللذين توليا المرافعة في جميع أدوارها حتى نهايتها : حسين

الشبيب ممثلاً لسعيد الضامن، وحسن الفرج ممثلاً لابن عمه عبدالله حسين الفرج.

هذه لمحات من ذكرى غفت على ذراع الزمن، وتحركت بعد أن صار البيتُ، والمدينةُ لا أثر لهما بعد عين.

وهنا أحب أن أشير إلى قول شخصٍ أوّل إحالة هذه القضايا للوالد الإمام الخنيزي، بأنها إشادة من ابن أخيه لعمه، والواقع أنها عجز وإحالتها على هذا النهج اعترافٌ بطاقته العلمية الّتي لا يصل لها غيرهُ في ذلك الوقت، وهذا من الوضوح كرائدة الشمس في النهار، ومتى احتاج النهار إلى دليل؟!. كما صرح ابن أخيه العلامة الشيخ علي أبو عبدالكريم في مثل هذه القضايا العويصة بقوله النصي: «هذه القضية لايحلها إلا العم»، حيث يشير الى عمه الامام الخنيزي.

ونسوق مثلا حياً هي شهادة من العلامة المجاهد المجتهد الشيخ محمد بن نَمر، الذي ولد في عام سبعة وسبعين بعد المائتين والألف للهجرة، وتوفي - رحمه الله - في عام ثمانية وأربعين بعد الثلاثمائة والألف للهجرة.

وهذه المشاهدة رواها لي حسن علي المرزوق - أحد شخصيات القطيف، ومن الذين أسهموا في حركتها السياسية، والوطنية، المتوفى عام ثلاثة وتسعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - وهو يروي ويقول أروي لك هذه القصة عن مشاهدة وحضور:

كنت مع العلامة الشيخ محمد بن نمر في حسينية المديفع الواقعة بالدبابية بالقطيف، فرفع أبناءُ آل رُقية إدعاءً على العلامة الشيخ محمد

ابن نمر، ففوجئنا بمجيء المدعين يصحبهم خوي - أي مندوب من الإمارة -، وطلب من العلامة الذهاب للمحاكمة لدى منصة القضاء.

وكان جوابه في كلمات صريحة مختصرة، لا يجوز لي التقاضي أمام أي شخص من العلماء غير الإمام الشيخ علي أبي الحسن الخنيزي، لأنه أفضل مني، وما عداهُ أنا أفضلُ منهم، ولا يجوز للفاضل أن يتحاكم عند المفضول.

لقد سقنا هذه القضية دليلاً على علمية ومعرفة الإمام الشيخ أبي الحسن الخنيزي في الفقه الإسلامي، وأصول القضاء أكثر من غيره في عصره، ولهذه المميزات تحال له هذه القضايا العويصة، فإحالتها ليست للإشادة، إنما هو عجزٌ لحلها، وما أوردناه دليل حي شاهد على ما نقول.

كما نسوق برهاناً آخر، وهوشهادة من مجاهد مجتهد لقوله الفصل، والرؤيا الواضحة، والدليل القاطع، هو المجتهد الشيخ حسن علي البدر، فقد أطلق رأيه مدوياً في حروف واضحة البيان أمام مجتهدي علماء أهل القطيف، وفضلائها، لا يصح تقليد أحدٍ بعد وفاة الملا الشيخ كاظم الآخند، غيرتقليد الإمام الشيخ - علي أبي الحسن الخنيزي -، لأنه يفضلُ الموجودين فيما أعلمه، ولا يجوز تقليد المفضول مع وجود الفاضل؛ وقد رواها لي الشيخ فرج العمران، والأستاذ الشيخ ميرزا حسين البريكي، والأخ الشيخ حسن.

هذه حقائق سجلناها، ونكتبها للتاريخ والحق لا للعاطفة وبرهان على ذلك ما تركه من آثار علمية في مؤلفات تحمل ألواناً من العلوم في استدلالات عقلية ونقلية ومن ضمنها كتاب دلائل

الأحكام الذي حين أضطلع علية زعيم الحوزة في عصرة السيد أبو القاسم الخوئي قال فيه جملة تقريضية وهي بالنص ما بيني وبين الله أن هذا الكتاب فيه علماً غزيراً .

ومن الذكريات في هذا البيت الذي كُنا نعيش في وصف حياته في هذه الأسطر - عوداً على بدء - ، مع الخطيب المرحوم علي المسلم ، حيث روى لي قصة علمية نافعة لمن أراد أن ينتفع بها ، وفكراً يدور على تحديد مطلع الفجر ، والشروق .

الفجر الذي يعقب الليل ، والشروق الذي ينبثق منه أضواء الشمس لترسل الحياة حية في البشر ، في الزرع ، في كل شيء .

ولتكملة القبسة الفكرية ، ومصلحتها لخدمة البشر ، نسجلها حتى لا تضيع كما ضاع الأمس .

فقد حكى لي الخطيب علي المسلم أنه اقتبس من رأي الإمام الخنيزي فائدةً ، وهي تحديد المدة الزمنية بسبع الليل بين الشروقين ، أو الطلوعين ، أي بين بزوغ الفجر ، وشروق الشمس ، طال الليل أو قصر ، لا كما يحدده بعض الذين يجهلون علم الفلك ، فيحددونها بتسعين دقيقة بينهما ، طال الليل أو قصر .

وأضاف الخطيب ، فقد ثبت خطأ من قال بتسعين دقيقة ، وصحت نظرية الإمام أبي الحسن الخنيزي ، فهو سجلٌ لمضامين فكرية ، والفقيه بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، كما يحمل آفاقاً من العلوم الواسعة ذات فنون متعددة الجوانب ، لديه بسطة من علم الفلك ، حيث يرصدُ علامات الكواكب ، وعلى ضوئها يقسم منازل الليالي ، والأيام السعد منها ، والنحس في الزواج ،

والتحول من مكان لآخر على دائرة حسابية يرجع لها بفكره وعلمه.

فعلى ضوء هذه النظرية حدد علماء الفلك المحدثون في تقاويمهم مدة زمنية تقرب من هذه المدة المحددة بين الشروقين على منطق علمي مدروس يطابق الواقع.

وقد وَجدتُ في الجزء الثاني من كتاب الأزهار صفحة (١٧٥) - مطابع النجف الأشرف عام ستة وثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - ، تأليف أستاذي العلامة الشيخ فرج العمران، ما يحدد الشروقين على ضوء هذه النظرية الّتي رواها الخطيب مُلا علي، بدون أن يشير الأستاذ الشيخ فرج العمران في كتابه عن من إقتبس هذه النظرية نسجلها كما هي بالنص:

«المدة الّتي بين طلوع الشمس، وطلوع الفجر الذي هو وقت أذان الصبح سبع الليل تقريباً».

والوجه في ذلك أن نور الفجر، وإن كان مستنداً إلى الشمس، ولازمه أن هذا النور لا يبرز على سطح أفق المصلي من طرف المشرق، إلا إذا كانت الشمس في نقطة معينة تحت الأرض، فكما أن حركة الشمس، أو حركة الأرض لا تختلف طيلة أيام السنة، فكذلك ينبغي أن تكون المدة بين طلوع نور الفجر، وطلوع الشمس لا تختلف، ولكن مع ذلك يلزم عدم اختلاف ما بين الطلوعين.

وذلك لوضوح أن الليل في الشتاء أطول منه في الصيف مع أن حركة الشمس، أو حركة الأرض لا تختلف طيلة أيام السنة.

فكما أن الليل في الشتاء، أطول تكـون المدة بـين الطلوعـين أطول، وكما أن الليل في الصيف أقصر تكون المدة بـين الطلوعـين أقصر، وأطولهما تكون المدة بـين الطلوعـين ساعة وثلاثـة أربـاع الساعة، وأقصر ما تكون المـدة بينهمـا سـاعة وربـع سـاعة بحسـب التقريب في المقامين.

ووجدت ما يشبه ما سجله أستاذنا الشيخ فرج في كتاب مفتاح الفـلاح للشـيخ البهـائي المحقـق - منشـورات مؤسسـة الأعلمـي للمطبوعات بيروت - لبنان في الصفحة السابعة من الكتاب نفسه.

وأحب أن أعلق على ما أوردناه للأستاذ الشيخ فـرج العمـران في هـذه الأسـطر عـن الشـروقين، حيـث قـال أن حركـة الأرض والشمس لا تختلفان طيلة السنة، وهذه نظرية لا ظل لها من الواقع، فإن الأرض تتحرك، وتدور حول الشمس، ولو لم تتحرك، وتـدور لما مر علينا الفصول الأربعة: شتاء، وربيـع، وصيـف، وخريـف، ولو لم تدور الشمس حول نفسها لما جاء الليـل، وانطـوى وأشـرق النهار.

ولا أعلم ماذا يقصد به الأستاذ من مفهوم عدم التغير، ولعلنا لم نفهم مرادهُ، أو هذه نظريةٌ لفلكيين سابقين لم يعيشوا علـى صعيـد هذا العصر المتطور الذي وصـل فيـه الفكـر إلـى أبعـد حـدود لا نتصورها بفضل خالقه، لا كالذين قالوا بعدمٍ دوران الأرض، ومن قال بدوران الأرض كجاليلوا، فقد راح قتيلاً صريع نظرية فكـره، أو كمن عاش على النظرة البالية أن الأرض محمولةٌ على قرني ثور، إنها نظرةٌ لا تواكب الواقع فقد بين القرآن العظيم كيف دحى اللـه

الأرض ، ورفع السماء ، إنه البرهان العلمي ، والواقع الذي لا يتبدل .

وقبل أن أطوي ملف القلعة وما فيها من ذكرياتٍ حلوة عشتها فيها وفي بيتي ، وما فيها من صور نمتار منها للذكرى أشير إلى حياة غفت ، وانطوت مع بيوت القلعة ، ولكنها تعيش في قلبي ، وعيني .

فبيتي لا يزال ماثلاً ، أعيشه حياة الطفولة ، وأمرح بين جدره ، وتحت سقفه ، وأنا في ربيع الشباب الذي لا يعوض بشيء في هذه الحياة ، وحياة أبي المكتنزة بروح المعاني ، وجوهرها المثالي ، ومعاني متسلسلة جداول متدفقة ، فياضة تشرب منها أرواح العُطاشى .

لعلي قد أشرت عن هذه اللمحة في الحياة الأدبية ، ولو إيماءة الشاطئ ، ولكن هناك فصلا من هذه الحياة الذي ذهبت مع الأمس الدابر ، ولا نقدر على رده إلا خيوط إذكارات من ظلال حياةٍ ماضية كنت أعيشها في بيتي ، وهذا الفصل بعد وفاة أبي .

وهنا يحلو لنا أن ننشر صفحاته ، وننفض عنها الغبار ، فنقرأ هذه الأحرف ، فنبدأ بأول حرف من هذه الصفحات .

فبعد وفاة أبي نُقلت الجلسات العلمية ، والأدبية من غرفتي إلى غرفة مكتبة الوالد ، وهي تسمى - باللهجة القطيفية - : «الخلوة» .

وتعريف الخلوة : هي الّتي يخلو فيها رب المنزل ليبتعد عن ضجيج الأطفال والعائلة ، وهذه غرفة تقع في أعلى دور من المنزل ، لها فتحاتٌ تشرق منها الشمس ، وتتنسم الهواء ، وهذه الفتحات تفتح في أحد جدرها الأربعة أو كلها ، وأكثر ما تبنى على سطح

البيت مع مرافقها ، وبعضها تصلح لجميع فصول السنة ، وبعضها للصيف ، والخريف ، والربيع ، فتسميتها بهذا الاسم تسمية عربية صميمة دقيقة .

وبعد هذا الشرح والتعريف للخلوة ، نعود فنتحدث عن فصول الحياة في هذه الخلوة بعد وفاة أبي ، فكانت هذه الخلوة أفقاً فكرياً ، وسماءً تطلعُ منها الدراري ، وشباب الفكر .

فكانت هذه الخلوة مقر النادي السيار الذي لا يرتبط بعضوية ، أو رئيس ، وكان على رأس هذه الكوكبة الفكرية بعد رحيل أبي إلى دار الخلود ، العلامة الشيخ عبدالحميد الخنيزي . . . . فكم من شابٍ طلع من سماء هذه الخلوة ، وغرد على أيكة الحياة ؟ ! . . . . وكم أديب ، وكاتب لمع من آفاق هذه الخلوة ؟ ! .

فهي مدار سماء لكوكبة من أضواء الفكر القطيفي ، وكان العضوان الملازمان لهذه الحركة الفكرية مع العلامة الخنيزي ، كاتب هذه الخيوط ، وأخاه الشيخ عبدالله الخنيزي ، فهما الدعامتان اللّتان تدور عليها الحركة الفكرية في هذه الخلوة .

أما أستاذنا بعد رحيل الوالد ، فهو العلامة الشيخ عبدالحميد الخنيزي الخطي ، واستمرت هذه الحركة في هذا المقر من عام أربعة وستين بعد الثلاثمائة والألف هجري ، إلى يوم التاسع عشر من شهر جمادى الآخر عام خمسة وثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجري .

وبهذه اللمحة القصيرة العزيزة علينا نطوي ملف القلعة ، وملف بيتي لنعود فننشر فصولاً أُخرى من هذه الحياة .

* * *



صورة تعطي بعض المعالم لحاضرة القطيف القلعة
وقراها قد إلتقطت جوا من سمائها



نقلة جديدة

فنعود إلى نقلةٍ ، وفصلٍ جديد ، إلى حياةٍ فكريةٍ تتجددُ مع تجدد الأيام ، حيث نُقلت الحركة الفكرية إلى بيتي الجديد في حي البستان بتاريخ عشرين جمادى الآخر عام خمسة وثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجري ، الموافق خمسة وستين بعد التسعمائة والألف ميلادي .

فصار أفقاً تطلع في سمائه كوكبة من الأدباء ، منهم الرواد الأوائل : كالشاعر محمد سعيد أحمد الجشي ، والأستاذ /السيد حسن السيد باقر العوامي ، والشاعر عبدالواحد حسن الخنيزي ، والشاعر محمد سعيد المسلم ، والأديب علي الشيخ حسين القديحي ، والشاعر عبدالله الشيخ علي الجشي ، ولا ننسى دور الأخ الشيخ عبدالله فإنه عنصرٌ هامٌ ، أما القطب الذي يدير الحركة الأدبية بالأمس ، ويغذيها هو الذي يديرها اليوم العلامة الخنيزي الخطي في سمائها الجديدة .

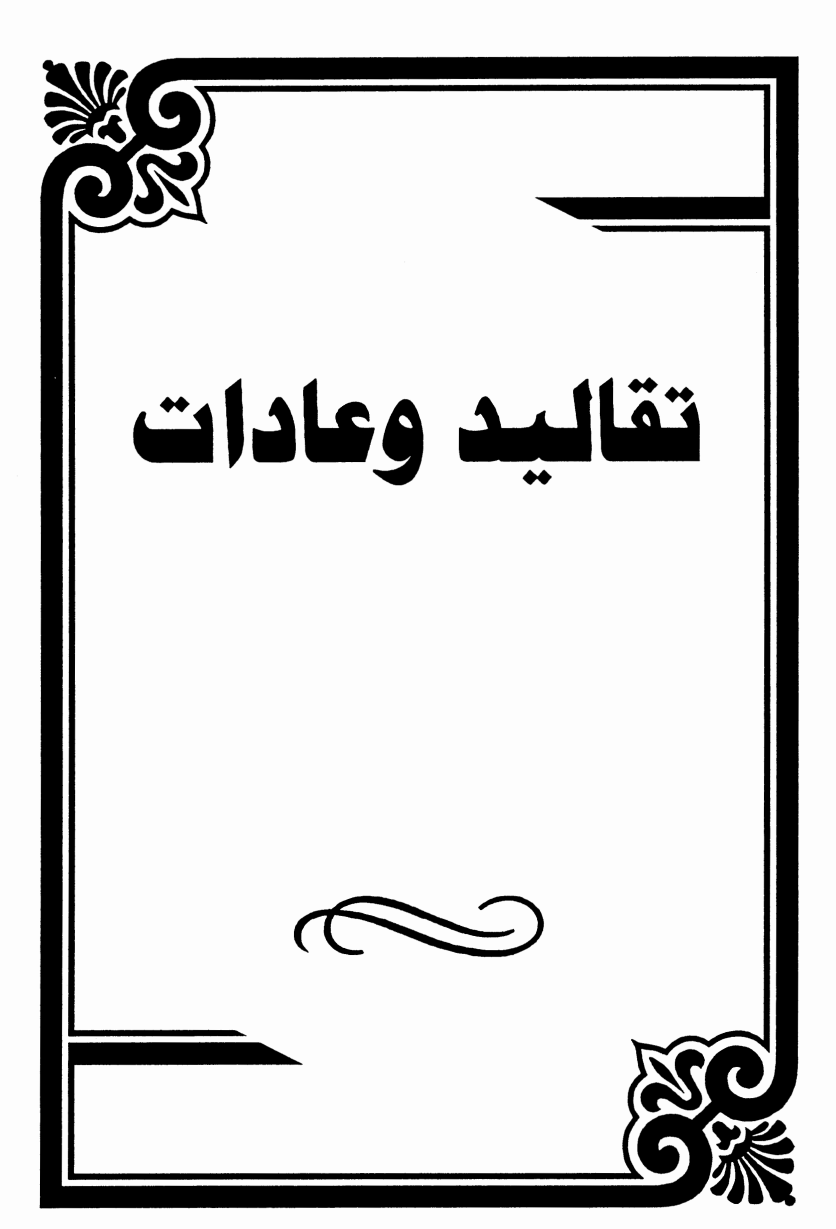
ومن الكوكبة الجديدة الشاعر محمد الشماسي ، والشاعر عدنان العوامي ، والأديب الصحفي محمد رضا نصر الله ، والشاعر محمد علي الناصر ، والأديب الصحفي فؤاد عبدالواحد

نصرالله ، وبين الفينة والفينة يحضرها بعض الأساتذة كالدكتور عبدالله المبارك ، والشاعر أحمد الراشد المبارك ، والأستاذ عبدالرحمن العبيد ، وقبلها زارني الأستاذ عبدالرحمن العبيد في بيتي بالقلعة عندما كتب كتابه الأدب في الخليج ، إلى ما يماثل هؤلاء من نجوم الفكر الّتي لا تحضرني أسماؤها لطول الزمن ، وبعد التاريخ .

ولم تزل هذه الحياة تمر بفصولها ، فصلا بعد فصل في بيتي في حي البستان إلى تاريخ السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام سبعة بعد الأربعمائة والألف هجرية ، الموافق الخامس والعشرين من شهر مايو عام السابع والثمانين بعد التسعمائة والألف ميلادي .

وعند هذا التاريخ انتقلت الحركة الفكرية إلى بيتي الجديد بحي الحسين ، وصار كنادٍ للفكر والأدب ، ولمناقشة الأفكار العلمية والأدبية ، ويزدهرُ بهذه النجوم الفكرية اللامعة ، ويديرها ، ويرعاها العلامة الخطي الخنيزي ، وأسأل الله لي ، ولمن بقي من هذه الكوكبة العمر المديد ، والربيع الفكري المخصوصب .





تقاليد وعادات

إن هناك فصولاً من كتاب حياة القطيف لم أشر إليها ، وقد ضاعت مع الأمس الدابر ، وقد أقلع عنها أبناء القطيف ، ولكنها تمثل ناحية من نواحي الحياة العامة ، صُبغت بصبغة الحزن ، والتأثر بمصاب قتل الحسين - عليه السلام - ، وأولاده ، وأصحابه في كربلاء .

فكانت تمثل دوراً على مسرحٍ من الأسى ، والتأثر في شهري محرم ، وصفر ، حيث لا ترى نساء هذه الربوع إلا وهي متوشحةٌ بالسواد ، وتخلع ما عليها من زينة وحُلي ، مدة شهري محرم ، وصفر .

وهذه جاءت من بواعث الحب ، وضعها الشعب من نفسه ، بدون أن يرجع إلى تاريخ ، أو أمر من الفقهاء ، كما تأثر بهذه الطقوس الشعب اللبناني في جبل عامل كما قرأته في كتاب «الشعر العاملي الحديث في جنوب لبنان» ١٩٠٠-١٩٧٨ ، للدكتور قيصر مصطفى ، وكذلك سمعتُ ورأيت الشعب العراقي يلبس هذه الطقوس ، فإن الشعوب تضع لها عادات ، وتقاليد ، وتتمسك بها ، وتسيرُ عليها ، وقد تقلع عنها .

كانت القطيف وقراها ، ومدنها ، إذا هلّ هلال شهر محرم ، ويعقبه شهر صفر ، فكأنما صبغة الشَفَق تعيدُ لهذا الشعب مصابَ

الإمام الحسين ودمه الذي توهج، فعاد شمساً يشرق في كل نفسٍ حرة، وينادي بالثورة ضد الظلم، وقد عبر الشاعر المعري، فرسم هذه الصورة المتحركة في منظرٍ دامي:

وعلى الأفق من دماء الشهيدين	**عليٍ ونجله شاهدان**
فهما في أواخر الليل فجران	**وفي اولياته شفقان**

فلبواعث الحب والتفاني، يسودها في كل عامٍ موجة من الحزن، وقد كتبتُ هذه التوطئة لقصيدةٍ أسميتُها: «أمسيات الدستور»، صورت فيها هذه العادات الشعبية، غير أني لم أثبت هذه التوطئة للقصيدة الّتي طبعت في ديوان «شيءٌ أسمه الحب».

ولما انقرضت هذه العادات، وعفى عليها الزمن، وبقيت في ذمة التاريخ، ودَرست آثارها، ومعالمها، أحببت أن أصورها مناظر وفصولاً، وأرسمها حرفاً هنا، لتبقى هذه العادة في ذكرى التاريخ، ويَطلعُ عليها الأجيال القادمة.

يسود الحزن عالمنا شهرين متصلين حتى تنسى الثغور - خلالهما - الإبتسام، والصدور الانشراح، والنفس الارتياح والسرور، ويخيل إلينا كأننا في دنيا مغلقة بالمصائب الكبار، والحوادث الجسام، لأننا نعيش مأساة دامية ليس في التاريخ مأساة تماثلها، حيث وقعت على دراري آل الرسول - صلى الله عليه وآله -، فَسُبِين كما يُسبى الديلم، بعد قتل سبط رسول الله، والتمثيل به، وتقطيعه إرباً إربا.

فما يكاد يشرفُ شهر صفر على النهاية، حتى تستعد النفوس للانطلاق من هذا الجو القاتم الأعماق، وتتهيئ الرئات لاستنشاق

الهواء الجديد ، وتبتذر الشفاه إلى خلق بسمات جديدة ، وان شئت فقل إننا نبعثُ إلى الحياة من جديد أمة جديدة .

وإذا بعيدٍ أهليٍ من أبهج الأعياد وأمتعها ، يوحي إلى الذهن ، والقلب من شعور الغبطة ، والحبور ، ما توحيه الأعياد العامة في القطيف .

ويتضاعف بهجة ، ومتعة اختصاصه - تقريباً - بالجنس اللطيف ، فإنهن يحتفلن به احتفالاً رسمياً ، ويعددن له من ضروب الأنس ، وألوان الإمتاع ، مالا أطيق وصفه ، وحصره في هذه الأحرف ، ويعقدن فيه حفلات جميلة - وأقل ما توصف به الجمال .

فإذا حانت الساعة التاسعة بالتوقيت الغروبي مساء آخر يوم من شهر صفر ، رأيت أسراب كوكبة من السيدات والأطفال ، تخترق شوارع المدينة في طريقها إلى البحر ، وأغاريدها العذبة السمحة ، تبعث في جوانب النفس البشرية نشوة عِلوية ، وتحفزها إلى مشاركة هذه الأزهار البشرية ، ما هي فيه من لذة الفرح .

إن منظرهنَّ لعجيب وفاتن إلى أبعد حدود العجب والفتنة ، فإنهن يدخرن لهذا المساء الخالد أفخر الحلل ، وأطرزها ، وأغلاها ، ويفرغن على أنفسهن كل ما في وسعهن من صنوف الزينة ، والأنوثة الرقيقة ، حتى يخيل إليك إنهنَّ ، وما فيهن من محاسن ، وإغراء كأنهنَّ ماثلات بين يديك .

وأفتن من كل ذلك ، طوافهن بالحقول الناظرة الضاحكة ، فلا تدري أهنّ يزدن الحقول جمالاً ، أم يكتسبن من الحقول جمالاً .

وأشد من ذلك إغراءً ، وافتتاناً عودتهنَّ ، وقد مالت الشمس إلى الغروب ، وضَمخت آفاق السماء بدماء الشفق ، ومرت

النسمات بليلة عليلة على تلك الوجوه النادية بالنعيم ، وتلك الثغور العفيفة المليئة ببسمة الرضى والاطمئنان ، وفي يد كل حسناء باقة رتبت حسب ذوق حاملتها ، وحبها للألوان ، والزهور ، وما أظرفهن وهنَّ يقذفن أعماق البحر الجبار بالحصيات إيذاناً بانتهاء المهرجان ؟ !.

فيعدنا إلى بيوتهنَّ حاملات على أكفهن الورود ، ويزغردن كالعصافير بهذه الكلمات الرقيقة :

خُضره .. خُضره عن الغبرة

أي أن هذه الأغصان الخضراء تصون البيت عن القسطل ، أي الغبار .

ويعلقن أغصان الأزهار على طرة أبواب بيوتهن ..... ما أجمل هذه المناظر وأبدعها ؟ !... كما يحطمن الجرات الكبار والصغار كأنهنَّ مدافع تحيّ هلال شهر ربيع ، ويحرقن أكواماً من القِشة ، وخوص النخل يصورن أنهن ، يحرقن الحزن الذي جثم في آفاقهنَّ طيلة شهرين ؛ ويتحلقن حول هذه النار ، وهن يرقصن ويهزجن بهزج شعبي من بعضها :

وا ... صفيروه ، صفر طلع منْ الحضار طفر

كما تردد العجائز هزجاً وأغنيةً شعبيةً أخرى :

«طلع صفر حندوبتي سالمة»

فكأن هذه الأغنية ، تنبعث من غضون الخطوط التي خطها الزمن ، وحفرها موكبه أعواماً تتناثر كالأوراق في الخريف .

هذه العادة الّتي عفى عليها الزمن، وماتت كما يموت الأمس مررت عليها لأنني عشت فصولها، وصورها قطعة من الزمن، فكان لزاماً عليّ أن أمر عليها هذا المرور.

كما أن هناك عادة شعبية انقرضت، نحب أن نمر بفصولها، وهي عادة مطردة في القطيف في حاضرتها، ومدنها، وقراها:

ففي شهر شوال أو ذي القعدة، إذا بدأت رحلة الحجيج إلى الحج على أجنحة الشوق إلى مكة المكرمة وزادهم الإيمان، يقوم أهلهم بأخذ وعاء من خوص النخيل ويملؤونها رملاً، ويضعون فيها بذوراً، ويغذونها بأسمدة من روث الحمير، ويسقونها كل يوم، ويعلقونها في مشبك في أحد جدر البيت، ويسمى هذا الوعاء: «الدوخلة»، وفي كل صباح يغنون عليها أغنية شعبية:

دوخلتي، دوخلتي، حجي بي، حجي بي، الين يجي حبيبي، حبيبي حبيبي راح مكة، مكة المعمورة، فيها السلاسل، والذهب والنورة حجيت بش يايمى، راويتش قبر محمد صلوا عليه وآله وسلم

فيستمرون في إكمال النشيد، وتصبح هذه الدوخلة منظراً مبتسماً بالأزهار، وفي يوم العيد من شهر الحج، يذهبون بهذه الأوعية بعد وجبة الغذاء إلى البحر، ويلقون بها في أعماقه فداءً لأحبائهم.

وهناك مناسبتان سعيدتان من فصل هذا الكتاب، تنبع من ولاءٍ للرسول وآله - صلى الله عليه وآله وسلم - هي ليلة النصف من رمضان، وليلة النصف من شعبان، وتسمى باللهجة القطيفية «بليلة الناصفة».

فهاتان الماسبتان السعيدتان تقترنان بمولد سبط رسول الله الامام الحسن سلام الله عليه حيث ولدت به سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء ليلة النصف من رمضان، وكذلك مولد الإمام المهدي محمد بن الحسن في ليلة النصف من شعبان.

وفي هاتين المناسبتين، تحتفل هذه الربوع، وتُجلى القطيف عروساً في هالةٍ من نور يزيدها جمالاً تطواف أطفالها على البيوت وهم ينشدون ألحاناً كالعصافير في أدواحها، ويغردون كالبلابل فوق الأشجار، مرددين أغنيةً شعبية وهي تنطلق زغاريد في كلمات بريئة طاهرة:

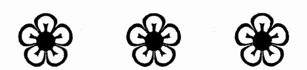
«ناصفه، حلاوة... إكريك شون.. حلو الكيس واعطونا واعطونا

الله يسلّم اوليداتكم سالمين غانمين لوما أولاداكم ما جينا»

وهم يرتدون أبهى حللاً جديدة، فتراهم في أبدع منظر وأجمله، فتتقدم لهم ربة البيت الفول السوداني، والحلويات، أو الشيكولاته؛ ويعرف الفول عندنا ب «السكسبال».

لو كنت معي لرأيت هذه الأسراب كأمواجٍ في نهرٍ سلسال عذب يمر عليك في منظرٍ سحري من أعجب المناظر وأفتنها.

وهاتان المناسبتان، لا تزلان حيتان، يمارسها الشعب، وأطفاله، وزادها هذا العصر إغراءً وفتنة لوجود الكهرباء حيث تغرق القطيف في أمواج من الأنوار.





جراحات الليالي

إن للزمن ، والأيام جراحات عميقة تمر بكل فرد من هذا البشر ، فالصبر هو الركيزة الّتي تكشف عن مدى تحمل طاقات عقول الإنسانية في هذه الحياة المملوءة بالمصائب ، والفتن .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ضروب من هذه الألوان ، والبلايا حيث قال :

«إن الله مع الصابرين» ، «واصبر وما صبرك إلا بالله»

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة ، ومن الحكمةِ :

«الصبر مفتاح الفرج ، ومفتاح كل مغلق»

وهذا لا يكون إلا بمددٍ وعون من خالقنا خالق كل شيء .

فجراحات الليالي ، والزمن تستهدف البشرية ، فتمر كما يمر الغربال بالحب فيسقط الزوان ، وأنا واحد من هذه البشرية مررت بعدة جراحات ، ولكن الله أعانني ، وثبتني على حملها .

فمن هذه الجراحات عمليات المشرط الكُثر الّتي أشرت إليها في هذه الخيوط ، لاتصالها بصميم حياتي اتصالاً مباشراً ، وآخر عملية أجريتها في مستشفى أرامكو في ٢٧/٤/ ١٤١٤ هجرية ، الموافق ١٣/١. /١٩٩٣ ميلادية ، حيث أُجريت لي عملية جراحية في محل سبق أن أجريت لي فيه.

وهي عملية جراحية لفتق أُجريت بعد عودة الداء ، وكنت على قلق ، غير مستقر ، واضطراب كسفينة في تيارات أمواج على كف عاصف ، ولكن الإيمان بالله على رسوخ العقيدة ، والتصديق بوحدانيته كان لها الدور ، والأثر الكبير في نجاح هذه العملية ، وعدم مواجهتي في طريقها أي لون من ألوان الصعوبات ، بل كانت كرحلة من رحلات التنزه الّتي تُعطي النفس نشاطا وجدية .

حيث اكتشف الطبُ طريقةً جديدةً مُريحةً لبعض العمليات ، ومن ضمنها هذه العملية الّتي أخذ الجراحون يجرونها عن طريق المنظار ، وإدخال قطعة من مادة طبية من نوع خاص لسد الفتق بدل الشق ، وعدم خياطتهِ بأسلوب الطب القديم .

ومن حسن الصدف أن فريقاً طبياً من ذوي الخبرة ، والمهارة كانوا في زيارة علمية ، وعمليه يخططون البرامج الجديدة لمستشفى أرامكو ، ويدربون عليها الأطباء المختصين بالجراحة ، فهم الذين تولوا هذه العملية ، وهذا من نعم الله عليَّ الّتي لا تُحصى ، ولكن أكثر الخلق لا يشكرون مولاهم الشكر الحقيقي ، اللهم اجعلنا من الشاكرين المطيعين لله ، ولرسوله ، ولخلفائه الراشدين ، الهادين ، المهديين من أهل بيته المعصومين .

كما نورد هنا قصة أعادت فراغاً جديداً في بيتي ، فالتاريخ يعيد نفسه كما يقال ، وهذه القصة أو هذه الحياة المتجددة الآلام الّتي تحتاج إلى مددٍ وعونٍ من الله .

فقد تجدد ألمُها في اليوم الثامن عشر من شهر ذي القعدة عام السادس عشر بعد الأربعمائة والألف هجرية ، الموافق ميلادي

السادس من إبريل عام السادس والتسعين بعد التسعمائة والألف، حيث تضاعف المرض على والدتي، فأفقدها النطق، وأصبحت صمتاً، فهي تشبه الشبح أو المومياء المسجى على سريره، فنومت في ذلك اليوم التاريخي في مستشفى القطيف المركزي.

ويشاء الله أن يضاعف البلاء، ففي يوم الثامن عشر من شهر ذي القعدة عام السادس عشر بعد الأربعمائة والألف هجرية الموافق السابع من شهر إبريل عام السادس والتسعين بعد التسعمائة والألف ميلادي، وقعت الزوج من إحدى السلالم، وهي تنظفه وتلمعه، ولم يَرعَ لها هذا الجميل، فدحرجها من فوقه، كما يدحرج الكرة لاعبوها.

فأصيبت بكسرٍ في الورك، وتلف العظم المسمى بالجوزة وهو المحرك الّذي عليه مدار تحريك كامل الرجل، فنومت في مستشفى أرامكو لإجراء العملية الجراحية، وإبدال الجوزة بجوزة صناعية من المعدن.

فعاد الفراغ في سماء بيتي يتضبب في صورةٍ قاتمةٍ أكثر من ذي قبل من الفراغ الذي أعقب مرض الوالدة، وسفر الزوجة إلى الولايات المتحدة، حيث لم يكن معي أحد من أفراد العائلة يخفف ذلك الفراغ، كما كانت في تلك الفترة السبطة هند التي أشرنا لها، فخلدت إلى الصمت وفزعتُ لربي ليلهمني الصبر والأناة، وعندما خرجت الزوج من المستشفى كانت الراعية لها، والقائمة بشئونها البنت فردوس، وبنتها غادة سعيدسلمان آل حبيب، فتجسدت هذه الحياة أوتاراً باكية في ثلاث قصائد، نورد منها فصلاً من قصيدة «طيفُ غريب»، ونورد فصلاً ثانياً من قصيدة تحت ظلال الصمت:

« طيفٌ غريب »

عشــتُ يــا رب في فــراغ جليــد
وسـط دنيـا مـن الشـقاء العنيـدِ

أوحيــدٌ أعيــش طيفــاً غريبــاً ؟!
في صـراع الخطـوب ، والتنكيـدِ

بطنــت أفقــي الضحــوك مــن
الغيمات موجاتُ بارقٍ من رعـود

وأطلــت أشــباحُها في سماهــا
وتمشــت كليلهــا الممــدود

مقعــدٌ أمــي الّــتي هــي سُــكرى
مــن كــؤوس الآلام لا العنقــودِ

وأصــاب الـزوج الحنـون كسـورٌ
وســط وركٍ أودى بهــا لقعــود

مـن علـى السـلم الـذي نظفتـه
وأعــادت بــه ســنى التوريــد

« تحت ظلال الصمت »

يــا أم قــد أصبحــتِ كالشــبحِ
في ظــلّ صمــتٍ في يــد الــبرح

أموميــاء أنتِ في جسـدٍ فـوق السـري
تلــــوح كالشــــبح ؟!

لا تنبشــين بحــرف هاجســةٍ
مـاتت وراء جفـون الليـل والسـبحِ

نـاديت بـاسمك مـرات بـلا عـددٍ
بـألف يـاءٍ ويـاءٍ مـن فـمٍ قـرحِ

وأنــت في موجــة الآلام مُغرقــة
يلفهــا عــالم الأوجــاع والــترحِ

هذان مقطعان من وترين باكيين أوردنا سيمفونية منهما .





أضواء على التاريخ

إن التاريخ يتصارع فيه الليل، والنهار، والعتمة، والفجر، فهم في حركة دائبة لا تعرف الوقوف، أو التفتير، وبين هذا الصراع: بين الضوء والظلام قبور البشرية، ومصارعها، ونهايتها.

يمر الفرد منا في ظلال الأيام والليالي، أو قل في ظلال التاريخ، كطيف يعبر من شاطئ إلى آخر، أوكإيماءة طيفٍ لطيف آخر، فإنه سيرحل، مهما طال به المقام إلى حياة نعيم، إن كان من الأتقياء المطعين، أو إلى حياة الجحيم، إن كان من العاصين.

والتقوى كما عبر عنها القرآن الكريم هي خير زادٍ لهذه البشرية في الدنيا، وكنزٌ في الآخرة، فقد انعم الله عليها بأفضل النعم، وألوانها.

لقد قلتُ مهما طالة الإقامة فلابد من الرحيل، والرحيل عن هذه الحياة رحيلان، رحيل يخرج من ظلال هذه الحياة فكأنه لم يمر بها، ولم يعش كظل من ظلال نخيلها، أو أشجارها، فإنه عندما ينتهي..... ينتهي ذكره بموته، وبعد حفنة من أيام تمر عليه لا يُعرف، ولا يُذكر، لقد طحنه الزمان بكلكله، واندثر في خبر كان، وضاع في ملفات السنين، والأزمان.

وآخر يملأ سمع الدنيا وقلبها ، وهذا العالم المملوء بالمفارقات لا يزال أصداء من حياته ، كأنه يعيش حياً ، وبعد رحيله يكون له دوي يملأُ مسامع الدهر ، فكأنه حيٌ يشارك الأحياء في حياتهم بما فيها من ضروب الألوان .

لقد تعفى هيكله المادي ، وغاب عن العيون ، وماتت رؤاه ، وأحاسيسه ، وانتهى من صفحات الحياة إلى عالم الخلود ، عالم السعادة والنعيم ، أو عالم الشقاء والعذاب ، ولكن أفكاره تظل حية تعيش مع الأزمان ، وتدور مع الفلك الدائر .

فإن كانت هذه الأفكار منبثقة من أضواء هدي محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم ، أنبتت السوسنة ، والأزهار ، وتشرق بدوراً تضيء الليل ، وتعطر الحياة .

كلنا سنصير إلى نهايةٍ ما بعدها من نهاية ، وهي نهاية الرحيل عن هذا العالم ، ولكن الفرق والتفاوت بين أفراد البشرية كبير ، فمنهم من يترك طابع بصماته على صفحات التاريخ ، فهو العبقري الذي يبقى تمجده عقول العباقرة أجيالاً بعد أجيال .

هكذا حياة العبقري ، أو حياة المبدعين الذين يجيء التاريخ قطعة من أعمارهم بغير حساب . . كم عاشَ وطوى من كتاب عمره ؟ ! . . . . . . لا فرق بالحساب الزمني الذي قضاه المرء على هذا الكوكب ، إنما الحساب في ماذا عمل ، وما خلف ، وما ترك من أفكار ، وأعمال صالحة .

إن الزمن لا يحفظ الزوان بل يتساقط منه كما يتساقط من الغربال .

هذه الحروف مرت كخاطرة تشير لآفاق أفكارٍ، وخواطرَ تبطن العقول بغيماتٍ داكنة تطل من آفاق الغروب، ولا تختص بمفكر دون آخر، أو بعبقري واحد دون غيره، بل تسود، وتسيطر حتى على دنيا أفكار العوام، فالحياة يحرص عليها كل البشرية.

فالبشر يحاول الخلود، ولكن لا خلود يبقى في هذه الحياة، وكل محاولة في الدنيا للبقاء لا تبقى، فقد يبقى له بعد الرحيل صورة شمسية تحكي ظلال شخصه من هيكله المادي، أو يسجل صوته في شريط كذكرى لأهله بعد الرحيل، أو صورة في شريطٍ تعرِضُها شاشة تلفاز، أو «فيديو» إلى ما يماثل هذه الأجهزة العلمية المحدثة المتطورة الّتي ترسمُ ذلك الشخص وتعطيك صورة متحركة عنه عند هدوئه، واضطرابه عند نومه، ويقظته، ولكنها لا تخلدهُ بهيكله الماثل الحقيقي.

ولربما أتى الزمن القاسي فمشى على هذه الصور، والحركات، والسكنات، وكل ما أراد أن يخلده على صفحات الحياة بعد رحيله من هذا العالم الفاني، فتتبعه في الفناء.

قد تتخلف الآثار ردحاً من الزمن بعد رحيلِ صاحبِها، فيأتي عليها أزمانٌ، وأزمان فتُفنيها فتتبع صَاحبها.

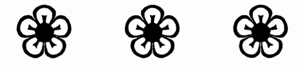
إذن؛ لا خلود في الحياة، إنما هناك ثمة خلود نسبي يتفاوت فيه البشر بمقدار ما وفق فيه في هذه الحياة، لا بمقدار ما ترك من فكر، وعقل، وأثر يصوره.

وفي رأيي أن الحرف هو أبلغ تصويرٍ لصاحبه من كل تصوير آخر، لأن الحرف هي الأداة الّتي ترسم الشخص، وتجسده أبلغ من

كل جهاز ، فالأجهزة الحديثة إنما ترسم منه الهيكل المادي ، وإن كان الهيكل المادي يفسر معالماً ، ولكنها في أبعادها ليست كرسمة الحرف الّتي نستشفُ من ورائِها رُوح الشخص الّتي هي الجوهر المتحرك في هذا الهيكل الطيني في جميع ألوان أسرار حياته ، وما فيه من خفايا ، فمنها ننفذُ إلى روحه ، ومن روحهِ تنفذُ إلى هيكله المادي ، فحياته مصورةٌ ، ومجسدة في هذه الحروف .

وباختصار : فالحرفُ أبلغ أداة في رسمتها ، وأصدق نُطقٍ في صمتها .

وأختتم هذا الفصل بقولي : لا خلود للمرء في هذه الحياة مهما حاول الخلود فيها ، إنما الخلود هو في العالم الآخر الذي فيه يثاب العبد ، ويعاقب مجازاة لِما قدم ؛ فإن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .





أنا جزءٌ من أم

لابُد من وقفة تحت هذه الظلال ، والغيوم الّتي تلبدت في حياة والدتي ، وتكثفت في جوها ، فأنا جزءٌ منها لا أنفصل عنها ، فحياتي حلقةٌ ممتدةٌ من حلقات حياتها ، ولعل قاريء عندما يقرأ هذه الخيوط ، أو هذه الفصول من هذا الكتاب ، إن قدر له قِراءتُها ، فيعلق قائلا : لقد أكثر هذا الكاتب من ذكر أمه ، وأبيه ، فهل هذا الذكرُ واستمراريته يُعد من السخافات ؟ ! . . . . . أو يعد من التعلق بظلال الأب ، والأم ؟ ! .

وكلٌ يُؤوِّلُ حسب ما يحلو له رأيه ، ولكن الواقع ليس هذا ، ولا ذاك ، إنما إذا أراد شخص أن يكتب سيرته الذاتية ، فلابد أن يلمَ ، ويطوف بالكل والجزء ، حتى يرسم الحلقات الممتدة في زوايا هذا التاريخ ، وصورها ، لوحة مستفيضة المعاني ، كاملة الحروف . . . . فكيف بالحديث عن أصلِ أسباب وجودي بعد الله ؟ ! . . . . . وهي القاعدة لكل شخص ، فوالداه هما الركيزتان ، والسببان بعد خالقهما ، وخالقه ، والسبب الظاهري لمجيئه إلى هذه الحياة .

فبعد هذه التوطئة ، واللمحة التوضيحية ، نتحدث عن دور حياة الوالدة ، وما ألم بها من أمراض تطورت حتى أفقدتها

الإحساس ، وحرمتها الأكـل ، والشـرب عـن طريـق الفـم ، حتـى أصبحنا في حيرة من أمرها .

ولكن ألطاف الله وفضله على خلقه ، لما منَّ عليهم بهذا العقل الجوهر الشفاف للخفايا ، والعقلُ من آياته ، وكم له من آيات تدل على أنَّهُ واحد لا شريك له ؟ ! .

فهو الذي فتحَ العقول لتطوير الحياة بأساليب العلم ، وألهـم عقول الأطباء المخترعين أدوات جديدة ، ما تخلب العقـول ، وفتـح لهم طريقةً جديدةً في تغذية المرضى الذين يصلون إلـى حالـةٍ فيهـا كالأموات ، حيث لا يستطيعون الغذاء عن طريق أفواههم كما هي طبيعة البشر ، وإذا لم يتغذوا فسوف يرحلون عن هذا الوجود .

فأخذ الأطباء يرسلون التغذية عن طريق أنبوبـةٍ ، يُرْسَـلُ فيهـا الغذاء مـن الأنـف إلـى المعـدة ، فعوملـت أمـي بهـذه الطريقـة في مستشفى القطيف المركزي فساءت حالتها ، فاتصلتُ بابني الدكتور وديع لأشرح له ملابسات هذا التطور الذي طرأ على حياة الوالـدة وكان يتخصص بولاية إنديانا بالولايـات المتحـدة عسـى أن يكـون هناك طريقة جديدة غير هذه الطريقة .

وبعـد قفولـه إلـى وطنـه ، ورأى حالـة والدتـه المؤلـمة ، أخـذ يتدارس حالتها مع الأطباء في مستشفى أرامكـو ، وشـرح الطريقـة الّتي تستعمل بالولايات المتحدة لمثل هذه الحالات ، فحـدد موعـداً لزيارتها للمستشفى .

فذهبنا بها في يوم الثامن من شهر جمادى الآخر عـام الثـالث عشر بعد الأربعمائة والألف هجرية ، الموافـق الثـاني مـن ديسـمبر

عام الثاني والتسعين بعد التسعمائة والألف ميلادية إلى مستشفى أرامكو بمدينة الظهران ، فأجرى لها الطبيب الجراح مع الطبيب المختص بالجهاز الهضمي عملية جراحية بالمنظار في جانبها الأيمن ، ووضع أنبوبة تتصل بالمعدة لتزويدها بالغذاء بأنواع السوائل ، والماء .

فمنذ ذلك التاريخ وزادها وشرابها عن طريق هذه الأنبوبة ، وهذه من آيات الله الّتي تتجلى عظمته ، وقدرته في كل شيء ، ومستمرة على هذه الطبيعة حتى يومنا هذا الجاري بتاريخ ١٢/١١/١٩٩٧م - ١٢/٧/١٤١٨ه ، أسأل الله لها الشفاء والعودة إلى الحياة الطبيعية ، فإنه يحي العظام وهى رميم .

«ربنا بك آمنا ، وعليك توكلنا ، وإليك المصير»





التجوال

كان هناك صفحات من هذه الخيوط ، لم ننشر منها صفحة واحدة ، ولم نشر إلى ما فيها من حروف فقد ذهبنا عنها بعيداً ، ولكننا قلنا إننا لم نلتزم بالعامل الزمني فإذا لا ضير ، ولا مانع من أن نسجل ما تجود ، وتسمح بها الذكرى المستيقظة من وراء أنقاض الزمن الّتي لم تختنق فتموت ، إنما نحن نسجل ما كان حياً مستيقظاً ، أو ما كان طافياً على نعش أشلاء الذكرى المتبعثرة ، إن اسطعت لململة هذه الأشلاء .

فنبدأ الحديث عن بعض الرحلات الّتي أعادت الذكرى مناظرها من التجوال في أقطار أرض الله المعمورة وهي كثيرة وقد نريد من الرحلات المرور بالتاريخ الزمني ، والتعداد التجوالي لما نصادفه من الصدف الغريبة ، والعبر الّتي قد تعرض للرحالة ، أو للمتجول ، فهي تحصل لي كما تحصل لعامة المسافرين ، وإذا أعاد صورتها الزمان شريطاً متحركاً ، فنقف نشاهده ، فنصوره في حروف معبرة ناطقة ، إما مجرد التجوال الذي هو تجوالٌ خالٍ من الديمِ فهو يتمزقُ كما يتمزق الغمام الذي لا ديمة فيه .

فقد تحدثت سابقاً في الصفحات الماضية عن السفرة المأساوية التّي ذكرت عنها ألواناً من صور الألم الذي لقيته مع الوالدة، وأخي الشيخ عبدالله، وأختي زينب في سفرنا إلى العراق من الخال عبدالله الغانم، وما اكتنف فشل العملية الجراحية من إهمال السيد أمان الشرفاء.

وهنا نعود فنتحدث عن أول نقطة انطلقت منها على جناح آلة مواصلات، أول رحلة بعد أن ملكتُ أجنحة طيران حياتي المستقلة، وأشرف هذه الرحلات رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، وذلك في شهر ذي القعدة عام خمسة وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية.

والذي أريد أن أتحدث وأروي نقطتين في فصول هذه الرحلة:

النقطة الأولى:

نصِفُ ما تعرضنا له في هذا السير من التعب المُضني، وسيرنا الشاق على الأقدام، حيث بدأنا الرحلة عن طريق السيارات من القطيف إلى الإحساء، وقد أشرت لها أنها رحلةٌ شاقة، حيث أن السيارات لم تكن معدودة لقطع الرمال.

وكانت الطرق حين ذاك غير معبدة إنما تعترضك تلال من الرمال تسمى - باللهجة الشعبية -: «طعوس»، فعلى السيارة أن تخترق هذه الرمال، والتلال المتجمعة، كما تخترق السفينةُ أمواج البحر، أو كما تخترق الثعابين رمال الصحراء، فهي أمواج من رمال تتكتل كُتلاً بعد كُتل وعندما تمر بها عجلات السيارات تمسكها، وتقبض عليها، ولا تفلت من كفها، وهي بلهجة السواقين «تغريز».

فيجب على الذين فوق ظهرها النزول لتخفيف الحمل، ووضع قطع من النحاس الخفيف تحت العجلات لتقيها عن الرمال، ودف السيارة من خلفها حتى تسير، وتنفذ من هذا النفوذ.

وليس الطريق هو قطعة رملية واحدة بمجرد أن تجتازها فقد اجتزت التعب، والجهد، وانتهى الأمر، إنما هو من ألفه إلى يائه، كما أعطينا عنه تصويراً واقعياً، أو قل إن الطريق من القطيف حتى دخول مكة المكرمة - زادها الله شرفاً وتقديراً على شرفها، وتقديرها - كله قطعة رملية.

وهكذا دواليك بدأنا رحلة جُلُها سيراً على الأقدام، وحتى صوَّرها وعبر عنها إبراهيم شيث أحد الحجيج وهو يوجه الخطاب لمسؤول الحملة ورئيسها السيد شبر السيد محفوظ الخباز: - نحن لم نتفق معك على أمتعتنا فقط ..... وما أصدق هذا التعبير من هذا الشخص حيث أن السيارة لا تقل إلا الأمتعة، والزاد، أما الحجيج فهم يسيرون على الأقدام.

ولأمانة التاريخ سأورد كلمته بلهجة قريته - وهي قرية الخويلدية من قرى القطيف - : «هيله إحنا ما كاريناك على القشه» هذه نص كلمات إبراهيم آل شيث نقلناها بالنص، وترجمنا معانيها من اللهجة الشعبية إلى اللغة العربية.

ولولا عناية الله لفاتنا فرض الحج، لأن مسؤول هذه الحملة - رحمه الله - كان ضعيفاً لا تخوله إمكانياته الشخصية والفكرية إدارة هذا الموكب من الحجيج، وهذه الرحلة كان المرشد الديني فيها أخي العلامة الشيخ عبدالحميد الخنيزي.

النقطة الثانية :

والنقطة الثانية الّتي نريد أن نتحدث عنها في هذه الرحلة هي رؤيتنا ، ومشاهدتنا لمدينة مكة المكرمة على طبيعة معالمها بآثارها القديمة ، ومن تلك المعالم كان المسعى بين الصفا ، والمروة ، تقوم على جانبيه الحوانيت ، فترى الساعين يمرون فيه ذهاباً ، وإياباً ، وعلى يمينهم ، وشمالهم بائعي العطور ، ومن ألوان السلع الّتي يتزود منها الحجيج للتبرك بها كهدية لأهلهم .

كما تفصل طريقٌ مارةٌ بالمسعى ، وتمر به السيارات ذهاباً ، وإياباً ، وعندما يأتي الساعون إلى هذا الممر تقف السيارات حتى يجتاز الساعون هذا الممر ، وهذا الممر يُعد شرياناً حيوياً في أرض مكة لإتصاله مباشرةً ببعض الحرم حيث تقف السيارة أمامه وهو يربطُ جهتي مكة ، ومتصل بالدوائر الرسمية ، فقريب من مدرجه بناية مكاتب البرق والبريد .

كما رأيتُ سوق «سويقه» ، تعيش على طبيعتها كصورتها الأولى ، وهي تكتظ بالبشر لابتياع السلع من حوانيتها ، وحملها للتبرك لأنها لامست صعيد مكة الطاهر .

كما رأيت أم القرى تعيش في صورها القديمة بشوارعها ، وطرقها الضيقة ، وكذلك رأيت المدينة المنورة كما هي على معالمها القديمة ، وطبيعتها فهي تعيش بطرقها الضيقة وسوابيطها المظلمة ، وبها ساباط يشبه ساباط الظلمي بقلعة القطيف نمر به مجتازين للحرم النبوي ، فهي صورةٌ تقرب من صورة تخطيط قلعة القطيف ، وقد شرحنا طبيعة الساباط في الصفحات السابقة .

كما رأيت فيها بيت عبدالله والد خاتم الأنبياء - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ورأيت بعض الآثار الاسلامية التي كانت في عهد نبينا - صلى الله عليه وآله - .

واستحميتُ في حمام طيبة القديم ، وهو على غرار المسابح التركية القديمة ، كما رأيت بلدية المدينة المنورة تضع في سوابيطها ، وطرقها الفوانيس الّتي تحدثنا عنها ، وكانت تستعملها بلدية القطيف ، كما أشرنا لها حيث ليس هناك كهرباء في ذلك الوقت .

لقد تغير كل شيء ، وزالت معالم مكة المكرمة ، والمدينة المنورة القديمة حيث شق فيهما الطرق ، ومد فيهما أنابيب الإسالة للماء ، واستبدلت بدل الفوانيس مصابيح الكهرباء .

ومن زارهما قبل أن تمتد لهما يد الحركة العمرانية ، ويزورهما اليوم لا يعرف من تلك المعالم شيئاً ، ويجهل طرقهما لأن كل شيء تغير عليه ، إلا ما بقي في ذهنه من تلك الصور القديمة ، وهي لا ترشده في الواقع للطرق الّتي تبدلت طبيعتها ، وواقعها على رقعتي أرضهما .

وعندما عدت حاجاً لمكة المكرمة عام ثلاثة وثمانين بعد الثلاثمائة والألف ، وجدت هذا التبدل في الطرق ، وفي كل شيء ، وحتى في توسعة الحرمين الشريفين ، والفارق بين الرحلة السابقة وهذه الرحلة حيث كانت على جناح متن الهواء .

والذي أريد أن أتحدث عنه في الرحلة الثانية عما ألم بنا من تعرضنا إلى عاصفة جوية مشحونةٍ بالرعد ، والبرقِ ، والريح ، ونحن نسير على متن الفضاء نسابح الأطيار في طيرانها لولا رحمة الله ،

ولطفه الـذي نجانا ودفع عنـا - ، وأنـا أصحـب في هـذه الرحلـة والدتي ، وزوجي ، وأخي العلامة الشيخ عبدالحميد ، وابـن العـم مهدي عبدالحسين الخنيزي .

أقلعت بنا الطائرة في يوم الخميس الواحد والعشرين مـن شـهر ذي القعدة في العام المذكور من مطار مدينة الظهران ، متجهين إلـى المدينة المنورة مارين بمدينة الرياض ، وكلنـا أمـلٌ وشـوق أن نـؤدي صلاة المغرب ، والعشاء من ليلـة الجمعـة في حـرم الرسـول المطهـر صلى الله عليه وآله .

وبعد إقلاعها ثانية من مدينة الرياض متجهة للمدينة المنـورة ، ونحن نسابق على متن الغمام الريح والبرق في طائرة من طراز «كـون فير» ، فوجئنا بعاصفٍ عتي ، وبرق ، ورعود ، وأمطار تهطل بغـزارةٍ فلم نشعر إلا كأن يداً ، أو قبضة من الريـح تقبـض علـى الطـائرة ، وتهوي بها عدة أمتار إلى جهة الأرض .

غير أن الطيار ، بمده ربه بعـزم وقـوة ، فيقبـض علـى الطـائرة ، ويرفعها إلى الأعلى ، وعشنا فترة طويلة من الزمن على أعصابنـا ، ونحن ندعو الله ونطلب منه النجاة .

وفي دوامة الصراع المستمر بين الصعود والنزول ، تقيـأ ركـاب الطائرة إلا قليلاً منهم ، وأنا من القليل .

وبعد ثوانٍ شعرنا أن الخطر تدلى أكثر من ذي قبـل ، حيـث أن الطيار أضاء إشارة الخطر ، وبعد هنيهة أعلـن للركـاب عـن طريـق مكبر الصوت : أنه غير ممكن الوصول إلى المدينـة المنـورة ، حيـث تلقيت أمراً من برج المراقبة بالرجوع إلى مطار جدة .

وبعد لأيٍ طويل من السير ، وإرادة ربانية ، وصلنا إلى مطار مدينة جدة بعناية من الله ، وكانت وسائل الإسعاف واقفة مستعدة تنتظر هبوط الطائرة ، فصعد لنا رجال الإسعاف والإطفاء والأمن ، يقدمون لنا تهاني السلامة - فنشكر الله على نجاتنا ، وكم له من فضل على عبيده .

ولم تقتصر رحلتي على هاتين الرحلتين ، فقد وفقني الله إلى التشرف بالحج عدة مرات ، والاعتمار لمكة المكرمة ، وزيارة الرسول - صلى الله عليه وآله - بالمدينة المنورة ، وأئمة البقيع .

نذكرها للتاريخ الزمني حيث لم يمر بنا فيها من العوامل الزمنية إلا قضية واحدة ، كانت مزعجة لي ، في حج عام التسعين بعد الثلاثمائة والألف هجري ، حيث ألم بوالدتي مرض أصيبت به بعد طوافها الأخير بالبيت ، وهذا المرضُ لم نعرف ماهيته ، فمن جرائه لا يثبت الطعام في معدتها ، فكلما أكلت قليلاً ، أو كثيراً تقيأته ، وسبب لها هذا المرض انتفاخ في البطن .

ففزعتُ بها إلى مستشفى جياد بمكة المكرمة ، فنومت فيه مع الأخت زينب ، وبعد الفحوص والتحاليل ، قررا لأطباء المختصون أنها مصابةُ بانسداد معوي ، وتحتاج إلى عملية جراحية ، وأكلها ، وشربها بمغذي عن طريق أنبوبة تُرسل من الوريد حتى إجراء العملية ، لكون الأكل والشرب لا يمر من مساره إلى المعدة عن طريق الفم فيسبب لها أنتفاخاً ، ولابد من أجراء العملية الجراحية لإزالة السَدد المعوي ، وإلا تعرضت للأخطار ، وبالتالي إلى الموت .

وكان لزاماً عليَّ أن أرحلها على متن الجو ، لأن سفرنا كان عن طريق السيارة حيث هذه الرحلة تتكون من سفر عائلي ، الوالدة ، والأختين زينب ، وبهية ، وزوجي ، تقلنا سيارة خاصة بنا ، لنتمكن من زيارة أحباب لنا كانوا في معتقل جدة ، وهم الأخ رسول الشيخ علي الخنيزي ، والأخوان زوجا الأختين رسول أحمد الزاير ، عبدالله رضي الشماسي .

فبعد إصابة الوالدة ، صرت أبحث عن بديل عني لترحيل الوالدة مع شخص مُحرِمٍ عليها ، فحصلت على البديل ، وهو ابن أخي الشاعر عبدالواحد الخنيزي ، فطلبت منه أن يرافق زوج جده إلى مدينة الظهران ، فكان منه الإيجاب ، فذهبنا معاً إلى مطار جدة لأحجز لهما ، وأودعهما .

غير أن الصدفة المريرة في ذلك الوقت ، لم أكن أملك ثمن التذكرتين ، وما كان في جيبي إلا ما يزيد على أجرة سيارة الأجرة للذهاب ، والإياب من مطار مدينة جدة إلى مكة .

ولكن ثقتي بالله سوف تذلل لي العقبات ، ويسهل لي الطرق - هي الّتي جعلتني لم أتردد في الذهاب ، لأن فيه إنقاذ نفس ، وأيّ نفس ؟ ! . . . . نفس أم سهرت عليَّ الليالي ، وضحت بكل نفيس وغالي .

فاجتزنا الطريق إلى المطار ، وأنا لم أفاتح ابن أخي عبدالواحد في شيء ، حتى وصلنا إلى المطار ، ودخلنا صالته ، اقتربتُ ووقفت عند منضدة بائع التذاكر ، فطلبت منه أن يقطع تذكرتين إلى مدينة الظهران ، وهنا طلبت من ابن أخي أن يقرضني ثمن التذكرتين ،

فكان جوابه : «لا أملكُ من ذلك حتى ريال واحـد » ، فتمثلت لـه بالمثل الشعبي «مفصخ لا يف على عريان» .

ولم تكن البنوك في أسلوبها التطوري المشـهود في هـذه الأيـام ، فأستطيع أن أسحب مـن الحسـاب الجاري ، حيث لا يوجـد في القطيف غير مصرف واحـد ، هـو مصرف الريـاض بعد أن أُغلـق مصرف القاهرة ، ولكنني لم آيس من رحمة الله .

وأنا غارقٌ في هـذه التـأملات والهواجس ، فوجئت بشخص يحيّني ، ويسلم عليّ ، فما كدت أفتح عيني ، وأرد التحية عليه حتى شعرتُ كأنني أرتشف ماءً عذباً ، وأنا كظمآن أسير وسط صحراء ملتهبة .

أهذا هو عبدالمحسن المخرق - التـاجر الوجيـه ، أحـد تجـار البحرين - ؟ ! ، هل أنا في حلم أم يقظة ؟ ! .

نعم إنه هو عبدالمحسن ، لقد جئت في ظـرفٍ عصيـب ، وأنـا في حاجة ضرورية لك ، وبعد شرحي له عن هـذا السر ، أقرضنـي مـا احتجت إليه ، فله الشكر ، إنها من الصـدف المباركـة الّتـي يذلـلُ اللهُ لعبده فيها الصعاب .

وسافرت الوالدة مـع ابـن الأخ إلـى مطـار الظهـران ، وكـان الختام مسكاً ، وتوفيقاً سعيداً .

وكان لزاماً عليَّ أن أعود مع العائلة ، نطوي البيداء طياً حتى أكون بجانب الوالدة برغم الوصايا التي نصصتُ عليها لأبن أخـي الشاعر عبدالواحد وبالحرف إنني أطلب منك عندمـا تطـأ رجلـك مطار الظهران أن تذهب بزوج جدك إلـى واحـد مـن المستشفيات

الأهلية بمدينة الخبر قبل أن تصلها إلى بيوتنا ، لكنه ضعف وتغلبت عليه الوالدة فأوصلها إلى بيتنا فعاد لها إنتفاخ البطن ، وعند عودتي وجدتها تعيش في البيت لم يحرك لها ساكناً ، برغم وصيتي لابن أخي أن يدخلها المستشفى منذ وصوله للمطار ، فعندها قمت بإدخالها مستشفى السلامة بمدينة الخبر ، وأجرى لها الأطباء المختصون العملية الجراحية .

وهنا أحب أن أعطي صورةً قاتمة لهذا المستشفى التجاري ، فقد أخذ تكلفة العملية والعلاج مبلغاً ضخماً يثقل الكواهل ، ولا سيما في ذلك الظرف الّذي لم ترتفع فيه تكلفة العلاج إلى مستوى اليوم ، وهو مبلغ قدره سبعة آلاف ريال سعودي ، وهذا المبلغ في ذلك الظرف الماضي عسيرٌ ، وصعبُ الحصول عليه .

ولكني لململمتُ ذيول جراحات حياتي ، وما عندي ودفعته مرغماً لذلك المستشفى التجاري ، وأحسن ما في هذا المستشفى الإهمال الذي يلاقيه المرضى المنومون .

وبعد أن نطوي ملف رحلات الحجاز - وهي حجج أربعٌ ، وعُمرة - فننشر ملفاً أخر من تجوال رحلات أخرى ، حيث قمت بزيارةٍ لبعض البلاد العربية ، وإيران .

وهذه الرحلات وقعت على أجنحة أعوام متفرقة ، وأذكر بعض الرحلات التي يكون لها عامل غريب منبه ، وملفتٌ في دور المتجول في أرض الله كأنما هو يذرعها ، أو يرسمها خارطةً ، أو مخططاً يوضح معالم تلك الديار .

فمن رحلاتي، وتجوالي زيارتي إلى العراق، فقد زرت هذا البلد العريق في الحضارة عدة مرات لعلها تصل إلى خمس عشرة مرة، أو تزيد، أو تقل.

ولا أريد أن أتحدث عن جميع صفحات هذه الرحلات، وإن كان لها دور وشأن في ميزان الأعمال عند الله، حيث القصد منها زيارة وصي رسول الله - صلى الله عليه وآله -، وأهل بيته الأطهار، الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا.

إنما أريد أن أتحدث عن صفحة من هذه الصفحات الّتي تحولت سجلاً فكرياً، وانطبع عليها طابعٌ من المناقشات الأدبية، والعلمية، فكان لها لونٌ يميزها، حيث قدر لي أن أزور الجمعية الخيرية بكربلاء - إن لم تَخُنِ الذاكرة في إسمها -، والتقيتُ هناك بكوكبة من الفكر، فكانت الجلسة تدار على حروف مناقشات من الفكر، والشعر، والأدب، والتاريخ، تركز محوره على مجال الشعر العربي منذ فجره الأول، حتى النهضة الحديثة.

ومن ضمن الكوكبة: الشاعر والمؤلف السيد صادق طعمه، فكانت هذه اللُقيا همزة وصل، وتعارف بيني، وبين الأديب صادق طعمه، فأقام لي مأدبة غذاء في بيته بحي المعلمين بكربلاء، وكانت نقطة بحثٍ ونقاشٍ، أدرناهُ على ديوانه الذي قدمه لي مخطوطاً المسمى: «نفحات»، لنقده، وإبداء مرئياتي في قصائده.

فأبديت رأيي في هذه القصائد بحرية، وشجاعة أدبية، وأنا لا أذكرُ مضامينها لأنني أبديتها له شفوياً، وقد غاب عن عالم الذاكرة، وقد طلب مني أن أكتب مقالاً عن هذا الديوان، فكتبت

مقالاً أسميته «تعليقٌ على نفحات» ، وأرسلته إليه للإطلاع عليه ، وهو من ضمن فصول كتاب أضواء من النقد في الأدب العربي .

وهذه الخاطرة الشفوية لم أسجلها حيث غفت بين أنقاض السنين ، وانتهت إلى أشلاء مبعثرة . . . . . . وكم من ذكرياتٍ من الذكريات ضاعت في تلافيف الزمن ، وقبرت ؟ ! .

وهذه الرحلة واللُقيا بهذا الشاعر ، كان في شهر الحج العام السابع والثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجري ، الموافق سبعة وستين بعد التسعمائة والألف ميلادي ؛ وكان معي الأستاذ سعيد سلمان العبدالهادي الحبيب .

ومن أفق العراق نطير إلى أفق القاهرة لإتصال المُدنِ بعضها ببعض لسرعة أجنحة المواصلات ، فهي في تطورها تقرب المسافات البعيدة ، وتطوي البحار ، والصحارى كطي البرقِ ، فما عليك إلا أن تُحلق وتسبح في الجو مع الطيور ، فبمشيئة الله يصلُ بك هذا المركب الطائر إلى أبعد غاياتك .

فنهبط على مدرجِ مطار القاهرة ، ونسيرُ في أرض الكنانة ، وهي أول رحلة أقوم بها إلى قاهرة المعز ، وتكررت زياراتي لها عدة مرات لعلها تصل إلى ثلاث رحلات مختلفات الزمن أو تزيد .

وقد شاهدت فيها أفكاراً متفتحة ، وزرت المتحف الوطني ، والمتحف الحربي ، وبعض الآثار التاريخية هناك كالأهرام ، وأبي الهول ، والذي أوقفني ، وشدني ما رأيت من آثار خلفها الفراعنة ، وتركوها وراء ظهورهم .

ومما يلفت النظر ، ويسمر الفكر من هـذه الآثار الطعام الـذي حنطوه ، كالصمون - أي الخبز - ، فإذا نظرت إليه تخاله طرياً ، كما تشاهد الزهر في الشجر الذي يخيل لك كأنه حيٌ يتفتح في أغصانه .

وكانت الفراعنة تحول هـذا الـورد إلـى مـادة عطرية سـائلة ، وعندما تبصر هذه الأطعمة في أوعيتها الشفافة ، تبـين لـكَ غَضـة ، وأنا أحدق فيها تمثل لـي عظمـة القـرآن الّتـي ليـس فوقها بلاغة وتصوير ، فتلوت الآية :

«أنظر إلى طعامك ، وشرابك لم يَتَسنَّه»

أي لم يتغير ، ولم يتبدل ، هذا من خالقٍ قادرٍ على كل شيء :

«إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون»

فطعام الفراعنة الذي حنط ، وبقي إلى هذا العصـر ، إنما هـو بسبب عقلٍ مخلوقٍ خلقه خالقه ومده بـالعلم فعلمـه كيـف يسـتعمل علم التحنيط فحنط هذا الطعامٍ ، وقد يلحقه التعفن .

ولماذا نبتعد ، ونذهب بعيداً ، فقد أصاب المرض وتسـلل إلـى مومياء جُثث الفراعنة . . . . . فكم من مومياء أرسلتها حكومة مصر إلى فرنسا لعلاجها ؟! ...

وهذا فرق واضح بـين طعـام الفراعنـة المحنـط ، وبـين طعـام ، وشرب عُزير الـذي أشـارت لـه الآيـةُ الكريمـةُ حيـث لم يتغـير ، ولم يتبدل ، وقد مرّ عليه مائة عام .

أما طعام الفراعنة فلا يُؤْكل ، ولو مسته الريح ، أو الضـوء لتهـرى ، وتحول إلى ذرات فانية تطير مـع الريـح ، وهـذا يدعونـا لزيـادة اليقـين ، والإيمان بالله ، والتصديق بكلماته ، ويزيدنا يقيناً على يقيننا .

وقبل أن نغلق ملف الرحلة إلى القاهرة، لابد من إشارة تاريخية، نشيرُ بها إلى حكم هؤلاء الطغاة الفراعنة، فأسماؤهم تعبر عن طغيانهم، وجبروتهم.

وما أشادوا هذه الآثار كالأهرام الضخمة - الّتي عاشت يُضربُ بها الأمثال - إلا من دم الشعب المصري، وقوته، وسلبه لقمة عيشه، وتسخيره لشهواتهم، ورغباتهم، وبناء قصورهم، وسقي بساتينهم الّتي تحولت بفضل العامل المصري، وماء النيل إلى جنات خضراء، وحياة من النعيم والترف يعيشها هؤلاء الجبابرة، تتجسد في الأسرة الذهبية، والفرش الوفيرة الّتي ينامون عليها، وكرسي العرش الذهبي، وتستعمل نساؤهم الأحذية الذهبية، والفساتين المطرزة بالذهب مشدودة عليها الأحزمة الذهبية.

كل هذه الآثار تُشاهدها مجسدةً في هذا المتحف، وبعبارة أدق تشاهد دم الشعب متمثلاً في هذه الآثار، وتدل على حكم متعسف ظالم للشعب، غارق في الشهوات، واللذات لا يبالي بمواطنيه عاشوا، أم ماتوا.

وهناك أغرب من ذلك، حيث يوجد في هذا المتحف قسم مخصص لجثث الفراعنة المحنطة، فعندما تدخل إلى هذا القسم من هذا المتحف، تجد جثث الفراعنة المحنطة، أو قل موميات موضوعة في خزانات بلورية، ترى باطنها من الشاشات البلورية.

ومن ضمن تلك الموميات، مومياء كُتِبَ عليها: «فرعون موسى»، إلى ما يماثل هذه المومياء من الموميات الأخرى.

وقد كتبت قصيدة تصور هذه الآثار ، وحياة الثقافة الفكرية في مصر ، نورد منها مقطعاً ، تكملة للإفادة ، وعنوانها تحت ضوء الحضارة :

أتيتكِ يا أفق الحضارة في الدجى ... وأنت كأحلام تسلسل في فجرِ

غفوتِ على دنيا الصبابة والمنى ... وفتحتِ في أفق من الفن والسحر

حضارة (خوفو) ما تزال كأمسه ... تشع كضوء الفجر في ظلمة العصر

زهور ، وآثار ، وتاج ، ومنظر ... تدور كضوء الشمس في عالم الفكر

طعام له حي ... كأن فَتاتهُ ... تعد الطعام الحي في قبة القصر

تمايلن كالغصن الوريق تثنياً ... وأورقن جنات من الزهر والعطرِ

سرير لعرش الملك مازال ماثلاً ... محاطا بألماسٍ وبالذهب المُغر

ودنياً من الإغراء واللهو حوله ... تمايلن نشوى في لياليهم الحمرِ

قد يتصور القارئ بين الحديث عن آثار الفراعنة ، وبين وصف القصيدة لهذه الآثار تناقُضاً ، ولهذا التوهم أحببنا أن نعطي لمحةً ، نوضح ما يزيل هذا التوهم ، فهناك فرقٌ بين الآثار المتحفية ، والشعر ، لأن حديثنا ، ووصفنا للمتحف وآثاره ، هو إعطاء صورة وصفية ، لهذه الآثار التاريخية الضخمة الّتي يفخرُ بها شعب مصر .

فالقصيدةُ تصفُ أثاراً تاريخية تركها بناة الأهرام ، وعلماء التحنيط - عصارة عقل ، وفكر - ، ولا دخل لها في تعسف حكم الفراعنة وحياتهم .

إنما النقد في تسخيرهم هذه الطاقات العلمية ، والفكرية في خدمة شهواتهم ، ورغباتهم المستهترة بالشعب .

وهذه الآثار يعتبرها الشعب المصري مجداً ضخماً من أمجاد علماء ماضيه ، ومفكريه وهو حريٌّ بالإشادة بها ، فبعد هذه الصورة لا تناقض بين القصيدة ، ووصف الحياة الّتي قامت عليها ، وشيدت عليها هذه الآثار .

ونطوي ملف القاهرة ، لنفتح ملفاً آخر من الرحلات التجوالية .

وقبل أن نطير إلى ربوع إيران مررنا بسوريا العربية غير أن هذا التجوال بهذا القطر لم يوجد حياةً متوثبة أو فكراً نرسمه بهذا التجوال ، إذاً علينا أن نطير إلى سماء ربوع إيران ، ونحل على قمم روابيها المخضوضرة ، ونتطلع إلى آفاقها المصبوغة بألوان الصور ، ونعيش لحظات بين تلك الروابي ، لنتمتع بما فيها من صور خلابة ممتعة أخاذة ، وندرس التاريخَ الغابر ، ونضعُ مقاييساً نوازن فيها : هذه الرحلة ، ورحلة الشاعر الكبير أبي الطيب المتنبي ، وما لاقاه من عنصرية ، وغربة لسان ، ووجه ، ويد ، ونرى هل يتجدد الدور ، ويدور الزمن ؟ ! .

فإذا بالماضي يتمثلُ في الحاضر ، فإن الحاضر مرآة للماضي ، وكأن الربوع هي الربوع لم تتبدل ، فقد مر بي الدور الذي مر بالمتنبي ، فعشت في هذه الربوع غريب الوجه ، واليد ، واللسان ؟ ! .

غير أن هناك فارقاً يميز دوري ، ودور المتنبي ، وعامل أسلوبٍ ، وطابع حياة تفصلُ الزمن الذي عاشه المتنبي ، والزمن الحاضر الذي

أمر فيه، فظللت في غربتي، وما يبطنها من وحشة برغم المشاهد الطبيعية الخصبة، وأشجارها المورقة، وشلالاتها المنحدرة من أعالي القمم، وتمتعي بجمال هذه المناظر الخلابة، وهذه الأجواء السحرية لم تطفي عليَّ حياةً هادئةً يتلألأ أفقها كواكب من الإرتياح لإعتراض الصخرة الكؤود، هي اللغة الّتي حالت بيني، وبين السريان في هذه الأجواء، والذي أفظع من اللغة هي العنصرية البغيضة، فهي تتجسدُ في أبشع صورها، ومظاهرها، ففي هذا الأسلوب التقيت فيه مع المتنبي على مدرجٍ واحد كلانا مر به.

وتختلف الصورة بيني وبينه في نقطة خلاف انطلق منها، وتحول إلى شعوبي، انغمس فيها ليمسح عن وجهه أطياف الغربة، ويخفف من أشباحها البغيضة، ويتقرب ويذبح قوميته على محراب المطامع، وأخذ يكتب فقال:

يقول بشعب بوّان حصاني ... أعن هذا يسار إلى طعان

أبوكم آدمٌ سنّ المعاصي ... وعلمكم مفارقة الجنان

ويقول من قصيدة أخرى:

لا تقدرُ الشعراء تنشدها هنا ... شعراً ولكني الهزبر الباسلُ

ويقول من قصيدة أخرى:

من مُبلغ الأعراب أني بعدهم ... شاهدت رسطاليس والأسكندر

هذه شعوبية صارخة تعلن عنها هذه الأبيات الشعرية، فأنا أتباين مع المتنبي في هذه الظاهرة، وألتقي معه في صورة بيته:

ولكـــن الفتـــى العربـــي فيـــه غريـب الوجـه واليـد واللســان

صورة حية ناطقة ، استمدها من الواقع الذي عايشه وطاف به ، ولكنها حقيقة ، ولهذا الأسلوب المنحرف الخط ؛ فأنا أُنادي بذوبان العنصرية ، والقبلية ، والطائفية بين المسلمين ، وتمحى مـن أفكارهـا لتعيش أمة واحدة تحت كلمة لا إلـه إلا اللـه محمـد رسـول اللـه ، وكفى بها حصناً ، وظلاً ، ويحسنُ من شعب إيران المسلم الموحـد ، والعاشق للرسول وأهـل بيتـه فهـو أجـدرُ بتذويـب هـذه الفـوارق الكريهة البغيضة .

وعوداً على بدء ، لأعطـي اختـلاف الصورتـين ، والموقفـين في هذه الربوع ، فالمتنبي تحول إلـى شـعوبيٍ ، وأوضحنـا الدليـل مـن أبياته .

وحينما وصفت هذه الربوع أدللـتُ فيهـا بعروبتـي ، ولم أتخـلَّ عنها في وصفي ، بل كنت أسير معها كما يسير الظل مـع شـاخصه ، لأن لغتي هي لغـة القـرآن الّتـي تـلزم كـل مسـلمٍ تعلمُهـا ليـؤدي الفرائض الخمس ، الّتي هي أعظم صلة بين الخالق ، والمخلوق ، ولا يجوز تأديتها على الوجه الشرعي إلا باللغة العربية .

وبالرغم مما لقيته من موقـف عنصـري ، واصطـدام لسـان ، فقـد أوحت لي مناظرها السحرية الجميلة قصيدة وصفية ، تصـور طبيعتهـا الخلابة في رحلتي مع زوجي وأبنائي علي ، وأديب ، ووديع ، ونبيه .

وكتبت هذه القصيدة ونحن نسير بين تلـك الروابـي الخضـراء ، والشلالات المتدفقة ، وأطياف الغروب تغفو علـى جفـون الأفـق ، وعرائس الأشـجار تميـس علـى ضفافهـا الحالمـة ، وبـدور الجمـال

البشري عرائس نثرت في أرضها ، وأنا أستلهم هذه القصيدة من هذا الجو وأُمليها على ابني نبيه ، والسيارة تتهادى بنا بين الطبيعة الحالمة .

وكانت هذه الرحلة في شهر رجب عام أربعة وتسعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، الموافق للميلاد بتاريخ أربعة وسبعين بعد التسعمائة والألف ، ونورد من القصيدة مقطعاً :

إيـــران ! ياحلمـــاً علـــى	جفـــني ودنيـــاً مـــن رغـــاب
جنـــاتك الخضـــراء لا	حـــت في جبـــالك والروابـــي
الأحـــرف الخضـــراء تكتـــب	آيـــة الفـــن العجـــاب
فكـــأن عدنـــاً قـــد بـــدت	للعـــين في هـــذا الكتـــاب
وعرائـــس الأشـــجار مـــا	ســـت كـــالغواني في التصـــابي

ثم أستمر في هذه القصيدة حتى رسمتُ فيها الصورة التي تباينتُ فيها مع شاعرنا الكبير المتنبي ، ونورد هذ المقطع :

نـــاديت شـــاعرك الطـــروب	فـــرد أصـــداء النـــداءِ
نـــاديت يـــا خيـــام ! غـــرد	في ليـــاليك الوضـــاءِ
أنـــا ذلـــك العربـــي أطلـــع	في سمـــائك كالضيـــاءِ
أنـــا في حقولـــك كـــالعطور	تضوعـــت مـــلءَ الفضـــاءِ

ونشير إلى رحلتين - غير هذه الرحلة - إلى ربوع إيران ، واحدة منهما كانت سماء إلهام ، وأفقاً شعرياً ، حيث أوحت لي

قصيدة، حين مررت بمدينة نيسابور - مسقط رأس الشاعرعمر الخيام -، وذلك عام ١٣٨٩هجرية، ١٩٦٩ ميلادية.

فعندما مررت بهذه البلدة، تجسدت لي حياة الخيام، وأطيافه، وما يدور فيها من لهوه في صورها البيقورية، وأطياف محبوبته شِيرين، والصور الغرامية الّتي انعكست في شعره، من عبثه، ومجونه تحت سماء هذا البلد، تجسدت لي هذه الحياة، واستعدتُ مشاهدها، وذكرياتها الغافية، وتمثلتُ من شعره ببعض الأبيات تدور مع الزمن.

ولعلي أعزي هذه الظاهرة، الّتي أعطت قسطاً كبيراً من الإشادة، والتمجيد بهذا الشاعر، وزخماً هائلاً هو: ما أبداه في شعره من أفكارٍ منحرفةٍ تصل في مفاهيمها للإلحاد، والسخرية بالأديان.

فالخيام لم يصل إلى هذه القمة الّتي أجلسه التاريخ عليها إلا بهذه الأفكار المنحرفة، وبرغم هذا - وذاك -، أوحت لي هذه الذكريات، والمدينة قصيدةً أسميتها: «مع الخيام» نشرت في ديوان «شيء أسمه الحب»، نورد منها مقطعاً:

طاف الخيال بنيسابور فابتسمت — عرائس الغيد من أطياف شيرين

ولاح وجهٌ إلى الخيام في دعة — يخصلّ الضوء في باقات نسرين

فيحتسي من بنات الكَرم أعذبها — فترسل الدفء في ليلات كانون

معانياً من معاني السحر قد جُليت — كأنها باقةٌ في كف تشرين

ورحلة أخرى: كانت لمدينة شيراز بربوع إيران مع أخي العلامة الشيخ عبدالحميد، ووالدتي، وابني نبيه، كما التقينا

هناك بالأخت زينب، وزوجِها رسول، ووالده أحمد الزاير، وكان هذا الاجتماع العائلي حياة ذهبية، وفرصة تفتح آفاق الحبور، حيث تلتقي عائلتان - هي عائلة واحدة - تجمعهما الصدفةُ، فيرسمُ منها حرف حياة أنس.

وكانت هذه الرحلة في عام ١٣٩٦ هجرية الموافق ١٩٧٦ ميلادية، حيث زرنا قبر الشاعر الكبير حافظ الشيرازي، وما فيه من آثار، وكتب تسجل حياة هذا الشاعر، وتمجد فكره الأدبي.

وفي هذه الرحلة لم تُوحِ لي نغمة من الأوتار الشعرية، كما أوحت لي الرحلتان السابقتان، غير أنها ذكرى من الذكريات الفكرية الأدبية والعائلية.

فهنا نطوي هذا الملف الذي ضاع منه قسمٌ من الرحلات للبلاد العربية كسوريا، وغيرها لعدم استعادة الذاكرة لمحةً من صور تلك الذكريات.





خاتمة

إن الإنسان نقطةٌ من نقاط هذه الحياة ، وفاصلةٌ من فواصلها البسيطة المعقدة ، ينطلقُ رغوةً في موج بحرها الخضم ، فينحل في بحرها اللّجي الواسع الأرجاء ، - الذي يتيه فيه أرباب السفن - فتغرق فلا ترى لها أثراً ولا حساً ، فكأنهما لم تمر بهذه الحياة ، ولم تصارع أيامها ولياليها ، وتعيشُ على قمة شرها ، أو خيرها .

فلا يعتبر عمر الإنسان بالمدة الزمانية الّتي قضاها على هذا الكوكب ، إنما هي بما أنتج وترك من آثارٍ فكرية ، وأعمال صالحة ، وذكرٍ حسنٍ جميل يتردد أصداؤه ، ويدور مع الأزمان ، ويهتف ببني الإنسان في إرشاداتٍ ضوئيةٍ ، تضيء هذه العتمة ، وترشد السائرين ، فهو كالمنار للسفن الذاهبة والآيبة في هذه الحياة .

إنما حياته هي ظلٌ قصيرٌ سوف ينطوي ، ولا بد أن ينطوي كما تنطوي لمحة البرق أو الضوء عندما يعقبه الليل .

فمن عاش هدفه الأكل والشربُ دون أن يسجل خلجات قلبه ، يترجمها لسانه بذكر الله ، ويقضي هذه المدة في طاعة الله ، ويضيف إلى ذلك حياةً فكرية ، يسجلها في سفر أو أحرف ، يتساطع منها الضوء ، وإلا فهو كالسائمة أو هو أضلُ منها .

إن فضول العيش هي إشغالٌ، والباقي هو الذكر الجميل الذي يعقبه المرء بعد رحيله وغروب شمسه.

وأردتُ من هذه الأحرف أن أسجل هذه الخاطرة في إطروحةٍ، تشير إلى مضمون هذه الخيوط، وكيف لاقيتُ من صعوبة جهدٍ، ومرارة تعب.

وبرغم ما أعانيه من ليلٍ جثم في عيني، وحرمني القراءة، والكتابة، ومن إشغال وقتي بالروابط الإجتماعية، وإمتلائه بزورة الأصدقاء، وعيادة بعض الإخوان المرضى، والإرتباطات العائلية.

كل هذا لم يمنعني لأن تقف سداً حائلاً في طريقي، فتغلبتُ بفضل الله، وبما مدني من عزم، وجهد، حتى وصلت إلى الشاطئ.

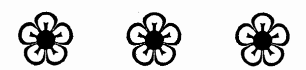
وأنا أختتم بهذه الخاتمة حرفاً من حروف هذا الكتاب، والذي هو في مجلدين راجياً من المولى أن يوفقني إلى وضع الأطروحة المجلد الثالث.

وأنا شاكر ربي، حيث وفقني إلى إتمامه، ولولا فضله لكنت من الهالكين، ولولا رحمته لكنت من الضالين، فحمداً وشكراً له.

وبهذه الأحرف بما فيها من معاني الحمد والشكر، أختتم هذه الخاتمة التي وضعتُ بها اللمسات الأخيرة بالتاريخ المذيل بآخر الصفحة، سائلاً الله أن تكون خاتمة خيرٍ وبركة.

١٥/٧/١٤١٨هـ

١٥/١١/١٩٩٧م





من وحي الخيوط

من وحي خيوط الشمس

هذه القصيدة للإبن العزيز الفاضل السيد سعيد السيد أحمد الخباز، عندما قرأ كتابي خيوطاً من الشمس أوحى له هذه القصيدة، وكان لوعيه الحسي دوراً في إقتباس المعاني من هذا الأفق، فأشكره على هذا التقدير والإجلال.

المؤلف

خيوط الشمس قد بزغت لِتروي ... حَديثَ الأَمسِ في صُوَرٍ عذابِ

حَدِيثَ الحُبّ، والُخلُقِ المُربَّى ... حَديثَ الفَخْرِ، والعَجَبِ العُجَابِ

حَدِيثَ الشَمسِ؛ إنْ طلعتْ بِجُزْءٍ ... مِنَ الأجزاءِ في بَلَدِ الكَعَابِ

حَدِيثَ النَّخلِ والثَمَرِ المُصَّفَى ... وعَذْب المَاءِ في وَسَطِ الروابي

حَدِيثَ اللَّيلِ في سَمَرٍ بَرِيءٍ ... حديثَ الفَجرِ في حُلَلِ الثِيابِ

حَدِيثَ الأرضِ والتَّأريخِ حتَّى ... يَصِيرَالحقُّ مُرْتَفعَ الجَنابِ

حَدِيثَ الفَنّ، والإنسانِ بِدْعًا ... حديثَ النَّقْشِ في صَخَرٍ صِلابِ

حَدِيثَ الدَّهرِ، وَالدَّمَنِ الخَوالي ... وذاكَ السُّورِ في عِظَمِ النِصَابِ

حَدِيثَ البَذلِ بِالأرواحِ طُرّاً ... وصَهْرِ النَّفسِ مِنْ أُسُدٍ غِضَابِ

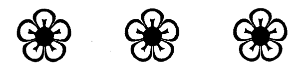
حَدِيثَ الخَطِّ، وَالقِدحِ المُعَلَّى ... وَصَفْوِ الفِكْرِ في ذَهَبٍ مُذابِ

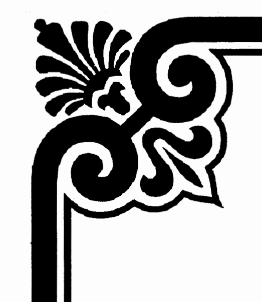
حَدِيثَ الشِعْرِ، والأُدباءِ جَمْعاً ... ومَالاَقوه مِنْ أَلَمِ العَذَابِ
حَدِيثَ العِلْمِ، والعُلَماءِ حقاً ... وأُسِّ المَجدِ، والأَلَقِ المُهَابِ
حَدِيثَ الغابرينَ، وَمَنْ توارى ... عَنِ الأنظارِ في طَيِّ التِرَابِ
حَدِيثَ الذِّكرياتِ بكلِّ فنٍ ... وصِدقِ القَولِ في أَدَبِ الخِطَابِ
خُيوطٌ مِنْ حَديثِ أَبي عليٍ ... ستبقى مَورِداً في كلِّ بابِ
سَتَبقى مَورِداً لِرُؤى حَياةٍ ... وتَهْدِي جيلَنَا جِيلَ الشبابِ
خُيوطٌ مِنْ صَميمِ الخَطِّ صِدْقاً ... تَجلَّتْ وارتقتْ بَينَ الُّلبابِ
خُيوطٌ قَدْ أجادَ بِها أديبٌ ... نَمَتْهُ المَكْرُماتُ بلاَ ارْتِيابِ
نَمَتْهُ الفَاضِلاتُ، وَلَيسَ بِدْعاً ... بهذا الفَرْدِ في عُمُقِ العِرابِ
خيوطٌ صاغَها قَلَمٌ أَمِينٌ ... فَأَكْرِمْ بالأديبِ مَعَ الكِتابِ
وَأَكْرِمْ بالوليدِ «خِيوط شمسٍ» ... وَفرْدٍ قَدْ أفاضَ بِلاَ حِسَابِ
خيوطٌ مِنْ حَشَا بَلَدٍ عَرِيقٍ ... وفيضٌ مِنْ رُؤى تِلكَ العِذابِ
فَشُكراً لِلسعيد على فُصُولٍ ... ونَبْعٍ دائمٍ دُونَ اغْتِرابِ
وَشُكراً للأديبِ على جُهُودٍ ... أتتَنَا بالُّلبابِ مَعَ الصَّوابِ
وشُكْراً للحبيبِ أبي عليٍ ... لِدُرٍ مِنْ ذُرى تِلكَ القِبابِ
ونالَ مَرَاتِباً مِنْ غيرِ مَنٍ ... وعَيْشاً هَائِناً يومَ الثوابِ

شهر صفر ١٤١٨هـ

حي الحسين - القطيف

سعيد الشريف





آثار المؤلف

اسم الكتاب	اسم المطبعة	سنة الطبع	نوع الكتاب
النغم الجريح	دار مكتبة الحياة بيروت	١٣٨١هـ ١٩٦١م	شعر
شيء اسمه الحب	مكتبة الإنجلو المصرية	١٣٩٦هـ ١٩٧٦م	شعر
شمس بلا أفق	الدار العالمية - بيروت	١٤٠٦هـ ١٩٨٦م	شعر
مدينة الدراري	مطابع الرضا - الدمام	١٤١٤هـ ١٩٩٣م	شعر
كانوا على الدرب	مؤسسة البلاغ - بيروت	١٤١٦هـ ١٩٩٥م	شعر

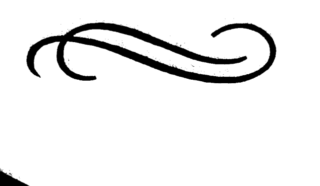
* * *

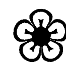
اسم الكتاب	اسم المطبعة	سنة الطبع	نوع الكتاب
خيوط من الشمس	جزئين هو ذا		نثر
أضواء من النقد الحديث	مخطوط		شعر
تهاويل عبقر	مخطوط		شعر
أجراس حزينة	مخطوط		شعر
الشعر العربي ودوره في الحياة	جزئين مخطوط		نثر





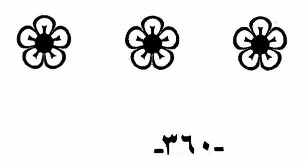
قاموس ما احتواه الكتاب من أعلام وأسماء ومواقع



فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة



جدول الخطأ والصواب للجزء الثاني لكتاب خيوط من الشمس

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٠	٣	يُعَقِمه	يُعَقِّمُهُ
٢٢	١	مقايس	مقاييس
٢٤	٩	مُنَغِصاً	مُنَغَّصاً
٣٤	١	آثراً	أثراً
٣٦	٢	وسنفصلُ	وَسَنَفْصِلُ
٣٧	٦	طويلاً	طويلٌ
٣٩	١٩	أنشات	أَنْشَأَتْ
٣٩	١٠	علي	علٍ
٤٢	١٩	الأثرى	الأثري
٥٠	١٧	مرت	مررتْ
٥٧	١٤	أخر	آخر
٦٣	عنوان	دعوة	عودة
٦٥	٢	العملية	العلمية
٧٦	١،٩	الكتّاب	الكُتّاب
٧٦	١٥	يُسلمُ	يُسَلِّمْ
٨٤	٢	وشموليةُ تمييز	وشمولية تمييز
٩٩	٣	عام (مكرر)	عاماً
١٠٨	١٥	حرمية	حرامية
١٠٩	٦	طبيعي	طبيعيًا
١٠٩	٨	متزن	متزناً
١١٣	٢٢	وجان الرطب	وجاني الرطب
١٢٦	٨	تثقل	تستقل
١٤١	١	الرؤيا	الرؤية
١٤٢	١٥	ومطلِ	ومطلٌ
١٥١	١٧	الرؤيا	الرؤية
١٥٥	عنوان	الشرية	الشربة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٠	١	وأضخما حادثات	وأضخم الحادثات
١٦٧	٦	يوماى	يوماً
١٦٨	١٣	هدر	هدراً
١٧٣	٣	أخو	أخي
١٨٤	٦	طرفة العبد	طرفة بن العبد
١٩٥	الأخير	ويجرى	ويجري
١٩٩	١٢	إل	إنّ
٢٠٠	٨	المرفيء	المرفأ
٢١٦	٩	الشمس في النوس أضحت وهي	الشمس في القوس أضحت وهي نازلة
٢٢٥	٦	أبار	آبار
٢٣٣	٢٠	بدء	بدأ
٢٤٠	١٩	البدية	البلدية
٢٤٢	١٩	فإذ	فإذا
٢٥٢	١٨	فرأها	فرآها
٢٥٣	٣	الدعاوي	الدعاوى
٢٥٣	٧	القضية فكرة بعيدة المرام	فحانت لناظر القضية فكرة بعيدة المرام
٢٥٤	٨	إن	أن
٢٥٤	١٩	الانخرف	الانحراف
٢٥٦	١٣	الرؤيا	الرؤية
٢٥٧	١	اضطلع علية	اطّلع عليه
٢٥٧	١	عصرة	عصرِهِ
٢٧٠	الأخير	وتتهيء	وتتهيأ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٨٠	١١	السري	السرير
٢٨٣	١١	طالة	طالت
٢٨٦	٢	معالمًا	معالم
٢٨٩	٣	قارئ	قارئًا
٣١٠	١٤	مقاييسًا	مقاييسَ
٣١١	٤	تُطفي	تُطفُ
٣٢٠	١١	الأطروحة	اطروحة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٢٩	١٠	القرامطي	القرمطي
٣٦٠	١١	جراحت	جراحات
٣٠٧	١٨	وشرب	وشراب
٣٢٦	٣	أضواء من النقد الحديث مخطوط – شعر	أضواء من النقد في الأدب العربي مخطوط – نثر
٣١٩	٦	الزمانية	الزمنية

جدول الخطأ والصواب في القاموس

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٢٩	٣	٢٥١	٢٥٢
٣٢٩	١٧، ١٨	٨٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤	تحذف
٣٢٩	٢٢	٢١٢-٢١٣-٢١٥	تحذف
٣٣٠	٤	٨٦	يحذف
٣٣٠	١٢	١٥٠	يحذف
٣٣٠	٢٦	٢٣١	١٨٦
٣٣١	٣	السيد العوامي	السيد حسن العوامي
٣٣١	٦	برحة الخليب	براحة الخليب
٣٣١	٦	١٥٤	يحذف
٣٣١	١٦	٣٠٦	٢٤٢
٣٣٢	١١	٦٩-٢-١٢١	٦٩-١٢١
٣٣٢	١٩	١٦٢	يحذف
٣٣٣	٥	٢١-٢١	٢٢١
٣٣٣	٨	١٢٧	يحذف
٣٣٤	٦	٢١٣-٢١٥-٢١٦	يحذف

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٣٤	٩	١٥٥	يحذف
٣٣٤	١١	١٦٦	يحذف
٣٣٤	١٣	١٢٥	يحذف
٣٣٤	١٩	٣٧	يحذف
٣٣٤	٢٣	٣١٥	٣١٩
٣٣٦	٥	١٥٩	١٦٠
٣٣٧	٤	دروايز	دروازة
٣٣٧	الأخير	٢٩٩	١٦٢
٣٣٨	٢١	١٠٩	يحذف
٣٤٠	١١	١٢٤	٢٢٤
٣٤١	٢٤	٨٥	يحذف
٣٤٢	٣	١١٢	٢١٢
٣٤٢	١٢	٢١٣	يحذف
٣٤٢	١٧	٤٢	يحذف
٣٤٣	٧	٢٩٥	٢٩٨
٣٤٣	١٤	٣٠٨	يحذف
٣٤٤	٢٣	٢٨٠	يحذف
٣٤٥	١٤	٢٥٢	يحذف

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٤٦	٤	٣١٢	٣١٣ /
٣٤٦	٩	١٣٣	١٧٣
٣٤٦	١١	١٣٦	يحذف
٣٤٦	١٧	٢٠١	٣٩-٤٠
٣٤٦	٢٣	١٠٨	١٨٠
٣٤٧	٨	٨٦	٨٧
٣٤٧	٨	١١٠-١١١-١١٥-٢٢٨	١٨-٢٥٨-٢٧٥-٢٨٨
٣٤٧	١٠	٦٧-٦٨-٧٠-٨٢	٥٥-٥٧
٣٤٧	١٧	٢٥٩	يحذف
٣٤٧	الأخير	١٤٩-١-٢١٢	١٤٩-٢١٢
٣٤٨	١٠	٩٤	يحذف
٣٤٩	١٢	١٨٥-١٨٦	يحذفان
٣٤٩	٢٠	١٢٧	٢٢٧
٣٤٩	٢٢	١٩-٢٠-٣٣	١٩-٣٣
٣٥٠	٥	٢٨٦	٢٥٦
٣٥٠	٦	١١٤-١٨٦	٢٨٦
٣٥٠	٨	٣٤٩	يحذف
٣٥٠	١١	٤٨	يحذف
٣٥١	٢٠،٢١	١٨٦ (مكرر)	يحذف
٣٥٢	٧	٢٠	يحذف
٣٥٢	١١،١٢	٣-٦٠-٦١-١٠٤	تحذف
٣٥٣	٨	٣٧	يحذف
٣٥٣	٩،١٠	١٩،٦٦،٨٣،٨٩،١٤٤-١٦٨،٢٣٩،٢٥٦-٢٥٨،٢٥٩	٦٦
٣٥٣	١٣	١٣٥	١٢٥
٣٥٣	١٧،١٨	٢٤١-٢٨٩	يحذفان
٣٥٣	١٨	٢٧٨-٢٩٢	٢٧٩-٢٩٣
٣٥٣	١٩	٢٩٧-٢١٣-٢٤٩	٢٨٥-٢٨٧-٢٩٩
٣٥٣	٢٢	٢٣٢	يحذف
٣٥٣	٢٣،٢٤	٤٣-١٧٦	يحذفان
٣٥٣	٢٧	١٦٣	١٦٢
٣٥٤	٥	٣٢٢	٣٢١
٣٥٤	٦	٣٢٣	٣٢٢
٣٥٤	٧	٣٢٥	٣٢٤
٣٥٤	٨،٩	٢٧٦-٢٩٣	يحذفان
٣٥٤	٩	٢٩٧-٣٢٤	٢٩٦-٣٢٣
٣٥٤	١٢	٣٤٠	٣٠٤
٣٥٤	١٣	٢٣٦-٣٢٣	٢٢٢-٣٢٢
٣٥٤	١٧	٣٧٢-٣٢٨	٣٢٢-٣٢٦-٣٢٧
٣٥٤	١٨	١٠٨	يحذف
٣٥٤	٢٥،٢٦	٢٦٥-٢٥٤	يحذفان
٣٥٥	١٧	٢٦	٢٦٠
٣٥٦	١٢	١٧٣	يحذف
٣٥٦	١٩	٣٩٣	٢٩٣
٣٥٧	١٢	١٦	يحذف
٣٥٧	١٤	٧٦	يحذف
٣٥٧	١٩	٢٨٨	٢٨٠
٣٥٧	٢٠،٢١	٢٧٨-٣٥١-٣٢٩	تحذف







مؤسسة البلاغ
للطباعة والنشر والتوزيع

المكتب : بئر العبد سنتر الإنماء ١ ـ ط٣ ـ المستودع : صفير ـ جانب فرن الأمراء
ص.ب : ١١ـ٧٩٥٢ ـ هاتف : ٠١/٥٥٣١١٩ ـ ٠٥/٤٦٣٢٥٨ ـ بيروت لبنان